الإعجاز البلاغي

في

سورة يوسف عليه السلام

الدكتـــورة

عزيزة عبد الفتاح الصيفي

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر – فرع البنات بالقاهرة

إهـــداء

إليك يا أخي المسلم ويا أختي المسلمة

إلى كل مدافع عن الحق . .

تقـــديم

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آلــه وصحبه أجمعين..

أذكر في الصغر أننا كنا – عند الفجر في رمضان – نجلس كل ليلـــة في انتظار البرنامج الإذاعي المعروف (أحسن القصص) كان يعرض قصص الأنبيـاء والأمم الغابرة والبائدة، كانت تملؤني الرهبة عند سماع قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[1] وتشدني الرغبة في متابعة قصص القرآن والإنصات بشغف، فكانت أروع اللحظات تمر وأنا مشدودة لما يقص ويروى.

كانت اللهفة والتعطش لمعرفة قصص الأنبياء، تنمو وتعظ[illegible] يــوم استمع وأقرأ كل ما كُتب عن تلك القصص، ووجدتني وقفت ملياً أمام قصـ[illegible] سيدنا يوسف عليه السلام وقد هداني الله لعمل هذه الدراسة البلاغية، فما من كتـاب سماوي ذكر قصص الأنبياء بكل إعظام وإجلال ووقار كما ذكـــر في القـــرآن الكريم، فشعرت بالغيرة الشديدة على ديني، وخاصة في هذه الأيام العصيبة علـى الإسلام والمسلمين، إذ نعاني من تلك الهجمة الشرسة ضد الإسلام، والتي يشـنها الغرب، في صورة صراع يغلفونه بما يسمى بـــ(حوار الحضـــارات) وهـــو في حقيقة الأمر (صراع الحضارات)، وهو صراع يستهدف الإسلام، مما يسـتوجب المواجهة والتصدي لكل محاولاتهم الآثمة وادعائهم العولمة التي هي صراع الأقـوى لفرض ثقافاته وسياساته وأخلاقياته على شعوب الأرض الضعيفة، إننا في حاجـة ماسة إلى التقرب من الله أكثر وأكثر..

---

(١) يوسف، آية: ٣.

ومعروف أن البحث عن أسباب إعجاز القرآن كان له الفضل الأول في ظهور علم البلاغة، وكثرة البحث فيه ساعدت في تطوير فنونها وألوانها ، وأجهد العلماء أقلامهم في البحث عن سمات خاصة للقرآن تميزه عن كلام البشر وهو القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين .

وقد خلصوا إلى أن كلام القرآن لا يشبه كلام العرب من حيث الخصائص والمميزات، وإن كان قد نزل بلسانهم، وعلى طرقهم في التعبير، إلا أن له خصائص تميزه وترفعه عن أي كلام آخر من كلام البشر.

وسورة يوسف عليه السلام حظيت من العلماء بالشرح والتفسير مثلها مثل باقي سور القرآن الكريم، وكثرت التفسيرات واللمحات البلاغية التي استنبطوها من آياتها فهي السورة الوحيدة في القرآن التي اشتملت على قصة كاملة، هي قصة سيدنا يوسف عليه السلام، فالسورة من أولها إلى آخرها، تحكي قصة نبي الله الذي اجتباه واصطفاه واختاره للنبوة.

وقد أرجع بعض المستشرقين – ممن لهم توجهات آثمة – وجود القصة في القرآن الكريم إلى اعتبارها روايات متفرقة وقصص مقتبسة من الكتب السماوية، وأخذوا يحملون على القرآن، مما دعا العديد من العلماء ورجال الدين الغيورين على دينهم أن يتصدوا لافتراءات المستشرقين بدحضها وإفشالها، وإثبات عدم صحتها، ونذكر الداعية الإسلامي من جنوب أفريقيا – أحمد ديدات ، كيف أنه في مناظرات متعددة مع بعض رجال الدين المسيحي قام يدافع عما جاء به الله في القرآن الكريم، محاولاً بالحوار الهادئ أن يثبت بالأدلة إعجاز القرآن، وفي إحدى مناظراته قام يعرض كيف روى القرآن قصة مريم عليها السلام وقصتها كما رويت في الإنجيل، وأوضح كيف أن القرآن تعفف في ذكر قصتها وكيف وهبها الله المسيح عليه السلام، في حين ذكرها الإنجيل بأسلوب فيه إباحية تشعر

بالخجل الشديد لتصوير الأنبياء بهذه الصورة المشينة، والتفت الداعية المسلم إلى رجل الدين المسيحي قائلاً: لو أنك أردت أن تنصح ابنتك بقراءة قصة مريم، أتنصحها بقراءتها من القرآن أم من الإنجيل، وكان الرد مذهلاً إذ قال له: أنصحها بقراءتها في القرآن لما يكتنف القصة فيه من مظاهر العفة والوقار والإجلال وإكبار للأنبياء..

وبعد فإن هذه الدراسة البلاغية لسورة يوسف اعتمدت على العديد من المراجع والمصادر سواء المذكور منها وغير المذكور ، وكان جل الاهتمام ينصب في نطاق الوسائل البلاغية التي تكشّفت فوائدها ومردوداتها الفنية والجمالية على أسلوب القصة المعجز .

وسوف يظل القصص القرآني سبيلاً لكل قاصد ، إلى المعرفة وأخذ العظة والعبرة ، سيظل هدفاً للدارسين الذين يرجون مرضاة الله وخدمة كتابه . والله أسأل أن ينفع بهذه الدراسة كل طالب علم ، وأن تكون جهداً خالصاً لوجه الله .

القاهرة ١٤٢١ هـ

دكتورة

عزيزة عبد الفتاح الصيفي

التعريف بسورة يوسف :

سورة مكية ، نزل بها جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ بعد سورة هـود ، في فترة من أحلك الفترات التي عاشها محمد ﷺ محزوناً متألماً لموت صرحين مهمين كانا يدعمانه عندما كلف لنشر دعوته، إنهما عمه أبو طالب وزوجه خديجة، وقد سمي عام وفاتهما بعام الحزن، ثم حدثت بيعة العقبة الأولى ثم الثانية، فكانتا بارقة أمل، وانفراجاً للكرب، للرسول ﷺ والذين آمنوا معه رضي الله عنهم، ودعماً ومؤازرة للدعوة الإسلامية، نزلت السورة في تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة وفي حياة محمد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، إذ كانوا يعانون من اضطهاد قريش.

والسورة : " كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحاً في موضوعها وفي جوها، وفي ظلالها وفي إيحاءاتها، بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة "(١).

وسورة يوسف مكية كلها، وقال ابن عباس رضي الله عنه وقتادة رضي الله عنه : إلا ثلاث آيات من أولها..

الإعجاز البلاغي في سورة يوسف عليه السلام

إن البحث في الإعجاز البلاغي للقرآن يمكن أن يسلك فيه الباحث أحد الطريقين:

١ – إما أن يتأمل شواهد متفرقة من آيات القرآن يحللها بلاغياً.

٢ – أو يقوم بدراسة تحليلية لسور كاملة تطلعه على الصورة المتكاملة لها والوحدة العضوية التي تربط الآيات بعضها ببعض في تآلف وانسجام لا نظير له في لغة البشر.

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب: ١٢/١٩٥٠دار المعرفة .

وقد اتجهت الدراسة إلى اختيار سورة يوسف أنموذجاً متكاملاً وشاهداً على الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، في محاولة جادة لبيان موقع علوها وسمو بلاغتها ونظمها، وذلك لفتح باب في تناول إعجاز القرآن الفني والأسلوبي، لأن النظر في القرآن آية آية، أو النظر في السورة من خلال رؤية بلاغيـــة محـــدودة ببحث فن بلاغي معين، تكون دراسة ينقصها النظرة البلاغية الشاملة، وذلك ما اتخذته الدراسة التي بين أيدينا واجباً وضرورة، للبحث، لاستخلاص الخصـــائص البلاغية للسورة كاملة، يدار عليها حديث النظم، يناقش ما فيها من أســـاليب، بعد التأمل فيها كلمة كلمة وحرف حرف، وفصلاً فصلا، ليكون التحليل أكثر كشفاً عن فنية الأسلوب وبلاغته، وكيف حسن الانتقال من آية لأخـــــرى في تسلسل متآلف يتراءى لمن أمعن النظر، وكيف اتصل أول القصـــــة بآخرهـــا، وكيف وصل ما بعدها من الأخبار عن الربوبية، بالمقدمة، من غير خلل يقـــع في النظم، وكيف تمتعت القصة بالوحدة العضوية التي تحدث عنها النقاد وجعلوهـــا أساس النجاح في العمل الفني، حتى ظهرت السورة وكأنها خلق متكامل، يمسك بعضه بتلابيب بعض.

إن المتأمل في سورة يوسف يتبين تلك الوحدة العضوية التي ميزتها حـــين يقف مبهوراً متعجباً لروعة هذا الترابط المتوازن بين أجزائها ترابطاً يتضح فيـــه اتصال المتأخر بالمتقدم، واللاحق بالسابق، واستدعاء آياتها بعضها بعضاً، فإذا مـــا حاول أحد تغيير موضع الآية أو إسقاط كلمة أو وضع أخرى مكانها أو حـــتى تغيير حرف أو إسقاطه كل ذلك يحدث خللاً واضحاً في هذا الكيان المتآلف.

وإذا كان العمل الفني البشري لا بد أن تتوفر فيه الوحدة العضوية لتجعلـه عملاً متكاملاً يستحق أن يكون إبداعاً من إبداعات الفنان الأصيل، الذي يعمل

دائماً على أن يكون نظمه للقطعة الفنية متناسقاً تترابط أجزاؤها وتتلاحم تلاحماً يشهد بقدرته على الإبداع، فينظر إلى العمل على إنه كائن حي مفعم بالحركة والصوت والمشاهد والألوان.

فإن قصة يوسف عليه السلام تختلف عن كلام البشر كما تتميز عن سائر قصص القرآن، فالقصة في القرآن تحاك بأساليب شتى وفي أماكن متنوعة دون أن ينالها الضيق في نظمها، أو يترل بها الضعف في صورة من صورها، فيقول الباقلاني- على سبيل المثال ـ: إن القرآن أعاد قصة موسى عليه السلام في سور، وعلى طرق شتى، وفواصل مختلفة مع اتفاق في المعنى[1]..

أما قصة يوسف فقد جاءت مرة واحدة، و لم تذكر في أي سورة من سور القرآن بعد ذلك أو قبله، وقد شملها الإيجاز والاختصار مع الوفاء بحق المعنى، ووضوحه دون خلل، فقد يفسد الكلام بالاختصار المخل بالمعنى، ولكن القرآن "يزيده الاختصار بسطاً لتمكنه ووقوعه موقعه، ويتضمن الإيجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه"[2].

إن كلام البشر مهما ادُّعِيَ فيه الكمال فإنه "يقصر عما يراد به من التمام، ثم لو وقع على الأفهام أخلّ بما يجب فيه من شروط الأحكام، ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصاً في وجه الحكمة، أو داخلاً في باب السياسة، أو مضعوفاً في طريق السيادة، أو مشترك العبارة إن كان مسجود المعنى أو جيد البلاغة، مستجلب المعنى، أو مستجلب البلاغة جيد المعنى، أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة، أو مستبهم الجانب مستكره الوضع"[3].

---

(١) إعجاز القرآن ، ٢٨٨-٢٨٩ . للرافعي ، دار الكتاب العربي بيروت .

(٢) إعجاز القرآن، ٢٩٢.

(٣) إعجاز القرآن: ٣٠٠.

فنرى من خلال الدراسة كيف اختلف نسيج قصة سيدنا يوسف عليه السلام بين إيجاز وإطناب وإجمال وتفصيل، وبين آيات يمتد فيها الكلام ويطول.. ورغم هذا الامتداد فهو إيجاز، لأن القصة كما نعلم تحكي فترة زمنية طويلة مهما قيل فيها فهو من باب الإيجاز، واللمح والإشارة إلى الأحداث التي تناقلتها والشخصيات التي عرضتها.

وإذا كانت القصة قد اعتمدت على الحوار والمناقشة، فإنها اعتمدت في بعض الآيات على التلميح والإخبار عما كان، واللفظ يتردد بين ذلك كله، مناسباً وفي أعلى درجات البلاغة.

وربما يلحظ المتأمل أنه لا تفاوت في ذكر آباء يوسف عليه السلام وأجداده في مختلف المواضع بالقرآن، فقد ذكروا بصفاقم، كما جاء في سورة يوسف قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١).

فإذا أعيد ذكرهم لا نجد اختلافاً ولا تفاوتاً، في أخبارهم،بل يأتي الكلام عنهم على نهاية البلاغة والدقة.

ونذكر قول رسول الله ﷺ عن يوسف عليه السلام: (إذا قيل: من الكريم؟ فقولوا: الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم) (٢).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦، سبق شرحها..

(٢) أخرجه الترمذي، والنسائي، وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو من المتفق عليه (بلفظ).

وإذا كان القرآن كله وفي جميع سوره على دوحة[1] واحدة من الفنية، أعجزت من يطالعه ويدقق في كلامه، فلا يعقل أن يقال أن هناك سورة أبلغ من أخرى، رغم اختلاف الأساليب وتنوعها، ولنتأمل الآيات التي تبشر المحسنين والمخلصين ومنهم يوسف عليه السلام، نجد المعنى فيها لا يتفاوت والمحسن والمخلص عند ربه له صفات معروفة، لا تختلف ولا تتفاوت.

والقصة لم تعتمد على لغة المجاز بقدر اعتمادها على السرد الواقعي للأحداث، وذلك برهان ودليل على أهمية اللغة النثرية الواقعية، فالإعجاز ليس بالضرورة أن يكون من خلال اللغة المجازية، وليس بالضرورة نقل اللفظ من معناه الحقيقي، وليس بالضرورة السباحة مع الخيال والتصوير المجازي الذي يعطي المعنى مذاقاً خاصاً، لأن اللغة الواقعية، بألفاظ ذات مدلول حقيقي ربما تكون أبلغ في توصيل المعنى، وإصابة الهدف.

وارتبطت أذهان العلماء فترة طويلة، بفكرة أن فنية الكلام تنبع من استخدام اللغة على غير أصلها الوضعي، وعلى غير حقيقتها التي وضعت من أجلها، وقد حكموا أن المجاز والكناية أرقى وأبلغ من الحقيقة، وأخذوا يضعون مقاييس لبلاغة الكلام، وأنه كلما أمعن المبدع في استعمال الاستعارة والكناية، كلما كان كلامه أبلغ وأسلوبه أعمق..

وكان ذلك فهماً خاطئاً منهم، فمن يطالع قصة يوسف عليه السلام، يلحظ هذه البلاغة المعجزة التي تأتت من النصوص دون استغراق في الاستعارة والكناية بل

---

(١) راجع الأسلوبية والبيان العربي ، د. محمد عبد المنعم خفاجي وآخرين . ٥٣ الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٢ .

باستخدام الكلمة فيما وضعت له، في المكان المناسب وعلى النحو الملائم مع مراعاة ضرورات الأسلوب من التقديم والتأخير، والذكر والحذف، وأهم عامل بنيت عليه الجمل والآيات في القصة بمراعاة الفصل والوصل، ومقام الاستفتاح، والختام، ومواضع التتميم والتذييل، ومواطن الإيجاز والإطناب والمساواة والقصر، وتنوع الجمل ما بين خبرية وإنشائية وخروجها إلى أغراض أخرى بلاغية.

وجميع ما ترصده البلاغة من فنون تساعد على الإبانة والإفهام في علم المعاني، إنها فنون عندما يحسن الاستعانة بها، تنطلق المعاني من الخواطر على سجيتها، وتعين المبدع الأصيل الذي يبحث عن المعنى الشريف دون تكلف أو تحميل الكلام أكثر مما ينبغي من الزخرف البراق حيث تتلألأ الصور فينسج أسلوباً براقاً، لا يتعدى حدود السمع، ولا يتأصل في الفكر، ولا يمس شغاف القلب.

هكذا جاءت سورة يوسف معتمدة على أساليب المعاني وإن وجدت بعض الأساليب المجازية من استعارة وكناية ولكن قليلة، وحينما يتطلبها المعنى، ومع ذلك جاء الأسلوب على أبلغ ما يكون الكلام، ودلّ على أن البلاغة كما تعود إلى الصورة الجزئية والكلية والكناية والتشبيه، أو الجرس السمعي المتأتي من التجنيس والسجع وغيره، فإنها تعود - أيضاً - لاختيار اللفظ المناسب للمعنى ورعاية الدقة في استخدام الأساليب المتنوعة، على النحو الذي يؤدي دوره في الكلام، بحيث يتراءى من خلاله ارتباط أجزاء النص ارتباطاً تظهر معه مقدرة المبدع جل جلاله وإتقان صنعه لآياته، بوضع كل لفظ في موضعه.

فكما هو واضح في السورة استخدمت اللغة على أصل وضعها مثل قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿يا أبتِ إني رأيت أحد عشر كوكباً.....﴾.

وقول يعقوب عليه السلام: ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك ......﴾.

وقول إخوة يوسف عليه السلام: ﴿إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا.﴾.

هكذا وردت الأقوال وكذلك الأخبار في القصة بأسلوب واقعي سردي مثال قوله: ﴿ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً﴾، وقوله: ﴿وراودته التي هو في بيتها﴾ بأسلوب بعيد عن لغة المجاز إلا في بعض المواقف التي استدعت ذلك مثال قوله تعالى: ﴿وجاؤوا على قميصه بدم كذب﴾، وقوله: ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾، وقوله: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾، وقوله: ﴿إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً﴾.

وفي جميع المواضع التي استخدمت فيها اللغة على أصل وضعها يلاحظ قوة النسج وإحكام الصنعة، وإصابة الكلمة في موضعها..

يقول الرافعي: "لا جرم إن كان القرآن في نظمه وتركيبه على الأصل الذي أومأنا إليه نمطاً واحداً في القوة والإبداع لا تقع منه على لفظ واحد يخل بطريقته ما دامت تنعطف عليه جوانب هذا الكلام الإلهي، وما دام في موضعه من النظم والسياق، فإذا أنت حرفت ألفاظه عن مواضعها، أو أخرجتها من أماكنها، وأزلتها عن روابطها حصلت معك ألفاظ كغيرها مما يدور على الألسنة ويجري في الاستعمال، ورأيتها - وهي في الحالين لغة واحدة - كأنما خرجت من لغة إلى لغة، لبعد ما كانت فيه مما صارت إليه، وهذه الروح التي أومأنا إليها لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن"[1].

---

(١) إعجاز القرآن، للرافعي، ص: ٣٣٤، دار الكتاب العربي، بيروت.

وقد ثبت يقيناً بعد جدال طويل بين العلماء أن المجاز ليس أبلغ من الحقيقة ويطالعنا عبد القاهر الجرجاني في القرن الرابع بقوله: "إن تفسير هذا وتقريره أن ليس المعنى إذا قلنا: أن الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد"[١].

يفهم من ذلك أن قوله أن المزية ليست في استعمال اللفظ المجازي في ذاته، بل إن المعنى ازداد إفادة وتأكيداً وقوة، فعلى سبيل المثال قوله تعالى - من قول امرأة العزيز -: ﴿الآن حصحص الحق﴾ فإن أصل الحصحصة للبعير الذي يقع على الأرض بأعضائه عند الجلوس والاستناخة، فهي تريد إثبات أنه الحق واستقر، فليست المزية في إثبات الحصحصة للحق وإنما في إثبات "المعنى دون المعنى نفسه فإذا سمعتهم يقولون أن من شأن هذه الأجناس أن تكسب المعاني نبلاً وفضلاً، وتوجب لها شرفاً، وأن تفخمها في نفوس السامعين، وترفع أقدارها عند المخاطبين... فإنه ينبغي للعاقل أن يجعله على ذكر منه أبداً، وأن يعلم أن ليس لنا إذا نحن تكلمنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكلم المفردة شغل، ولا هي منا بسبيل، وإنما نعمد إلى الأحكام التي تحدث بالتأليف والتركيب"[٢].

وإذا كان الحال كذلك فإن اللفظ في سورة يوسف إذا أبدل مكانه غيره وكان منه، قد يدل على المعنى لكنه لا يؤدي مؤدى اللفظ الأول، لأن المعنى بالضرورة يتبدل ويذهب الرونق الذي يكون معه، القوة التي يؤكد بها المعنى.

ويقول الخطابي: "إن في الكلام ألفاظاً متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان المراد، كالعلم والمعرفة والحمد والشكر، والبخل

---

(١) دلائل الإعجاز : ٥٧ . عبد القاهر الجرجاني . دار المعرفة .
(٢) دلائل الإعجاز: ٥٨.

والشح، والنعت والصفة، وكقولك: أقعد واجلس، وبلى ونعم وذلك وذاك، ومن وعن، ونحوها من الأسماء والأفعال والحروف والصفات: والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها"[١].

ثم يستشهد الخطابي بقوله تعالى: ﴿فأكله الذئب﴾ على أن استعمال لفظ (أكل) يستعمل في فعل السباع خصوصاً الافتراس، يقال: افترسه السبع ويرد على من اعتبر أن مثل هذه الألفاظ وردت بخلاف الوصف عند أصحاب اللغة وأهل المعرفة، لذلك وقعت في أفصح وجوه البيان وأحسنها.. فيرى "أن البلاغة ليست إلا التوفق والتهدي لوضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب"[٢].

وذلك أن لفظ (أكله) أبلغ من (افترسه) كما أوضحت الدراسة فإن يعقوب عليه السلام أراد أن يوضح لأولاده معنى وهو: أنني أخشى أن تأتوني بحجة أن الذئب أكله و لم يتبق منه شيء، لأنه كان يعلم رغبتهم في التخلص منه، ولو قالوا: (افترسه) فقط لكان ذلك أدعى أن يأتوا به لأبيهم وقد افترسه السبع..

وعليه يقول الدكتور عبد الرؤوف مخلوف: "إن البلاغة لا ترتبط أبداً بالصور البيانية المعروفة في علوم البيان والبديع، وإنما البلاغة بلوغ المبدع للكلام الغاية التي يقتضيها المقام"[٣].

ويختار الدكتور [٤] لإثبات رأيه - الذي لا يختلف عن رأي كل عالم بطرائق الكلام وبلاغته - يختار بعض شواهد من سورة يوسف وأكد على أن

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ٢٦. دار الكتاب العربي .
(٢) التفسير البياني للقرآن الكريم: ٦٨.
(٣) من قضايا اللغة والنقد والبلاغة : ٢١٦ . د. عبد الرؤوف مخلوف ، مكتبة الفلاح .
(٤) المرجع السابق: ٢١٧-٢١٨.

استعمال اللغة على أصل وضعها في كثير من المواقف والمواطن قد يكون أبلغ من استعمالها على طريق المجاز والاستعارة وأن السورة في جميع ما ذكر من شواهد - سبق وأوضحتها الدراسة - لا تعتمد على الخصائص البيانية فهي لا تلجأ إلى الاستعارات ولا تستكثر من الكنايات ولا تقصد إلى المجاز إلا حين يقتضي الموقف شيئاً من ذلك ويستدعيه المقام.

ونخلص من ذلك كله إلى إقرار أن ابتعاد القصة عن الأسلوب البياني لا يعني خلوها من البلاغة، فالبلاغة تكمن في التآلف والتواؤم والتناسب بين العبارات واستدعاء اللفظ المناسب، إذاً سواء كان الأسلوب يغلب عليه الحقيقة أو تكثر فيه الصور البيانية فإن البلاغة تتحقق بكلاهما، حين يقع الكلام موقعه من المعنى سواء حقيقي أو مجازي.

لذلك كانت هذه الدراسة لسورة يوسف لإثبات أن اللغة إذا جاءت على أصل وضعها وأدت دورها في إيضاح المعنى واستجلائه، تكون قد بلغت أعلى درجات البلاغة والإعجاز، بحيث يعجز البشر عن الإتيان بمثل هذا النسق العلي والتركيب المتآلف في إيجاز وترتيب مدهش.

وهذه الدراسة دعوة لكل من يريد جمع شتات المتفرق من التحليل الجزئي للشواهد البلاغية.. فقد آن الأوان أن يقوم الدارس بعمل دراسات شاملة لسور القرآن، وليجعل هديه في ذلك كتب التفسير الكثيرة، التي يضعها أمامه مصابيح تنير له طريق التحليل البلاغي الدقيق لكل كلمة وحرف وجملة في السورة.

وإذا كانت هناك مميزات أخرى ميزت سورة يوسف عليه السلام، فإنه حسن النسق، بحيث جاءت الآيات متتاليات متلاحمات رغم الانتقالات الزمنية حسب أحداث القصة، كذلك فقد تميزت السورة بفن بلاغي آخر هو من مميزات

الأسلوب القرآني كله - ذلك ما يسمى حسن التخلص، يقول ابن أبي الإصبع: "وقد ذهب بعض المتكلمين إلى أنه أحد وجوه الإعجاز، وهو دقيق يكاد يخفى في غير الشعر إلا على الحاذق من ذوي النقد، وهو مبثوث في الكتاب العزيز إذا تتبع وجد كابتداء فصول تجدها منافرة في الظاهرة لما قبلها من الفواصل أو غيرها، فلا يكاد يجمع بينها إلا بعد إمعان النظر وتدقيق الفكر"[1].

ويمكن ملاحظة حسن التخلص في جميع أجزاء السورة ومثال لذلك، إن سورة يوسف بدأت بحوار يوسف مع أبيه ولكي تنتقل الآيات إلى حديث الإخوة جاء قوله: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ كتمهيد وتوضيح أن هناك عبر وعظات في هذه القصة، لينتقل من حوار الأب لابنه إلى حوار الإخوة في قوله: ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا﴾.. هكذا انتقل الحوار دون أن يستشعر المتلقي غرابةً أو غموضاً أو يقع في سوء فهم أو عدم تركيز.. هكذا تم في السورة كلها، انتقال من حديث لآخر في حسن تخلص معجز..

وهكذا وردت الأحداث والمواقف في السورة، تنتقل من موقف إلى آخر ومن معنى إلى معنى، بعضه يستدعي بعضاً، فآخر الآية يستدعي ما يليها، وأول السورة وآخرها شاهد على حسن الخروج من موضوع والدخول في آخر دون أن يستشعر المتلقي نبواً أو خرقاً للكلام قد يدفع للسأم أو الاضطراب كما يحدث في كلام البشر..

---

(١) بديع القرآن: ١٦٨.

أسباب نزول سورة يوسف

وتعددت أسباب نزولها منها :

- أن اليهود دفعوا كفار مكة ليسألوا الرسول ﷺ عن السبب الذي أحل بني إسرائيل بمصر.
- وقيل: تسلية للرسول ﷺ عما كان يفعل به قومه، بما فعل إخوة يوسف به.
- وقيل : تسرية له ﷺ بعد وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنهما سنديه أمام صلف أهل قريش .
- وقيل سألت اليهود رسول الله ﷺ أن يحدثهم عن أمر يعقوب وولده، وشأن يوسف.
- وقال سعد بن أبي وقاص: أنزل القرآن فتلاه عليهم زماناً، فقالوا يا رسول الله: لو قصصت علينا فنزلت السورة.
- ولتثبيت فؤاد الرسول ﷺ كما جاء في آخر السورة قبلها في قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[1].
- وكذلك بعد نزولها تمت بيعة العقبة الأولى والثانية، واللتان كانتا بارقة أمل وانفراج للكرب، فجاءت السورة مبشرة بأن بعد الكرب يأتي الفرج والفرح.

وكان في آياتها إنباء عما لاقى الأنبياء من قومهم، فأتبع ذلك بقصة يوسف عليه السلام، وما لاقاه من إخوته ، وما آلت إليه حاله من حسن العاقبة.

وقد يظن القارئ لسورة يوسف أنها طويلة من سماتها الإطناب، فإذا ما تتبع أحداثها لاحظ أنها تروي بإيجاز شديد يتضح من الانتقالات السريعة في

---

(١) سورة هود، آية: ١٢٠.

أحداثها كما سيتبين من دراستها... فلو رويت الأحداث بإسهاب لاحتاجت لأن تفرد لها الصفحات، إذاً القصة من حيث ذكر الأحداث تعتبر موجزة؛ لأنها تحكي قصة يوسف عليه السلام منذ صغره إلى أن تولى عرش مصر، فإذا ما بحثنا في الأسلوب نجد أنه يتبع طرق الكلام الثلاث من إطناب وإيجاز وتسوية..

وكان قد وقع في يدي كتاب قيم لمحمود عباس العقاد[1]، يتحدث عن أهمية التفكير للمسلم، ويتناول في فصل من فصوله موضوع قصص الأنبياء، في الإنجيل والتوراة، وكيف أن هذه القصص قد حُرفت، ويقارنها بما جاء في القرآن، ويخلص إلى أن قصص الأنبياء قد رويت في القرآن بأسلوب راق رفيع يبتعد عن كل ما يخدش الحياء، يبعث على توقير الأنبياء وإجلالهم وتعظيم شأنهم – في حين – تروى نفس القصص بعبثية شديدة ولغو القول، إذ يجد القارئ لغة ركيكة وكلاماً ساذجاً، وحكايات كلها افتراء ممزوج بالفحش والمجون تزدريه النفس المؤمنة وتستهجنه، بل وتخجل من تلك الروايات الفاسدة التي يصمون بها أنبياء الله وأبناؤهم وبناتهم، وتلفيق واضح إذ ينسبون إليهم ارتكاب الفحش من الزنا والمجون والشذوذ، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾[2].

ولهذه الأسباب جاءت هذه الدراسة البلاغية النقدية توضح وتؤكد إعجاز القرآن الكريم في تناول القصص بأسلوب رائع بليغ لا يشبه أي أسلوب، وتؤكد على براءة سيدنا يوسف عليه السلام مما اتهمه به المستشرقون وبعض المحققين من ارتكاب الإثم، فهو نبي الله الذي اجتباه ربه وعلمه وأدبه واصطفاه وأتم نعمته عليه..

---

(١) التفكير فريضة إسلامية. العقاد . دار بيروت . لبنان ١٩٧٠ .

(٢) النساء، آية: ٤٦ .

وتحليل القصة تحليلاً بلاغياً نقدياً يعني أنه سوف يتم البحث واستقصاء المميزات ومواطن الإعجاز في الأسلوب، فإذا كان النقد البلاغي يبحث في لغة البشر من أدباء وشعراء عن الجيد والرديء، فكلام الله كله معجز، يحتاج من الباحث رفع درجة الانتباه إلى كل لفظة ترد وكل حرف، لأن الله ﷻ لا يصدر عنه لفظ أو حرف إلا وله دور في الكلام ولا يمكن التبديل أو التغيير لأن المعنى سوف يتغير.. ودور البلاغي هو البحث عن القيمة الجمالية والمعجزة لأسلوب القرآن العظيم..

" وكأي من خبر ماضٍ قص القرآن به أحسن القصص عن أمم خلت، وصحح به أخطاء وردت في الكتب السابقة تتناول عصمة الأنبياء، وفند به بعض المغالطات التاريخية، وصور محمداً شاهداً الأحداث كلها، مراقباً إياها، كأنه يعيش في عصرها بين أصحابها... أسهب في سرد قصة يوسف وإخوته[1]. ثم قال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[2].

" وكم من خبر مستقبل كشف القرآن حجابه في حياة المشركين ورأوه بأم أعينهم، ألم يستعصى أهل مكة على النبي حتى دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم القحط وأكلوا العظام " [3].

وتتجلى مهمة البحث البلاغي بالإضافة إلى دراسة الأسلوب، تفنيد كل ما جاء على ألسنة المفسرين والمحققين، وتحليله، للتمييز بين الروايات وقبول ما يقبله العقل وتجنب ما يتردد العقل في تقبله.

---

(١) مباحث في علوم القرآن. د. صبحي الصالح ٤١، ٤٢ دار العلم للملايين ط ١٠ بيروت ١٩٧٧.
(٢) يوسف، آية: ١٠٢.
(٣) مباحث في علوم القرآن ٤٢.

أضواء حول قصة سيدنا يوسف عليه السلام

إن القصة كأخبار وحكايات وروايات يقصها الناس، فن قديم عند العرب وعند غيرهم من الأمم ، ويمكن القول أنها من الفنون الإنسانية القديمة قدم الإنسان ، ظهرت في الأساطير والخرافات ، وفيما يسمى بالحكايات ، لكن القصة كفن له أصول وقواعد لم تظهر إلا في العصور المتقدمة، وهي حديثة في أدبنا العربي.

وقد تعرف العربي على القصة من خلال ما جاء في القرآن الكريم من قصص القرون البائدة، وقصص الأنبياء والأقوام السالفة، وقصة سيدنا يوسف من القصص التي تكاملت فيها العناصر الفنية.

وربما أهم ما يميز قصص القرآن أنها تعرض لبعض القضايا الدينية، وذكرها كان لأخذ العظة والعبرة، وقصة سيدنا يوسف عليه السلام من أبرز القصص القرآنية التي تكاملت فيها عناصر القصة كما يلي:

أولاً :

الموضوع الذي تدور حوله قصة سيدنا يوسف، أو فلنقل (الحدث) أو (الأحداث)، أوضحها النص القرآني بجلاء وبترتيب منطقي إذ تتناول القصة الحياة الإنسانية عندما تمتزج بحياة النبوة، والتي تشمل الوجود في مختلف نواحيه المادية والروحية، المحسوسة وغير المحسوسة تختلط بالأحداث الحياتية والتعاليم الربانية، عن طريق الاجتباء والاصطفاء الذي كان سبباً في جعل القصة فريدة في صياغتها فريدة في موضوعها.

ثانياً :

والشخصية التي تدور حولها ومعها الأحداث هي شخصية سيدنا يوسف عليه السلام ، والشخصيات المحيطة بالشخصية الرئيسة، تشارك في ترتيب الأحداث، فإن يوسف عليه السلام هو الكائن الإنساني الذي يتحرك في سياق الأحداث، هو النبي المختار، ووالده وإخوته والعزيز وزوجته من أهم شخصيات القصة ، يلي ذلك الشخصيات الثانوية مثل ﴿ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾[1] و﴿ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾[2] ورجلا السجن.. ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ﴾[3] وغير ذلك من شخصيات مؤثرة في الحدث.

وقصة سيدنا يوسف عليه السلام تدور حول شخصية واحدة هي الأساس، تتدفق أحداثها والمواقف فيها، من معين إلهي معجز، تنبثق من خلاله الفيوض البيانية الربانية، التي تحتاج لمزيد تأمل ودراسة للوقوف على أبرز العوامل التي جعلت تلك الآيات كلاماً معجزاً، يتيح للمتلقي قدراً كبيراً من التذوق الفني وإدراك السر الجمالي في الأسلوب، والشعور باللذة الفنية.

وجاء (العامل النفسي) [4] من أهم عوامل الشخصية في القصة، وزيادة تأثيرها، إذ اعتمدت على باعث غريزي هو باعث النجاة بعد التعرض للخطر، بأن يوضع البطل (سيدنا يوسف عليه السلام) في ضائقة، ومأزق حرج، حين ألقي في

---

(١) يوسف، آية: ١٠.

(٢) يوسف، آية: ٥٠.

(٣) يوسف، الآيتين: ٣٩ و٤١.

(٤) راجع من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله أحمد، ٥٦وما بعدها، دار العلوم للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٨٤م.

الجب، ثم يأتي حدث نجاته بما يذهب الانزعاج عن المتلقي، ويعيد إليه الطمأنينة، لتتمثل بعد ذلك أحوال إخوته وأبوه، حين يسلم أمره لله ويستعين على ما يصفون، ثم يتعرض يوسف لضائقة جديدة عندما راودته امرأة العزيز فيسجن ثم يُبرأ ، ثم يعتلي عرش مصر ، ليلتقي في نهاية القصة بإخوته وأبوه ، وتتحقق رؤياه .

وشخصية سيدنا يوسف عليه السلام شخصية بشرية، اصطفاها الله ﷻ ، وإن كان البشر ليسوا خيراً كلهم، ولا شراً جميعهم، بل هم مزيج من الخير والشر، فإن يوسف عليه السلام بما أوتي من دلائل النبوة، وبما علمه ربه وأدبه وبما وهبه من قدرة تأويل الأحاديث، قد تكاملت فيه صفات الخير، لم تتبدل شخصيته ولم تتغير رغم ما أحدق به من الأذى، وكما يرى[1] علماء النفس أن للشخصية البشرية أبعاداً فكذلك يوسف عليه السلام ترتسم شخصيته من خلال الأبعاد الثلاثة التالية:

١ – البعد الجسمي :

فمن خلال القصة ترتسم أوصافه الشخصية من الخارج إذ تتميز بالبنية القوية، والجمال الرباني الخلاق، والتلألؤ والبشاشة، فقد رُويَ أن يوسف عليه السلام عندما كان يتجول في طرقات مصر كان وجهه يتلألأ على الجدران، كما أن النسوة قطعن أيديهن عند رؤيته من شدة جماله وبهائه، وما آتاه الله من خصائص خَلقية مميزة، جعلت كل من يتقرب له يحبه ويرتاح له.

---

(١) [illegible] والرواية [illegible] دار الفكر [illegible]

٢ – البعد الاجتماعي :

يمكن استجلاؤه من خلال ما وهبه الله عز وجل ليوسف عليه السلام من قدرة على تأويل الأحاديث، وعقيدة موحدة بالله، ورجاحة عقل وفكر صائب دفع فرعون إلى أن يجعله على خزائن مصر، فقد كان يؤثر في المجتمع الخارجي المحيط به تأثيراً إيجابياً، بحيث أثر في كل من اتصل بهم، بروعة منطقه وقوة حجته.

٣ – البعد النفسي :

ويكون حصيلة البعدين السالفين، ويعنى بتصوير عواطف الشخصية وطباعها، وطريقة تفكيرها وتصرفاتها، وردود أفعالها تجاه المواقف المتعددة، ففيه تبرز شخصية يوسف النبي الورع عليه السلام، رأى برهان ربه فعافاه من الوقوع في الرذيلة وارتكاب الإثم رغم ميله نحو امرأة العزيز، و لم يحمل في نفسه ضغينة تجاه إخوته حين تركوه في الجب، بل أتى بهم جميعاً في نهاية القصة، و لم يتذمر أو يتمرد حين نسيه الملك في السجن بضع سنين، فقد كان هادئ النفس مطمئن القلب، إلى غير ذلك من أبعاد نفسية تلقي بظلالها على شخصيته.

ويلاحظ أن شخصية يوسف عليه السلام قُدمت في القصة تقديماً مباشراً منذ البداية في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي﴾[1].

ثالثاً : البيئـــة :

فمن خلال الأحداث يمكن أن يتعرف المتلقي على البيئة التي عاش فيها يوسف عليه السلام والمراد: البيئة الزمانية والمكانية.

---

(١) يوسف، آية: ٤.

أما الزمان فزمان ظهور الأنبياء واحداً تلو الآخر، في عصر ما قبل ظهور الرسالات، ويتضح كيف أن يوسف عليه السلام الابن وأبوه النبي يعقوب عليه السلام وأجداده إبراهيم عليه السلام وإسحاق عليه السلام وغيرهما.

أما المكان فقد عاش يوسف عليه السلام في صغره في بلاد الشام ثم انتقل إلى مصر وعاش بها بقية حياته.

كذلك تبرز البيئة الاجتماعية التي عاش بها، إذ كان الناس منهم الموحد، ومنهم المشرك، وقد عاش في بيت العزيز مكرماً، كابن له، ويتضح من القصة حركة التجارة التي كانت قائمة بين مصر وجيرانها وخاصة بلاد الشام، وأنها كانت بلداً زراعياً يعتمد على المحاصيل الزراعية، كما يتضح كيف اعتلى يوسف عليه السلام عرش مصر وتتضح ملامح الشخصية المصرية المسالمة الطيبة، فقد كان شعباً يكدح لتوفير الحياة الكريمة.

كما تبرز معالم الحياة السياسية إذ كان بمصر ملكاً يحكمها ووزراء يأتمرون بأوامره، مما يدل على تقدمها ورقيها.

والقصة سارت على النهج الصحيح من مقدمة ووسط (ذروة الحدث) وخاتمة، وقد قدمت في صياغة أسلوبية ربانية تسحر الألباب والعقول بما توفر فيها من أساليب فنية بالغة الدقة والإعجاز.

الهدف من القصة :

ينقسم النقاد في حديثهم عن الهدف من كتابة القصة - بوجه عام - إلى فريقين:

الفريق الأول : يرى أن الغاية من الأدب عامة بمعنى أن يكون الفن للفن، وعلى الكاتب أو الفنان أن يكون العمل الفني المتقن هو الهدف الذي يسعى إلى تحقيقه بصرف النظر عن مضمونه وفائدته إذ هو غاية في ذاته.

الفريق الثاني : يرى أن الفن للمجتمع والحياة، ولا بد أن يكون للأدب أو الفن مضمون اجتماعي أو قومي حيوي يستهدف من ورائه إصلاح المجتمع عامة، أو حل مشكلة من المشكلات الحيوية، وإلا لا يكون أدباً ناجحة مرضياً[1].

وبالرجوع إلى قصة سيدنا يوسف عليه السلام نجد أن ذكرها كان لغاية وهدف وأنها لم تكن لمجرد الإمتاع الفني، فللقصة هدف رئيس وهو إعجاز اليهود الذين أرادوا أن تعجيز الرسول ﷺ ، وأهداف أخرى تستقصى من أحداث القصة، تؤخذ منها العبر والعظات للتأسي بها، في حل العديد من المشكلات الإنسانية الحيوية، كمشكلة حسد الإخوة بعضهم لبعض، ومشكلة الغضب الذي يولد الحقد والتصرف الخاطئ ، وكذلك مشكلة المرأة التي لا تضبط نفسها ولا تتحكم في غرائزها، وتسعى في سبيل خيانة زوجها، واستمالة يوسف عليه السلام الذي قامت على تربيته، محاولة إخضاعه لأمرها دون جدوى، ومشكلة الأب الذي فقد نور عينيه حزناً على ابنه وإصراره على أن ابنه حيٌّ يرزق ، كل هذه المشكلات وغيرها تضع لها القصة حلولاً، ويستخلص منها المتلقي العبر.

والتاريخ الإنساني يؤكد أنه لا قصة بدون هدف، فالقصة الناجحة لا بد أن تتوفر فيها الصياغة الفنية، وبالتالي لا بد أن ترمي إلى هدف ما.. مادامت قد

---

(١) راجع من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ٣٤، وما بعدها..

توافرت فيها عناصر الصدق الفني، فما الحال إذا كان القصص بوحي من الله يمليه على رسوله الكريم ، فيكون الهدف أعظم وتعم الفائدة .

أسلوب القصة :

سورة يوسف عليه السلام واحدة من سور القرآن الكريم، جاء أسلوبها متبعاً النسق ذاته الذي شمل لغة القرآن جميعها، ودائماً نستحضر أقوال العرب الذين أصابهم الإعجاب والارتياح حين سمعوا القرآن أول مرة، يقول عتبة بن أبي ربيعة - بعد أن سمع من الرسول ﷺ ، الآيات الأولى من سورة فصلت - وقد سأله قومه: ما وراءك يا أبا الوليد - قال: "ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا هو بالسحر ولا بالكهانة"[(١)].

وقد أسهب القرآن في سرد قصة يوسف وإخوته ثم قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾[(٢)].

ويقول الوليد بن المغيرة: "والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته"[(٣)].

ففي القرآن من الحسن ما يؤثر فيك بعظمته وإعجازه، كما يبهر الجبل الشامخ أو الصخرة البارزة العظيمة، أو المياه المتدفقة من فوق مساقطها، أو

---

(١) سيرة ابن هشام، (١/١٨٥) ط مصر، ١٣٣٢هـ.
(٢) يوسف ، آية : ١٠٢ .
(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (٢/١١٧) ط مصر، ١٣٥٤هـ.

المحيط الذي لا نهاية لامتداده، كل هذا فيك إلى غريزة الخضوع والتسليم، فهو لفرط عظمه لا يثير فيك الرغبة في مناظرته، وإنما يبعث فيك ارتياح الخضوع الإرادي. ويتلخص موقفك النفسي من هذه الأشياء العظيمة في مثل قولك: إن ذلك البحر لصعب المرام جداً، وإن لهذا الكتاب لسلطاناً على القلوب(١).

وجاءت محاولات البحث في أسلوب القرآن وأمر إعجازه، إذ لجأ بعض العلماء إذ ذاك إلى الكسل العقلي في الموضوع فقالوا: إن القرآن معجز بالصدفة، واكتفى آخرون بالتقليد فرددوا خصائص في الكتاب العزيز تنبه لها من قبلهم، دون أن يكلف هؤلاء المقلدون أنفسهم مؤونة مناقشة هذه الخصائص، والرجوع بها إلى أسس معقولة في طبيعة البيان ومكانه من النفوس، لهذا ندب عبد القاهر الجرجاني نفسه إلى وضع أسس البحث العلمي في هذه الناحية(٢).

وعند محاولةدراسة أسلوب القرآن في قصة يوسف عليه السلام، ينبغي التنويه ...

أولاً : إلى أن اللغة التي نزل بها بلغت في القدرة على الإبانة أكمل ما تبلغه لغة، من حيث توفر وسائلها وثراء طاقاتها المتمثلة في أحوالها، وخصائصها التي تقع عليها سور سبكها من حيث انتقاء مفرداتها وبناء ترتيبها.

وثانياً : أن الجيل الذي نزل فيه القرآن كان قد بلغ في القدرة على الإبانة عن نفسه حداً لم يبلغه جيل من أجيال الأمة في تاريخها كله.

وثالثاً : إن تذوق اللغة والقدرة على تلقي خوافي أسرار الشعر والأدب لا بد أن يكون في مستوى القدرة على اصطناعها، في الإبانة عن المعاني لأن من

---

(١) من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، ٥٧-٥٨.
(٢) المرجع السابق، ١٠٢.

يحكم اختيار ألفاظه، وتراكيبه وصوره، لا بد له من ذوق يعينه على ذلك، ومن هنا كان العرب أعرف الناس بطبقات الكلام، وأقدرهم على صوغه، وبالتالي عرفوا أن القرآن صاغ اللغة صياغة أسمى، فصارت فيه في مرتبة الكمال المطلق، بعد أن كانت في بيانهم في مرتبة الكمال البشري[1].

وإذا كان الأسلوب القرآني هو الوسيلة المختارة بعناية إلهية لتوصيل رسالة الله إلى البشر، وإذا كان قد بلغ مبلغاً من الكمال لم تبلغه اللغة العربية في أي فن بشري من فنونها، فإنه لا بد من الدخول في منطقة الإعجاز البلاغي التي تمت بها صياغة هذا الأسلوب ، وهي فنون كثيرة متنوعة، وقد يتشابه – في الإطار العلم – مع بعض النصوص العربية، إلا أنهما عند التحقيق والتدقيق يختلفان، فللأسلوب القرآني طريقته في اختيار الألفاظ وترتيب الجمل، والتنسيق بين الآيات ولا يخفى بجانب كل ذلك، ما ينتج من إيقاع موسيقي متميز، ليس له شبيه في لغة الناس..

---

(١) راجع رأي الدكتور محمد أبو موسى (عن العربية ودلالة الإعجاز) في الإعجاز البلاغي، ١١: ٢٦م وهبة. ط٢، ١٩٩٧م.

التحليل البلاغي لآيات السورة

التمهيد للقصة :

﴿ الر * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[1].

تبدأ سورة يوسف عليه السلام بحروف التعجيز والتحدي التي تناولها القرآن الكريم في مقدمة بعض السور، وفي هذه البداية ما فيها من تحفيز النفوس وتشويقها لمعرفة أحسن القصص الذي تتناوله، فيقول ﷻ : ﴿ الر ﴾ يتحدى الحق جل شأنه بها المنكرين الذين يظنون أن بمقدورهم الإتيان بمثل هذا القرآن.

والآيات الثلاث الأولى بمثابة تمهيد لما سيأتي من آيات الله في هذه القصة. وقد تناول العلماء قوله تعالى ﴿ الر ﴾بالبحث ، عن كونها أحرف هجاء أو أسماء لها موقع من الإعراب، وسواء كانت أحرفاً أو أسماءً فإنها وردت تعجيزاً وتحدياً من الله ﷻ للبشر.

وقوله: ﴿ تلك آيات ﴾ ربما جاء إشارة إلى ﴿ الر ﴾ أو إلى آيات القرآن، أو إلى آيات السورة، ويذكر أبو حيان أنها قد تكون إشارة إلى الآيات التي ذكرت في سورة هود بدلالة قوله في آخر السورة﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] وقوله ﴿تلك﴾ للبعيد بدلاً من (هذه) رغم قرب الآيات، تعظيماً لشأنها، وكذلك إشارة إلى منزلة هذا الكتاب بالنسبة إلى الكتب السماوية الأخرى.

---

(١) يوسف، الآيات: ١-٢-٣.

(٢) هود، آية: ١٢٠.

﴿الكتاب المبين﴾ أي القرآن الواضح البين[1] بنفسه، الظاهر أمره في إعجاز العرب والتأكيد على نزول القرآن بلسان عربي، وتكرار ذلك في مواضع كثيرة من الآيات دليل على أن اللغة العربية كانت قد بلغت أعلى درجات التطور فقد أعدها الله ﷻ ومهد لها لأن تكون اللغة التي شرفها بالقرآن، كما أن المناخ كان معداً بجيل من الفصحاء العرب قد بلغوا في القدرة على الإبانة مبلغاً يجعلهم يفرقون بين كلام وآخر فكان انبهارهم بالقرآن دليلاً على إعجازه وأنه لا يشبه كلامهم رغم فصاحته وبيانه.

ووصف الكتاب بـ﴿المبين﴾[2] أبلغ من (البين)، ليدل على أنه المبيِّن بنفسه الموضح للناس دينهم، فإن آيات السورة مبينة لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر، وأنها الواضحة التي لا تشتبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم.

تأتي الآية الثانية لزيادة الوضوح والدلالة، وتأتي مستأنفة مفصولة، في قوله تعالى: ﴿إنا أنزلناه قرآناً عربياً﴾ إذ يخبر الحق جل شأنه ويؤكد أن القرآن مبين

---

(١) أثبت أبو حيان تفسير ابن عباس ومجاهد لـ﴿المبين﴾ بأنه "إما المُبَيِّن الحلال والحرام، والحدود والأحكام، وما يحتاج إليه من أمر الدين"، وقول قتادة: "أنه المبين ما سألت عنه اليهود، أو ما أمرت أن يسأل من حال انتقال يعقوب من الشام إلى مصر، وعن قصة يوسف"، وقول معاذ بن جبل: "أنه المبين من جهة بيان اللسان العربي وجودته، إذ فيه ستة أحرف لم تجمع في لسان". البحر المحيط لأبي حيان (٥/٢٧٩) تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الجواد وآخر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٣م.

(٢) المبين: من "أبان" الشيء فهو "مبين" أي واضح، و"بان" الشيء يبين "بياناً" اتضح فهو بَيِّنٌ، و"أبنته": أوضحته، مختار الصحاح مادة "بين".

من حيث نزوله ﴿قرآناً عربياً﴾ أي على الحال الموطئة، على البدل من الضمير في ﴿أنزلناه﴾ ولفظ (قرآن) قد يسمى به بعض القرآن كما يسمى بـه كلـه؛ لأن (القرآن) اسم جنس يقع في كله وبعضه، وعليه فإنْ سورة يوسف قرآن عربي؛ ليفهمه العرب ويحيطون بمعانيه، لذلك قال ﷻ: ﴿لعلكم تعقلون﴾.

وكلمة (لعل) يجب حملها على الجزم بمعنى (لتعقلوا معانيه وتدركوهـا) إذ لا يجوز أن يراد بها الشك لأنه على الله محال، فثبت أن المراد أنه أنزلـه لإرادة أن يعرفوا دلائله، فلا يلتبس عليهم أمره وقد يراد بالضمير في ﴿لعلكم﴾ لكل الناس من عرف منهم ومن لم يعرف، فإنه تعالى يريد من الكل الإيمان بـه، والعمل الصالح، كما يريد أن يدحض حججهم بأنهم لم يفهموا القرآن، فإنـه عربي وعليكم أن تعقلوا ما تضمن من المعاني، وما احتوى من الإعجاز فتؤمنون به، إذ لو كان بغير العربية لقيل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1]، وللعلمـاء القدماء في ذلك قول قاطع، ومنه ما قاله أبو بكر الطيب مـن تكـرار الله ﷻ للإخبار بنزول القرآن بلسان عربي مبين وأنه رفعه عن أن يجعله أعجمياً فلو كان يمكن في لسان العجم إيراد فصاحته، لم يكن ليرفعه عن هذه المنزلة[2].

وتأتي جملة ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ جملة مستأنفة، تمثل تمهيداً عظيماً لاستقبال هذه القصة التي هي أحسن القصص، لأنها بمثابة الجواب عـن

---

(١) فصلت، آية: ٤٤.

(٢) إعجاز القرآن، ٣١.

سؤال يفهم من الآية الأولى ، وهو إذا كان الحال كذلك فما الدليل على أن القرآن مبين لكي يعقله ويفهمه من يسمعه؟ فجاءت الآية ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ والحسن يعود للبيان لا إلى القصة، والمراد من هذا الحسن كون هذه الألفاظ فصيحة بالغة في الفصاحة إلى حد الإعجاز، ويقول الرازي: "ألا ترى أن هذه القصة مذكورة في كتب التواريخ مع أن شيئاً منها لا يشابه هذه السورة في الفصاحة والبلاغة"[1].

ولنقرأ هذه الآية مرة أخرى وننظر كيف تنزل من القلب منزلاً محبباً، متشوقين متلهفين لما يقص من أحسن القصص، ويااللفرحة والسعادة إذا كان القاص هو الله ﷻ، الذي أحاط بعلمه كل شيء،فالقص من الله ﴿نحن نقص..﴾ والمقصوص عليه محمد ﷺ في ﴿عليك﴾ بمعنى نحن نقص عليك يا محمد لتخبر من سألك ولنسري عنك، فأنت الحقيق بأن نقص عليك أحسن ما عندنا من القصص، وإذا قص الرب قصصاً فلا شك أنه قصصٌ مصدق وقصصٌ عظيم..

وقد يكون المعنى أن الله ﷻ قد اختار من بين القصص أحسنه ليكون له مدلوله وعائده الإعجازي ومضمونه الإرشادي، نستمد منه الحكمة والموعظة والنصح، ونتعلم منه الكثير من المبادئ الإنسانية الخالدة التي وضعها الله وارتضاها لخلقه ليصلح شؤونهم وينظم حياتهم، أي أن هناك قصص (حسن) وهناك (أحسن)، وعندما يقص الله تعالى فما عسانا نسمع إنه يقص ﴿أحسن القصص﴾ بأسلوب التفضيل، وإنما كان (أحسن) لما يتضمن من العبر والعظات.

---

(١) التفسير الكبير، ٨٥. دار إحياء التراث العربي .

إذاً قد يحتمل النص إننا اخترنا هذا البيان المعجز لهذه القصة، وإننا اخترنا هذه القصة لأنها أحسن القصص وإننا اخترناك يا محمد من بين سائر الأنبياء لنقصها عليك.

أوجه البلاغة في القصص القرآني

وللقَصَص وجهان من البلاغة:

١- فإن حمل على المصدر بمعنى الاقتصاص فنقول: قص الحديث يقصه قصصاً، فيكون المعنى (نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص) فيعود الحسن إلى البيان لا إلى القصة.

٢- وإن حمل على المفعول كان معنى كونه أحسن القصص لما فيه من العبر والنكت والحكم والعجائب، التي ليست في غيرها، فأريد به المقصوص أي: نحن نقص أحسن ما يقص من الأحاديث (أي المقصوص منها).

والقصص معناه :

اتباع الخبر بعضه بعضاً، وأصله في اللغة المتابعة، من قص أثره إذا اتبعه وقص الخبر أي يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً.

والظاهر كما أوضح الزمخشري "أنه أحسن القصص في بابه"، والقَصَص بالفتح أوقع من القِصص بالكسر، لما في الأول من إشعار بالفخامة والعظمة لما يقص وما يرويه القرآن، كما أن "القَصَصَ" أبلغ من "الاقتصاص، والمقصوص".

وهكذا يمهد الحق جل جلاله إلى قصة يوسف عليه السلام بتفضيلها، أو بالتنبيه إلى الإعجاز البياني والجمال الأسلوبي الذي سيتناول به سرد القصة، تلك القصة التي لو توفر لها أعظم كتَّاب القصة لما تناولوها بهذا الأسلوب المبدع المعجز.

وقوله: ﴿ أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ فإن (ما) مصدرية، بمعنى بإيحائنا، فإذا كان القصص بمعنى المصدر فإن مفعول الفعل (نقُص) يعود على (هذا القرآن) والقرآن بدل من هذا، وقوله ﴿إن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ فإن غَفَلَ الشئ: تركه عن ذكر، فقد نزل الجاهل بالشيء منزلة الغافل عنه بمعنى إنك يا محمد كنت من الجاهلين به، وما كان لك فيه علم.

لاحظ كيف مهد الحق ﷻ لقصة يوسف عليه السلام بالآيتين السابقتين، لتبدأ قصة يوسف عليه السلام بقوله تعالى:

بداية القصة :

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[1] ..

ولننظر كيف بدأ القصة بـ(إذ) الظرفية التي تدل على ما مضى من الزمان والجملة الفعلية بعدها في محل جر، لتحدث هذه النقلة السريعة للحدث الأهم في القصة، والذي تبنى عليه الأحداث فيما بعد، فإن رؤيا يوسف قد أولها يعقوب وعلم أن الله ﷻ قد اصطفى ولده يوسف ليكون نبياً، وهي بداية مشوقة للدخول مباشرة في سرد أحداث القصة، بعد أن تم التمهيد لها، وإعداد السامع للاهتمام بما سيقص عليه..

وقوله : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبت ﴾ لماذا لم يقل: (إني رأيت) ؟ بدون يا أبت..؟

---

(١) يوسف ، آية : ٤ .

نقول : إن النداء بـ (يا) يكون للبعيد، وهنا نزل أباه القريب منزلة البعيد إجلالاً وتعظيماً لمكانته من نفسه، وهو يريد استحضار أبيه ذهنياً ونفسياً معه لإثارة انتباهه ويؤكد بذلك أن ما سوف يقوله أمر جاد يحتاج إلى الإنصات من أبيه وقوله: (إني رأيت) أي رأيت في منامي فإن ما ذكره يوسف عليه السلام معلوم أنه منام، وعليه فإن (رأيت) من الرؤيا لا من الرؤية، وذكر الضمير مرتين في (إني رأيت) للتوكيد وكأنه يقول رأيت رؤيا العين في منامي ..

وتكرار فعل الرؤيا في ﴿رأيتهم لي ساجدين﴾ له عدة تفسيرات:

١ – قد يكون توكيداً للفعل (رأيت)..

٢ – أو أن (رأيت) الأولى للدلالة على رؤيته للكواكب والشمس والقمر، و(رأيت) الثانية للدلالة على أنه رآهم ساجدين.

٣ – وربما جاء قوله: (رأيتهم) جواباً لسؤال مضمر بمعنى كيف رأيت؟ فقال رأيتهم لي ساجدين، فيكون الفعل جملة مستأنفة.

وجاء إسناد الضمير (هم) للفعل ، والمشار به للعقلاء، تنزيلاً لغير العاقل منزلة العاقل، لأن تفسير الرؤيا يعود على إخوته وأبويه، فالوصف خاص بالعقلاء وهو السجود، لذلك أجرى عليها حكمهم، وجعلها كأنها عاقلة..

والمراد بالسجود إما السجود على الحقيقة أو التواضع فيكون اللفظ من المجاز بالاستيعاب وقد يستشعر القارئ أيضاً في تكرار فعل الرؤيا (رأيتهم) تعجب يوسف من رؤياه فهو قد أولها في نفسه ولكن يحتاج إلى دعم أبيه لها وتأكيده على صدقها.

وتأمل تقديم الشمس على القمر تعظيماً لشأن المرأة، وتأخير الشمس والقمر على الكواكب ليعطفا على الكواكب على طريق الاختصاص.. وفي ذلك بيان لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الكواكب، والواو في (الشمس والقمر) يجوز أن تكون واو المعية بمعنى مع..

فما كان رد يعقوب عليه السلام على رؤيا ابنه؟

إنه استشعر الخطر المحدق بابنه من تأويل الرؤيا لأنه يعلم أن إخوته إذا علموا بها سوف يكيدوا له كيداً لما أضمروه في صدورهم من غيرة شديدة؛ لأنهم ظنوا أن أباهم يفضل يوسف وأخاه عليهم لذلك كان موقف سيدنا يعقوب عليه السلام يكتنفه الخوف الشديد على ابنه والحرص على سلامته لذلك رد عليه في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.. ﴾[1]..

ونداء يعقوب لابنه (يا بني) للتنبيه وإشعاره بحرصه الشديد عليه إذ علم أن الله قد اختاره واصطفاه من دون إخوته، بل من دون البشر أجمعين، وأنه قد مكن له ليبلغ مبلغاً من الحكمة وتفسير الرؤى لم يصل إلى ذلك بشر وأنعم عليه بشرف الدارين كما أتم شرف نعمته على آل يعقوب وعلى آبائه من قبل إبراهيم وإسحاق. عليهم السلام.

خاف يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام حسد إخوته وغيرتهم، لذلك خصَّ النهي في (لا تقصص) على إخوته، لو أنه خشي عليه حسد الناس لعمم النهي،

(١) يوسف، الآيات: ٥-٦.

إن يعقوب النبي الصديق عليه السلام علم ما يضمره أبناءه لأخيهم من كيد، وكيدهم سوف يكون مؤلماً وسوف يكون كيداً شديداً لذلك أكده بالمفعول المطلق (كيداً)..

وجاء النهي هنا من باب التحذير؛ لأنه إذا قص عليهم رؤياه، سوف يكيدوا له كيداً، لأنهم لن يقبلوا أمر احتبائه ولن يرضوا أن يُرفع درجة عنهم وأن ينعم بشرف النبوة، فيقول الأب الحنون لابنه: إنك إن تقصص عليهم كادوك ، والسؤال: لماذا آثر النص القرآني قوله: ﴿فيكيدوا لك كيداً﴾ و لم يقل: (فيكيدوك كيداً)..؟

لأن التعبير القرآني أقوى وأبلغ فاللام في (لك) لتأكيد الصلة أي صلة الكيد بمعنى (فيكيدوا كيداً لك) كقولهم: "شكرتك، وشكرت لك".. أي شكرت لك ما صنعت..

يحذر سيدنا يعقوب عليه السلام يوسف عليه السلام من أن يقصص رؤياه على إخوته؛ لأنه يعلم أنهم قادرون على تفسير رؤياه، والتي سوف توجب حقدهم وغضبهم، فينتج عن ذلك كيدهم له والكيد سوف يجعلهم يفكرون في إيذائه، وقوله ﴿يكيدوا لك كيدا﴾ فيه تأكيد بشبه الجملة (لك) والمفعول المطلق (كيدا) فيكون ذلك آكد وأبلغ في تخويف يوسف وتحذيره.

وكيد إخوة يوسف من فعل الشيطان ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ لذلك رأي يعقوب أنهم سوف يحتالون على أخيهم، وذلك من عمل الشيطان لذلك كان الكيد مضافاً إلى الشيطان، مصداقاً لقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾[1] ولذلك وصف الشيطان بأنه (عدوٌ مبين)

---

(١) القصص، آية: ١٥.

أي واضح بين العداوة لا يحتاج دليلاً، فهو ظاهر العداوة، لما فعل بآدم وحـــواء، ولقوله مخاطباً ربه ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾[1]، إذاً الشيطان قـــادر أن يحمل إخوة يوسف على الكيد والمكر والإساءة لأخيهم فيورطهم في الإثم.

وإخوة يوسف عليه السلام كما ذكرهم الزمخشري في كشـــافه هـــم: يـــهوذا، روبيل، شمعون، لاوى، ربالون، يشجر، دينه، دان، ونفتالي، وجـــاد، وآشـــر، وذكر أن السبعة الأولين كانوا من زوجة يعقوب واسمها (ليا)، بنـــت خالتـــه، والأربعة الآخرين من سريتين: (زلفة، وبلهة)، فلما توفيت (ليا) تزوج أختـــها (راحيل) فولدت له بنيامين، ويوسف.

ويبدو أن موقف إخوة يوسف منه، لم يكن موقف الكارهين المبغضـــين كما جاء في بعض التفاسير، وإنما هم يحسدونه ويغارون منه؛ لأنه ملك قلـــب أبيهم فلم يعد يرى سواه واستحوذ على حبه وعطفه.. ؟؟؟

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْـكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْـحَاقَ إِنَّ رَبَّـكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2]..

وقوله : (وكذلك يجتبيك) يحتمل أن يكون من كلام الله ﷻ ليوســف، أو من كلام يعقوب لابنه، وقد شملت الآية على ثلاثة أمور شــــرف بهـــا الله ﷻ يوسف عليه السلام وعـــز شأنه بها هي كالآتي:

أولا: ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ﴾ ..

---

(١) الأعراف، آية: ١٦.
(٢) يوسف، آية: ٦.

وعطف الجمل الفعلية (يجتبيك، يعلمك، يتم) لأنها أمور ثلاثة قد عــز بها الله ﷻ يوسف عليه السلام وأكرمه، لذلك جاءت الجمل معطوفة بالواو وللاتفــاق في الخبرية وزمن الفعل.

وقوله (وكذلك) بمعنى ومثل ذلك الاجتباء (يجتبيك ربك) وتفسيره:

أنه كما اختارك ربك لمثل هذه الرؤيا التي عــز بهــا شــأنك وشــرفك وأنزلك مترلة عظيمة، فكذلك اختارك للنبوة وللقيام بأمور عظام، فتعلو مترلتك وتعظم مرتبتك. والاجتباء على وزن "افتعال" من جبيت الشــيء إذا حصلتــه لنفسك، وجبيت الماء في الحوض (جمعته)..

ثانياً: ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾..

فإن الله ﷻ الذي اصطفاك يا يوسف قادر أن يعلمك تأويل الأحــاديث ولذلك عدة تفاسير:

١ - تأويل الرؤيا بمعنى أنه يؤول أمره إلى ما رآه في المنام، أو تأويل رؤى النــاس فيما يرونه في منامهم.

٢ - تأويل الأحاديث في كتب الله تعالى والأخبار المروية عن الأنبياء المتقدمــين، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها وسميت أحــاديث لأنه يحدث بها عن الله ورسوله.

٣ - والأحاديث: مفردها "الحديث" وهو الحادث، وتأويل الأحــاديث بمعــنى مآلها، لذلك فسر المعنى على أن مآل الحوادث إلى قدرة الله تعالى وتكوينــه وحكمته أي: كيفية الاستدلال بمخلوقات الله على قدرته وحكمته.

والرؤيا حديث نفس أو ملك أو شيطان، وتأويلها: تفســيرها، وكــان يوسف عليه السلام أعبر الناس وأقدرهم - بقدرة الله - للرؤيا..

ثالثاً: ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾..

قيل إن إتمام النعمة على يوسف بأن أنجاه من الجب، ومن السجن واعتلاء عرش مصر، وإنجائه من إغواء امرأة العزيز بالإضافة إلى نعمة تفسير الرؤيا..

وإتمام النعم على إبراهيم بالخلة، والإنجاء من النار، ومن ذبح الولد.

وإتمام النعمة على إسماعيل بإنجائه من الذبح، وفدائه بذبح عظيم..؟؟؟ وبإخراج يعقوب والأسباط من صلبه..في

(وآل يعقوب) بمعنى أهله، ولا يقال (آل) إلا فيمن له خطر ومكانته عظيمة، فيقال: (آل النبي)، و(آل الملك)، ولا يقال (آل الحائك، وآل الحجام) ولكن يقال أهلهما.

ويراد بالأبوين، الجدين، (إبراهيم، وإسحاق) لأنهما من أجداد يوسف، ولأنهما في حكم الأب في الأصالة.

وإتمام النعمة بمعنى: أن الله ﷻ جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكاً، ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا في الجنة، وإذا فسر إتمام النعمة بمعنى النبوة، فيكون من باب التكرار للتوكيد والتثبيت، وقد يفسر الاجتباء بمعنى النبوة، ويفسر إتمام النعمة بمعنى: أن الله يهبه سعادات الدنيا والآخرة، أي أن الله ﷻ وصل له نعمة الدنيا بنعمة الآخرة، كما أتمها على آله - آل يعقوب - وكما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

أما إذا فسر تمام النعمة بمعنى إتمامها كاملة خالية من النقصان، فلا يكون تمام النعمة إلا بالنبوة، فالكمال المطلق في حق البشر لا يكون إلا بالنبوة، كما أن تمام النعمة على آل يوسف وأبويه إبراهيم وإسحاق ليس إلا النبوة، لذلك وجب أن يفسر تمام النعمة بالنبوة، وتكون الجملة من باب التأكيد وزيادة الإيضاح

ولما فسر تمام النعمة بالنبوة، دلّ على أن جميع أبناء يعقوب كانوا أنبياء ويؤكد ذلك تشبيههم بالكواكب، استدلالاً بضوئها الذي يستضيء به أهل الأرض، يستضيئون بعلمهم ودينهم، والعرب لم تكن تفرق بين الكوكب والنجم فيرون أنه لا يوجد أضوأ من الكوكب.. والعلم الحديث أثبت أن الكواكب من الأجرام المعتمة وأن النجم هو المضيء.. وعلى ذلك فإن تشبيههم بالكواكب ربما لا يعني الاستضاءة بهم ويكون معنى الكلام: إني رأيت أحد عشر نفساً لهم فضل وكمال، ويجوز أن يكون الكوكب جاء في القرآن على المعنى المتعارف عليه عند العرب.

فإن سأل سائل، وقال: كيف يكون آل يعقوب أنبياء، وقد أقدموا على التخلص من أخيهم، فسر العلماء ذلك بأن ما فعلوه بيوسف كان قبل النبوة والعبرة بما بعدها، وقوله: ﴿على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق﴾ من التفصيل بعد الإجمال (عطف بيان).

وقوله: ﴿إن ربك عليم حكيم﴾..

جاءت الفاصلة القرآنية مناسبة تماماً للمعنى في الآيات السابقة فالعلم والحكمة صفتان من صفات الله ختم بهما الكلام،فقوله: (عليم) أي أنه يعلم من يحق له الاجتباء من عباده، مصداقاً لقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[1] أما قوله: (حكيم) أي أنه من حكمته أنه لا يتم نعمته ولا يصطفي إلا من يستحق، فالله تعالى منزه عن السفه والعبث، لا يضع النبوة إلا في نفس قدسية مؤهلة لتحمل أعباء رسالته، نفس خالصة لوجه الله وجوهرة مشرقة علوية.

---

(١) الأنعام، آية: ١٢٤.

وسواء كان قوله: ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ من كلام الله ﷻ أو من كلام يعقوب.. فإن الآيات السابقة تستدعي عدداً من الأسئلة:

إذا كان يعقوب يعلم هذه البشارات الثلاثة (يجتبيك ربك، ويعلمك من تأويل الأحاديث، ويتم نعمته) فلم كان خائفاً على يوسف من إخوته أن يهلكوه؟

ولماذا حزن على يوسف؟

ولماذا قال لإخوته إني أخاف أن يأكله الذئب؟

ما دام يعلم أنه لن يصاب بمكروه.. وما دام كان عالماً بأن الله اصطفاه وفضله...

فإذا كان يعقوب قاطعاً وجازماً بأن يوسف عليه السلام سيصل إلى هذه المكانة الرفيعة والعظيمة، فهذا لا يمنع أن يخاف عليه، أن يقع في شدة وضيق وأن يعاني بسبب حقد إخوته.. بدليل أنه ظل يعيش حياته آملاً أن يرى يوسف بعد أن فارقه، لم يشك لحظة في أنه سيراه، و لم يصدق رواية إخوته بل استعان بالله، لأنه يعلم أن الله الذي اصطفاه لن يتركه يهلك.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ﴾[1]..

وينقطع الكلام في الآيات السابقة، ليستأنف الحديث والدخول في مضمون معنى جديد، فتأتي الآية السابقة موحية بسؤال فحواه: ما هي هذه الآيات؟ ومن هم السائلون؟

ففي قوله (في يوسف وإخوته) أي في قصصهم من باب الإيجاز بالحذف لدلالة السياق وفحوى الكلام، و(آيات) علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته، وجمع (آيات) لأن في قصة يوسف الكثير من الأمور التي يستوجب

(١) يوسف، آية: ٧.

سأله اليهود عن قصة يوسف عليه السلام، ظناً منهم أنه لن يستطيع أن يقصها وبذلك ينكرون عليه نبوته، لكن أعجزهم الرسول الكريم وأدهشهم حين روى لهم القصة كاملة من دون أن يسمعها من أحد وكان أمياً فلا يمكن أن يكون قرأها في كتاب، وربما جاءت قصة يوسف عليه السلام آية وعبرة، فإن بغي إخوته عليه يناظر بغي قوم محمد ﷺ عليه، فيكون في ذلك أسوة وعبرة لمن يعتبر.

وتقديم الجار والمجرور والمعطوف (في يوسف وإخوته) على اسم كان وخبرها (آيات للسائلين) للتخصيص، من قصر آيات السائلين على يوسف وإخوته، والقصر بالتقديم لأن قصتهم وما جرى فيها من أحداث، تولدت عنها آيات وعظات وعبر للسائلين.

حسد الإخوة

وهكذا بدأت السورة بتمهيد، ثم بحوار يوسف مع أبيه الذي ألقى بالضوء على كيفية العلاقة بين يوسف وأبيه، وبينه وبين إخوته، ثم تتوالى الأحداث بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[1]..

وتبدأ الآية بتوظيف (إذ) [2] الظرفية بمعنى حين قالوا، بدل اشتمال من (إخوته) وهي بداية لجملة مستأنفة، لتوضيح ما في قصة يوسف من آيات،

---

(١) يوسف، آية: ٨.

(٢) إذ: ترد على ثلاثة أضرب: ظرفية، فجائية، تعليلية.
الطرفية: تكون ظرف زمان على الأكثر يضاف إلى الجملة، تبنى على السكون في محل نصب مفعول فيه لفعل "كان". والفجائية: هي التي تقع بعد الظرف (بينا) أو (بينما). والتعليلية: وهي التي تفيد مع صيغة القول تعليلاً، كأنها بمعنى (لأن) ويحسن اعتبارها ظرفاً لا حرفاً. (راجع المعجم الوسيط في الإعراب، د. نايف معروف، ود. مصطفى الجوذو. دار النفائس ١٩٨٨م).

حيث انتهت الآية السابقة بأن تركت سؤالاً في النفس يدور عن "ماهية تلك الآيات"، فتأتي الآية التالية بداية لسرد القصة التي يستدل منها على تلك الدلائل والعلامات أي تفصيل بعد إجمال .

وقوله: ﴿ليوسف﴾ اللام للابتداء، وتأتي غالباً للتأكيد وتحقيقاً لمضمون الجملة، والمعنى: أن زيادة محبة يعقوب ليوسف وأخيه بنيامين أمر ثابت متحقق، ساعد على ترسيخ هذا المعنى فعل التفضيل (أحب)، وإنما قالوا (أخوه) مع أنهم جميعاً إخوته؛ لأن أمهما كانت واحدة، ولأن مشاعر الحسد قد أعمتهم وجعلتهم يشعرون بأنهم منفصلين عنه وعن أخيه.

والآية تعليل للسبب الذي من أجله قصدوا إلى إبعاد يوسف عن أبيه و لم ينتبهوا إلى العوامل التي جعلت أبوهم يحب (ولا نقول يفضل) يوسف وأخاه أكثر منهم، وهي: أنه ربما لأن زوجته أنجبتهما وهو شيخ كبير، فأراد أن يمنحهما من الحب ما سبق ومنحه الإخوة الكبار، كذلك ربما لأن يعقوب عليه السلام رأى أنهما صغيران يحتاجان للحماية، كما أن أمهما قد ماتت وهما صغيران فاستحقا مزيد محبة، وأيضاً لما رآه من آثار الرشد والنجابة ما لم يجده عند سائر الأولاد، وخاصة ما رآه على يوسف من علامات النبوة، وقوله: (أحب) لا يدل على التفضيل، وإنما يدل على زيادة المحبة لهما - والله أعلم - وزيادة حب الأب لابن من شأن القلب بما يضطرم فيه من مشاعر وأحاسيس تجاه واحد دون الآخر، لا يستطيع الوالدان التحكم في هذه المشاعر ، وإنما يجب عليهما توخي العدالة بين الأبناء في الأمور المادية والمواريث.

والواو في ﴿ونحن عصبة﴾ واو الحال، تربط الجمل بعضها ببعض، وتبين الحال التي عليها المخاطب، ويستشف من العبارة معنى الاستفهام الإنكاري

التعجي، أي: كيف يكونا أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة من الرجال الأقويـــاء، والأكثر قياماً بمصالح أبونا، ونحن القادرون علـــى دفـــع المفاســـد والآفـــات، والمشتغلون بتحصيل المنافع والخيرات؟ إذاً كيف والحال أننا هكذا نـــزود عـــن أبينا.. في حين هما صغيران لا كفاية لهما ولا منفعة ترجى من ورائهما.

رأى إخوة يوسف أنهم أحق بزيادة المحبة، لذلك قرروا أن أباهم في ضـلال مبين، أي في ذهاب عن طريق الصواب فيما يفعله، يريدون أن هذا حيف ظاهر وضلال واضح، فجاءت الفاصلة القرآنية مناسبة لظنهم الخاطئ، إذ كيف وهـــم أبناء نبي وقد شرفهم الله جميعاً من آل يعقوب بإتمام النعمة، أن يكـــون رأيـــهم هكذا ولا شك من اجتهادهم الخاطئ، إذ جوزوا لأنفسهم أن يتـــهموا أبـــاهم بالضلال المبين، فالغيرة من أخويهما أفقدتهما حسن الروية والتعقـــل، ويـــرى المفسرون أن إقدامهم على اتهام أبيهم والتخلص من أخيهم كان قبل حصـــول النبوة لهم ..

التخطيط لإبعاد يوسف عليه السلام

وتنتقل الآيات نقلة سريعة، إذ من المتوقع أن هناك أحاديثاً مطولة دارت بين الأخوة، وأنهم ذكروا في التخلص من أخوهم الذي يستحوذ على حب أبيهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾[1].

(اقتلوا يوسف) من جملة ما حكي بعد قوله: (إذ قالوا) فبعد القول والتشاور قرروا القتل أو... وهم هذا يدل على أن الحسد بلغ من نفوسهم مبلغ دفعهم إلى التفكير في ... أبيهم أو طرحه أرضاً، وفي كلا الحالتين يكونون قد تمكنوا من إبعاد يوسف ... أبيهم، والواقع أنه لم يكن الهدف الانتقام من يوسف أو إلحاق الأذى به، وإنما كان الهدف مجرد إبعاده، أما وسيلة الإبعاد فلتشغلهم الشاغل، وقد ... فعل الأمر (اقتلوا) مستأنفاً، غير موصول بما قبله، للدلالة على وجود إيجاز بالحذف، لأن الأمر كما اتضح جاء بعد محاورة وتشاور وقد قيل أن الآمر بالقتل "شمعون" وقيل: "دان"، ويبدو أن قرار القتل لم يجد استحسان الجميع وكذلك الطرح أرضاً، فإن كونهم أبناء أنبياء، لا يعقل أن يصدر عنهم مثل هذا الفعل الشنيع، فكان من المتوقع أن يراجعوا أنفسهم فيما يقررون.

وقوله: ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ فيه إيجاز بالحذف بمعنى: (وهكذا فعلتم)، وإذا قيل لما تركت الفاء في (يخل) التي تفيد الترتيب والتعقيب، نقول أن ذلك لا يصح، لأن إبعاد يوسف عليه السلام ليس شرطاً لكي يكون حب أبيهم خالصاً لهم، ليس هذا إلا ما يظنون، ويأملون لذلك جاءت الجملة بعد الفصل مستأنفة، لاختلاف بين الجملتين (اطرحوه) إنشائية (يخل) خبرية.

---

(١) يوسف، آية ٩.

وقوله: ﴿ اطْرَحُوهُ أَرْضاً ﴾ اختلف في إعراب (أرضاً) والوجه المناسب أن ينصب على الظرفية، وقد نكرت ليراد بها أرض مبهمة بعيدة مهجورة خالية من الناس ولا يصل إليها أحد، أرض لا يستطيع أن يعود منها إلى أبيه.

وفي الكلام مجاز مرسل إذ ذكر (الوجه) وهو الجزء وأريد الكل بمعنى: يخلوا لكم أبيكم، وذكر (الوجه) خاصة لأن به تظهر علامات الحب والكره، والجملة كناية، فهي من الجمل المتعارف على دلالتها على صفة وهي: أن يصبح لا شاغل له إلا حبهم والاهتمام بهم.

وقوله: ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴾ يفيد أن إخوة يوسف يعلمون أن ما سوف يفعلونه عمل غير صالح، لذلك يظنون أنه من الممكن أن يتوبوا بعد جنايتهم أو أن يصلحوا ما بينهم وبين أبيهم، وثمة سؤال اجتهد المفسرون في الإجابة عليه وهو: كيف يسمحون لأنفسهم إيذاء أبيهم بعد أخيهم؟ فقيل: إن ذلك كان قبل النبوة، لأن النبوة تعصمهم من ارتكاب الإثم.

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾[1].

اختلف المفسرون في القائل، فقيل: "يهوذا" الذي كان أحسنهم رأياً وأكبرهم سناً وهو الذي قال فيما بعد ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ ﴾، وقيل: إنه "روبيل" ابن خالة يوسف.

وقوله: (قال قائل منهم) يعني أن ذلك لحظة التشاور في كيفية إبعاد يوسف، وأن القول جاء في وقت واحد بعد قولهم في الآية السابقة (اقتلوا، اطرحوه)..

---

(١) يوسف، آية: ١٠.

والنهي عن القتل، رجوع عن أي فعل يؤذي يوسف، فالغرض إبعاده فقط لذلك اقترح عليهم أن يلقوه في غيابت الجب، وعطف الجملتين (لا تقتلوا) على (وألقوه) للاتفاق إنشاءً، والنهي والأمر حقيقي واجب التنفيذ إذا كانوا يريدون التخلص من أخيهم، وإلا فلن يشاركهم في أي عمل يؤذون به يوسف.

(وغيابت الجب) يراد به غوره، وما غاب منه عن عين الناظر، ويرى بعض المفسرون أنه لم يكن القصد إلقاءه في بئر مظلمة حيث يغيب عن أعين الناظرين، بدليل قوله (يلتقطه)، فالاحتمال المقبول أن يلقى في موضع يراه الناظر، حتى يتم التقاطه، وأن يكون الموضع آمناً، حتى يتم إخراجه دون أن يتأذى، أو يصيبه مكروه.

وتعريف (الجب) دليل على أنها بئر معروفة يردها السيارة، وأنها في طريق المارة، واختلف في مكان الجب، قيل: إنها بئر ببيت المقدس، وقيل: بأرض الأردن، وقيل: على بعد فراسخ من منزل يعقوب، أو بين مصر ومدين.

ولنتأمل ما يدل على أن القائل يعلم أنها بئر معلومة حيث قال: (ألقوه... يلتقطه) إذ اختلفت الجملتان خبراً وإنشاءً، وجاءت الجملة الثانية لاحقة لفعل الأمر مستأنفة وبدون عاطف، دلالة على سرعة حدوث فعل الالتقاط، لم يقل (فيلتقطه) لكي لا يكون هناك فارقاً زمنياً بين الإلقاء والالتقاط، فيكون إلى السلامة أقرب، ومن الهلاك أبعد.

وقوله: (إن كنتم فاعلين) فيه إشارة إلى أن الأولى ألا تفعلوا شيئاً من ذلك، أما إن كنتم مصرين على إبعاده، فالأولى أن تفعلوا ما آمركم به، لذلك جاءت جملة الشرط بدون جواب بمعنى: إن كنتم فاعلين فافعلوا ذلك. واقتصروا على هذا القدر وإلا لا تفعلوا، وهذا هو الرأي.

تنفيذ خطة الإبعاد

ولما كان الرأي الأخير هو المرجح والمقبول، اتفقوا على تنفيذه.. لتنتقل القصة إلى مشهد آخر، حيث ذهب إخوة يوسف عليه السلام إلى يعقوب عليه السلام، وقد عزموا أمرهم على أخذ يوسف، معهم لتنفيذ ما اتفقوا عليه، فراحوا يقنعون أباهم أن يأخذوا يوسف معهم ، في قوله تعالى :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [1].

والسؤال يدل على أنهم سبق وطلبوا من أبيهم أن يأخذوا يوسف معهم وأنه كرر الرفض، لذلك يبدو من الآية أساليب التحايل التي دخلوا بها على يعقوب عليه السلام ، لاستنزاله عن رأيه الأول، ولولا خوف يعقوب على يوسف منهم ما قالوا هذا القول، الذي بدؤوه باستفهام إنكاري تعجبي، رغبةً منهم في تأكيد محبتهم ليوسف وأنهم في غاية الشفقة عليه، فأرادوا إنزاله عن رأيه في حفظه وملازمته، فاستخدموا أسلوب طمأنته، وجاء المد بالألف (يا أبانا مالك لا تأمنا؟) في الكلمات السابقة ليعطي إيقاعاً، يزيد من قوة التأثير على الأب، كنوع من الاستعطاف، وجملة (لا تأمنا) حال بدون رابط، لأن الفعل مضارع[2] منفي بـ(لا) فيجوز ترك الواو وذكره حسب ما يستوجب السياق.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ١١-١٢.

(٢) المضارع المنفي بلا أو ما يستوي فيه ذكر واو الحال وتركها حسب السياق لدلالتها على المقارن، راجع علوم البلاغة، المراغي١٦٠، دار إحياء التراث، مكة المكرمة، ط١٠، ١٩٩٢م.

وجملة (إنا له لناصحون) يستمر فيها إيقاع المد بالألف بالإضافة إلى أنها جملة خبرية من الضرب الإنكاري، لزيادة التأكيد على أنهم سوف يكونون الناصحون والمرشدون لأخيهم لأنهم الأكبر والأكثر خبرة، ولن يبخلوا عليه بالنصح والإرشاد، و(الواو) حالية، بمعنى: لِمَا لا تأمنا والحال هكذا؟ وربط جملة الحال بما بعدها بـ(الواو والضمير) أولى في (وإنا) لأن الجملة الإسمية تدل على المقارنة، ولأنها تدل على الثبوت مع ظهور الاستئناف، لحصول الفائدة. وتقديم الجار والمجرور (له) للتأكيد وتقوية الحكم، وأنه هو المعين بالنصح.

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1].

وتبدأ الآية التالية (أرسله....) مستأنفة بفعل أمر خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى الترجي أو الاستئذان، بمعنى (اسمح لنا أن ترسله معنا) وذكر الجار والمجرور (معنا) ليطمئنوه، فإن يوسف سوف يكون في عهدتنا وحمايتنا فلا تخف عليه، وقولهم: (غداً) أوقع لأنهم لو قالوا: (الآن) لأوجس منهم خيفة، فرأوا أن يشعروه أنهم ليسوا في عجلة.

وقوله (يرتع ويلعب) بمعنى نعلمه رعي الماشية، ونتركه يلعب، ولها خمس قراءات منها (نرتع ويلعب) بالنون لأنهم كانوا يذهبون كل يوم لرعي الإبل والماشية، وارتعاؤها بمعنى أكلها للكلأ في المرعى وقد يضاف للراعي، بمعنى يرتع، لأنه هو السبب في ذلك الرعي، وإضافة الرتع إلى أنفسهم لأنهم بالغون يقومون بأعمال الرعي، وإضافة اللعب ليوسف لصغره.

وجاء تكرار أسلوب التوكيد بالجملة الخبرية من الضرب الإنكاري (وإنا له لناصحون) جملة حالية أخرى مربوطة بما قبلها بالواو والضمير، للتأكيد

---

(١) يوسف، آية: ١٢.

والتعهد بالحفاظ عليه لأنهم علموا أن يعقوب يخشى ذهابه معهم فكان لا بد من أن يكثروا من المؤكدات ، ويتلطفوا في الأسلوب حتى يرضى ويتركه معهم.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ * قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ (1).

وجاء رد يعقوب عليه السلام على أبنائه بما لا يدع مجالاً للشك في أنه يعلم ما يضمرونه لأخيهم لذلك بدأ بقوله: (إني ليحزنني) واللام لام الابتداء، وتكرار الضمير مع (إن) ليؤكد لهم أن مجرد ذهابهم بيوسف أمر يحزنه، لماذا؟ لأنه لم يكن يطيق فراقه، ثم إنه يعلم حسدهم له وإنهم إذا ذهبوا به لن يعيدوه، لذلك قال (وأخاف أن يأكله الذئب)، وكأن يعقوب أوحى لهم بالحجة التي سوف يتقدمون بها بعد ذلك، وعطف جملة (أخاف) على (ليحزنني) للاتفاق في الخبرية ووجود المناسبة والجامع، والجمع بين الحزن والخوف على يوسف ليس من الذئب كما علل ذلك يعقوب وإنما منهم، ولكن أسرها في نفسه، خشية إحراجهم.

ومجيء (الذئب) معرف بأل الجنسية ، وتسمى (لام الحقيقة) دخلت على المسند إليه (الذئب) للإشارة إلى الحقيقة في ضمن فرد مبهم ، إذا قامت القرينة على ذلك الجنس ، بقطع النظر عن الأفراد ومدخولها في المعنى كالنكرة فيعامل معاملتها ، وتسمى لام العهد الذهني(2).

---

(1) سورة يوسف، الآيات: ١٣-١٤.

(2) جواهر البلاغة ١١٦ ، ١١٧ . السيد الهاشمي ، المكتبة العصرية .

وقوله: (وأنتم عنه غافلون) واو الحال، بمعنى: والحال أنكم تكونون غافلين عنه، لم يرد يعقوب أن يصرح بما في نفسه من هواجس، فعلل هلاك يوسف بغفلتهم عنه، إحساناً للظن بهم.

فكان ردهم عليه في قوله تعالى: ﴿ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ على تقدير قسم محذوف، واللام في (لئن) موطئة للقسم بمعنى (والله لئن) أو أن (إن) بمعنى الشرط ودخلت عليها اللام لتأكيد استلزام الشرط للجزاء، أي إن وقع ما تظن نكن من الخاسرين، وفي الحالتين فإن العبارة فيها معنى الإنكار أن يصاب يوسف بأذى وهم عصبة.

وقوله: (ونحن عصبة) الواو حالية، بمعنى كيف يأكله الذئب والحال أننا عصبة من الرجال الأقوياء، وقد تكررت هذه الجملة، في موضعين، مما يدل على أنهم كانوا مترابطين يعتزون بقوتهم وهم متحدين، بمثلهم تعصب الأمور، و[illegible] الخطوب، إنهم إذاً لخاسرون، وهكذا يتضح أن إخوة يوسف استعملوا الجمل الخبرية من الضرب الإنكاري في كل حواراتهم مع أبيهم، بهدف الضغط عليه نفسياً وعاطفياً وإشعاره بأنه عليه أن يطمئن، ويوسف معهم لأنهم لن يتوانوا في رعايته وحفظه، ومعنى (خاسرون) أي هالكون أو مستحقون أن يدعى عليهم بالخسارة والدمار.

وإخوة يوسف في ردهم على يعقوب لم يجيبوا على قوله (يحزنني أن تذهبوا به) لأن حسدهم وغيظهم كان بسبب حزن يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام وتمسكه به، لشدة حبه له لذلك تغافلوا عن ذلك ظناً منهم أن حزن أبيهم سوف يكون لفترة وجيزة، ثم ينساه ويفرغ لهم.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾(١).

وهنا يحتاج الكلام إلى وقفة:

إن من طبيعة البشر إذا أراد أحد التخلص من شخص يضايقه أو يغيظه، أو يشعر نحوه بالحسد على نعمة حظي بها، فإن الحاسد الحاقد الذي يستشعر الخطر من هذا المنافس، يفكر أول ما يفكر في إبعاده عن ساحته، ثم ينتقل بفكره للتخلص منه بإيذائه، ثم يقرر أخيراً قتله، للتخلص منها نهائياً، أما إخوة يوسف ولأنهم من سلالة الأنبياء، اندفعوا في قرارهم، ثم تراجعوا شيئاً فشيئاً لأنه كما هو معلوم لم يكن هدفهم سوى أن يكون أبوهم خالصاً لهم.

لذلك فإنهم عندما قرروا التخلص منه فكروا أولاً في قتله ثم طرحه في أرض مجهولة، ثم عدلوا عن ذلك بإلقائه في الجب، لأنهم كما نعلم ليس لهم هدف إلا إبعاده، دون أن يتضرر، لذلك نراهم عندما يجمعون رأيهم لا يلقونه وإنما (يجعلونه) في غيابت الجب وجعل الشيء وضعه، وإلقائه رميه، ففرق كبير بين معنى الإلقاء والجعل، فلا يوجد ترادف في اللغة العربية بمعنى المماثلة وإنما لا بد من وجود فروق في المعنى، إذ إنهم جعلوه ووضعوه في الجب دون أن يتأذى، خلاف ما ذكر في العديد من كتب التفاسير عن كيفية إلقائه في غيابت الجب، وما وصفوه من القسوة وأسلوب العنف الذي استعملوه في إلقائه، وهو يحاورهم ربما يلين الصخر، وهم لا تلين قلوبهم ، ولا يزدادون إلا قساوة ويذكر أبو حيان الأندلسي في تفسيره "البحر المحيط" أنه لم يتعرض القرآن ولا الحديث الصحيح لشيء من ذلك.

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٥.

لذلك فمن المقبول أن يوسف لم يتعرض للقسوة والأذى وإنما استعمل إخوته الحيلة حتى أنزلوه في البئر، وفيها تركوه، وهم يعلمون أن هناك من السيارة من سيأتي ويخرجه، وأنه سوف يكون في أمان ولن يصيبه الضرر.

وقوله (فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه) يستلزم (لما) جواباً بمعنى (فجعلوه) وفيها حذف الجواب لدلالة السياق وهو كثير في القرآن، بشرط أن يكون الموجود دليلاً على المحذوف، وإذا قيل إن (جعلوه) بمعنى (ألقوه) إذاً لماذا عدل النص القرآني عن صيغة لأخرى؟

والإجابة كما اتضح لا يوجد ترادف بدون فروق دقيقة، ثم إن معنى اللفظين متناقضين فإن قولك: "ألقيت الكتاب على الطاولة" مخالف لقولك: "جعلته على الطاولة".

والظاهر أن الضمير في (وأوحينا إليه) عائد على يوسف ، قيل أعطاه الله النبوة في الجب ، فلا يمتنع أن يشرفه بالوحي والتزيل ويأمره بتبليغ الرسالة وتكون فائدة تتزيل الوحي تأنيسه وإزالة الوحشة عنه كما أوحي إلى يحيى وعيسى عليهما السلام، وقيل الضمير عائد على يعقوب ولكن الظاهر يدل على أنه عائد على يوسف بمعنى: أوحي إليه ليأنس في الظلام من الوحدة، والظاهر أن الوحي هو الإلهام مثال قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى ﴾ [2] ولتبشرن يا يوسف بما يؤول إليه أمرك، ولتحدثن إخوتك يا يوسف بما فعلوا بك، وفي (لتنبئنهم) زيادة تأكيد، ومعنى

---

(١) سورة النحل، آية: ٦٨.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١١٧.

القسم، خلاف (لتنبئهم)، فإن النون مع اللام (لتنبئنّ) أعطت اللفظ جرساً قوياً، إذ أعطاه الله وعداً أن ينبئ إخوته ولو بعد حين، فكان الوحي بمثابة الأمل ليوسف أنه لن يهلك وأنه سوف يخرج من الجب وأنه سوف يلتقي بإخوته ويذكرهم.

﴿وهم لا يشعرون﴾ وهي جملة حالية بمعنى وحالهم أنهم لا يشعرون، جملة مربوطة مع ما قبلها بالواو والضمير، للدلالة على أنه أوحينا إليك في حين أنهم لا يشعرون.

وللجملة الحال تفسيران:

التفسير الأول :

إما أن يكون المقصود أنك يا يوسف سوف تواجههم عندما يأتون إليك وتكون ملك مصر وسوف تتعرف عليهم وهم لا يعرفونك، وسوف تخبرهم بما فعلوه معك.

التفسير الثاني :

أو أن يكون المقصود أن الله ﷻ أوحى إليه ليؤنسه ويزيل وحشته ويطمئنه على حياته وأنه سوف يخرج سالماً وسوف يخبر إخوته حين يلتقي بهم عما فعلوه به، والواقع أنه لا يمنع أن يُراد التفسيران معاً.

الأكذوبة الكبرى

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾[(١)].

لنتأمل هذه القصة الملفقة، إن كذبهم ظهر في تراكيب كلامهم وطريقة تبليغ الخبر، فالمجيء عشاءً أي في وقت العشاء: لكي لا يتركوا لأبيهم أية فرصة للبحث عن ابنه، فالليل كان في زمانهم مرتعاً للسباع والضباع، والخروج ليلاً مهلكة، فقد انتظر إخوة يوسف حتى غربت الشمس ودخل وقت العشاء، وجاؤوا أباهم يبكون[(٢)] ثم يحكون له قصة طويلة وهم في هدوء وسكينة، غير مفزَّعين ولا منفعلين، وهذا واضح في أسلوبهم. وقد جاء الفعل (يبكون) مفصولاً ، وهو جملة حال لم تقترن بالواو ، لأن الفعل مضارع مثبت ، فلا يؤتى بواو للارتباط معنىً لوجوب الحصول والمقارنة معاً فلا حاجة للوصل . فلا يجوز (وجاءوا أباهم عشاءً ويبكون) [(٣)] .

معروف أن الإنسان عندما يتعرض لخطر يندفع، ويكون كلامه موجزاً جداً أو ربما ينطق لفظاً واحداً من باب حذف كل لفظ يعطل في سرعة الإنقاذ كأن يتعرض لحريق مثلاً.. ماذا يكون رد فعله؟ لن يقول سوى نار.. نار.. حريق... حريق... أو إذا وجد ثعباناً، سيقول: ثعبان.. ثعبان.. فما بالك إذا

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ١٦-١٧.

(٢) روي أن امرأة حاكمت إلى شريح فبكت، فقال له الشعبي: يا أبا أمية، أما تراها تبكي؟ فقال: قد جاء إخوة يوسف يبكون وهم ظلمة: ولا ينبغي لأحد أن يقضي إلا بما أمر أن يقضى به من السنة المرضية. راجع الكشاف للزمخشري .

(٣) راجع جملة الحال التي يجب فصلها في جواهر البلاغة ١٨٧ .

هجم ذئب وأكل شخص، ماذا يكون رد الفعل، من الطبيعي أن ينطلقوا إلى أبيهم قائلين: يوسف أكله السبع.. أو: وا مصيبتاه.. أو أي عبارة قصيرة تدل على فزعهم وحزنهم، وتدل على هول ما أصاب أخيهم، لكن أن يأتوا إلى أبيهم بهذه القصة، ويكون لديهم الصبر أن يحكوا لأبيهم من وقت استباقهم إلى أن يعلنوا أن الذئب قد أكله، ولنتأمل طريقتهم السابقة في تركيب الجمل التي يكثر فيها المد بالألف (قالوا يا أبانا إنا كنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا) وما يتركه من إيقاع بطيء يوحي بأنهم كانوا قد رتبوا الكلام ونسجوه بحيث يلتون إلى أبيهم بحجة تركهم لأخيهم عندما راحوا يستبقون، وقد تكرر ضمير (نا) الفاعلين سبع مرات في الآية، فهذا المد الصوتي وفي هذا الموقف الذي يستدعي اختصار الكلام دليل كذبهم، وقيل إنهم جاءوا عشاءً ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة، ولذا قيل: لا تطلب الحاجة إلا بالليل، فإن الحياء في العينين، ولا تعتذر في النهار من ذنب فتتلجلج في الاعتذار.

وفي الكلام حذف بمعنى: وجاؤوا أباهم عشاءً دون يوسف يبكون، وأخذوا يحكون تلك القصة الملفقة، (ويبكون) جملة حال بمعنى والحال أنهم يبكون، وكأنهم يصطنعون البكاء لإيهام أبيهم بأنهم محزونون، ويذكر المفسرون العديد من الروايات عن تلقي يعقوب الخبر، والحوارات المختلفة بينه وبين أبنائه، وكلها روايات، حتى أن المفسرين يقولون: "قيل كذا" أو "روى كذا"، لذلك فلا حاجة لذكر تلك الروايات لأنها أقوال مجهولة ليست موثقة، لا بالقرآن ولا بالسنة.

وقولهم: (فأكله الذئب) خشية أن يطلب يعقوب أثره أو بقاياه، لذلك لم يقولوا صرعه الذئب - وكان يعقوب هو الذي أوحى لهم بهذه الحجة-

والاستباق كان من أعمال الفروسية والتدريب على العدو، والمتاع "الثياب والأغراض الأخرى"، فقد خالف إخوة يوسف كل ما أخذوه على أنفسهم من النصح لأخيهم والمحافظة عليه ورعايته، وتركه يرتع ويلعب، الحاصل أنهم هم الذين ذهبوا للاستباق وتركوا يوسف جالساً عند المتاع، ليتضح أنهم نقضوا كل ما قالوه أمام أبيهم، ليفتضح أمرهم، وينكشف غدرهم لأخيهم وهم الذين قالوا في قوله تعالى ﴿ لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون ﴾ أمام أبيهم الذي أبى أن يصدقهم.

وإخوة يوسف يعلمون أن أباهم لن يصدقهم لأنهم يعلمون أنه يعلم بحسدهم وغيرتهم، لذلك قالوا: (وما أنت بمؤمن لنا) أي بمصدق لنا، (ولو كنا صادقين) أي ولكن ما أنت بمصدق لنا ولو كنا عندك من الصادقين قبل هذا الحادث، فمعلوم أنك لست مصدقاً لنا على كل حال، ويعني ذلك أنهم في قرارة ضمائرهم يعلمون أنهم كاذبون ويمكن اعتبار الجملة جواب شرط مقدم بمعنى (لو كنا صادقين ما أنت بمؤمن لنا) ولو حرف يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط، مما يدل على أنهم كاذبون.

كذلك أراد أنهم حتى في حالة الصدق لن يصدقهم، لما غلب عليه من تهمتهم بحسدهم ليوسف وأنهم أبو إلا أن يكيدوا له، فإذا كانوا صادقين قبل فعلتهم هذه، لن يصدقهم الآن، إنما حيلة الكاذب يقول: "لن تصدقني ولو كنت صادقاً" إذا كان حال المخاطب دائم التكذيب له.

ولكي تكتمل الأكذوبة قال تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَـذِبٍ ﴾ ولو أنه دم يوسف لقال (في قميصه)، فإن (على) تدل على وجود الدم على القميص من الخارج دليل على أنه دم ليس ليوسف، ووصف الدم بأنه (كـذب)

على سبيل المجاز العقلي[1] من إسناد الكذب (المصدر) الدم، بمعنى دم مكذوب فيه.

فإخوة يوسف كما هو مروي في التفاسير قد ذبحوا شاة ولطخوا قميص يوسف بدمها دون أن يخرقوه أو يمزقوه، مما استدل به يعقوب على كذبهم وادعائهم، وكان ذلك دليلاً على أنهم ظلموا الذئب وأنه بريء من دم ابنه، لذلك نراه يظل طوال حياته على أمله في عودة يوسف له في يوم ما.. ظل على هذا الاعتقاد إلى أن جاءه يوسف.

فقوله: (على قميصه) على الظرفية بمعنى فوق، قيل إنها في موضع نصب حال من الدم والتقدير: وجاؤوا بدم كذب على قميصه، ووصف الدم بالكذب على سبيل المبالغة، أو على حذف المضاف أي: ذي كذب، وكثرت الشروح والتفاسير لهذه الآية..

قيل: إن في قميص[2] يوسف ثلاث آيات:

١ - لأنه لم يمزق و لم يخرق رغم الادعاء بأن الذئب أكل يوسف فكان ذلك دليل كذبهم، وتبرئة للشاة المتهمة ظلماً.

٢ - وكان القميص دليلاً على براءة يوسف في حادثة المراودة ، حين راودته امرأة العزيز .

٣ - وحين ألقي على وجه يعقوب ارتد بصيراً.

---

(١) المجاز العقلي : " هو إسناد الفعل أو ما هو في معناه إلى غير صاحبه لعلاقة مع قرينة تمنع أن يكون الإسناد حقيقي ، وسمي عقلياً لأن التجوز فيه فهم بالعقل من اللغة كما في المجاز اللغوي " . انظر البلاغة والأسلوبية ، يوسف أبو العدوس ١٠٦ ، الأهلية للنشر والتوزيع ١٩٩٩ م .

(٢) قيل: إن يعقوب عليه السلام قال: تالله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا، أكل ابني و لم يمزق قميصه. انظر: الكشاف للزمخشري.

إن لقميص يوسف دور فعال في قصته، ومركز الحدث فيها، تماماً كما كان للعصى في قصة موسى دورها الفعال كمحور للعديد من الأحداث.

جاء إخوة يوسف بقصة ملفقة كاذبة، ودم مكذوب على قميص يوسف في محاولة يائسة لإقناع الأب المغدور به، أن يصدقهم وليوهم كونهم صادقين في قصتهم، لكن أتى رد يعقوب كاشفاً للمؤامرة التي اشتركوا فيها ضد أخيهم فقال: ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ جملة مستأنفة مفصولة لاختلاف القائل، ويمكن اعتبار جملة ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ اعتراضية لكشف درجة كذبهم، ويكون قوله ﴿بل سولت﴾ رداً على قولهم ﴿أكله الذئب﴾.

وسولت بمعنى: سهلت، أي سهلت لكم أنفسكم أمراً عظيماً ارتكبتموه، كأنه قال: ليس كما تقولون (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أي زينت لكم أنفسكم أمراً غير ما تصفون، على أساس أنه قصر عن طريق العطف بـ(بل) وحذف " ليس " لدلالة السياق . أي : ليس الحال ما تصفونه بل سولت لكم أنفسكم أمراً .

وقيل إن يعقوب عرف أن أبناءه كاذبون بعدة أمور:

١ – إنه كان يعرف الحسد الشديد في قلوبهم ليوسف عليه السلام.

٢ – إنه كان عالماً بأن يوسف حي بدليل قوله (وكذلك يجتبيك ربك).

٣ – هذا بالإضافة لما سبق من أن قميصه لم يخرقه الذئب، لأنه لم يأكله أصلاً.

٤ – وأن الدم فوق القميص ليس دم يوسف بدلالة قوله (على قميصه).

٥ – وهذه القصة التي جاؤوا بها عشاءً، ورد فعلهم غير الطبيعي في مثل هذه المواقف العصيبة.

٦ - إلحاحهم في أخذ يوسف معهم وتعهدهم بالمحافظة عليه في حين تركوه واستبقوا كما ذكروا .

ولأن يعقوب عليه السلام نبي الله، ومن صفات الأنبياء الصبر عند الابتلاء، فقد قال: ﴿ فَصَبْرٌ [1] جَمِيلٌ ﴾ معطوف بالفاء، بمعنى أنه يترتب على ما سولته لكم أنفسكم أن أصبر صبراً جميلاً، ووصف بالصبر الجميل، بمعنى صبر لا شكوى فيه إلى الخلق، ولا تحدث بما يوجع، والصبر الجميل خلاف الصبر الطويل أو الكثير، فلماذا وصف بأنه صبر جميل؟ قد يكون لأنه صبر النفس المؤمنة التي لا تجزع ولا تمل الصبر، بمعنى: فصبري صبر جميل، أليس هو القائل: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾؟. والمسند إليه محذوف والتقدير : فأمري صبر جميل ، والحذف لتكثير الفائدة ودلالة القرينة عليه .

ثم يقول وقد سلم أمره لخالقه: ﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أي أستعينه على احتمال ما تصفون من هلاك يوسف، وهذه الفعلة المدبرة لإبعاد يوسف . ختم كلامه بجملة مستأنفة تدل على اعتماد يعقوب على ربه في تحمل هذه المحنة التي واجهها بصبر جميل .

ثلاث جمل قالها يعقوب في ذلك الموقف العصيب، موقف يفوق احتمال الأب المخدوع في أولاده، المفجوع في ابنه الذي وهبه حبه وعطفه ورعايته، ثم ضاع منه، والذين ضيعوه هم إخوته لذلك كان موقفه موقف النبي المؤمن بالله المستعين به، أوجز كلامه في جمل ثلاث:

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً.. ﴾..

---

(١) راجع جواهر البلاغة (حذف المسند إليه) ١٠٤ .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ.. ﴾..

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ ..

وفوض يعقوب عليه السلام أمره إلى الله، وعاش حياته معتقداً بأن يوسف عليه السلام لم يمت وأنه سوف يلاقيه يوماً ما.. وهذا إحساس النبي الذي اصطفاه الله وميزه عن البشر..

الخروج من الجب

والمتأمل للآية السابقة يلحظ كيف جاء رد يعقوب على رواية أبنائه دون أن يعطي نفسه فرصة للتفكير أو التأمل فيما قالوه، و لم يفرد لقوله آية مخصوصة بل تلا قولهم، دليلاً على أن قصتهم لم تأخذ حيزاً من تفكيره و لم تؤثر فيه، وجاء رده عليهم رد الأنبياء، الذين يطلبون العون من الله، ولا يملون الصبر، وكأنه كان معداً نفسه لمثل هذا الخبر، ومتوقعاً هذا العمل.

ويلاحظ القارئ لقصة يوسف عليه السلام هذه الانتقالات السريعة من مشهد إلى آخر في قوله: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾(١).

وفي الكلام إيجاز بالحذف أي أنهم بعد أن تركوه في الجب وذهبوا عنه مر وقت قليل ثم جاءت سيارة، وكانت السيارة رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر، ولم يتفق الرواة على المدة التي قضاها يوسف عليه السلام في الجب، من يوم وليلة إلى يومين إلى ثلاث ليالٍ، كما اختلفوا في مكان الجب، هل هي مكان قفر أو

---

(١) سورة يوسف، آية: ١٩.

مكان معلوم، وقيل إن السيارة كانت تائهة، وأن البئر كانت للرعاة، ولكن واقع الآيات يثبت أنها بئر معلومة في قوله ﴿ألقوه في الجب يلتقطه بعض السيارة﴾، إذن يعلم أخوهم أن هناك سيارة سيمرون بها .

ويبدو أن يوسف لم يقضِ سوى ليلة في البئر أو أقل، بدليل ترتيب الحدث في الآيات، فبعد أن جاؤوا أباهم عشاءً يبكون وقصوا عليه قصة هلاك يوسف في قوله ﴿وجاؤوا على قميصه بدم كذب﴾ بدأت الآية التالية بقوله ﴿وجاءت سيارة﴾ إذاً تكرر فعل المجيء ثلاث مرات كلها أفعال مستأنفة بالواو، مما يدل على تتابع الحدث، وأن يوسف عليه السلام ما لبث أن تركوه حتى جاءت السيارة، ولم يقل: (ولما جاءت أو وعندما جاءت)، لكن جاء الفعل بعد واو الاستئناف مباشرة للدلالة على أن الحدث لم يستغرق وقتاً طويلاً. والبئر لم تكن مجهولة بدليل تتابع الأفعال - أيضاً - في قوله: (جاءت سيارة - فأرسلوا واردهم- فأدلى دلوه) كلها أفعال معطوفة بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب، فلم يكن السيارة في حالة بحث أو استطلاع، ولم يتردد الوارد في إدلاء دلوه، مما يؤكد أنها كانت بئر معلومة لهم. ولو أنها بئر مهجورة لتردد الوارد في إدلاء دلوه خوفاً من أن تكون الماء غير صالحة للشرب، ولأجروا عليها اختباراً أولاً للتأكد من وجود ماء صالح للشرب. كما أن السيارة لم يكونوا في حالة إعياء وعطش شديد أو أنهم تائهون في الصحراء، وإنما كان تصرفهم طبيعي يدل على خبرتهم بالمكان ومعرفته معرفة دقيقة.

وقوله: (يا بشراي) فيه إيجاز بالحذف، والتقدير: ولما أدلى دلوه رأى يوسف يتعلق بدلوه وينظر إليه، و(يا) حرف نداء للتنبيه والتوكيد، وقرئ (يا بشراي) على إضافة البشرى إلى نفسه، فالوارد حين ألقى دلوه تعلق بها يوسف،

فرآه فاستبشر به، لما وهب الله ﷻ يوسف عليه السلام من ملامح الجمال الأخاذ، إذ رأى أنه صبي يافع جميل، ولأنه كان مدللاً، فقد بدت عليه آثار النعمة والراحة، رغم وجوده في البئر، فإن الله ﷻ حفظه من كل سوء، فقال الوارد: (هذا غلام) إذاً البشرى لأنه غلام ليس ككل الغلمان، إذ وجده غلام في غاية الحسن.

وصيغة (يا بشرى) تُذكر عند البشارة ويقابلها قول يعقوب عليه السلام فيما بعد ﴿يا أسفا على يوسف﴾.

وقوله: ﴿وأسروه بضاعة﴾، والضمير للوارد وأصحابه، بمعنى أخفوه عن باقي الرفقة، أو بمعنى: أنهم أخفوا أمره، ولم يصرحوا بأنهم وجدوه في البئر، ونصب (بضاعة) على الحال، أي مكسباً لهم، ومعنى ذلك أن الوارد ورفقته حين أخرجوه احتفظوا به كبضاعة تعود عليهم بالربح.

وقوله: ﴿والله عليم بما يعملون﴾ جاءت الفاصلة القرآنية مناسبة بمعنى أن الله لا يخفى عليه أسرارهم، وأنه مطلع على ما يعملون، وقد يعني ذلك الوعيد لهم لأنهم استبضعوا ما ليس لهم، أو ربما يكون المراد أن الله عليم بما فعل إخوته به وبأبيهم، وعلى ظاهر الكلام وترتيب المعاني يكون الأولى المعنى الأول.

وتأتي الآية التالية تفسيراً وتوضيحاً ووصفاً لكيفية الشراء في قوله: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنْ الزَّاهِدِينَ ﴾[1].

والشراء هنا بمعنى البيع ، أي وباعوه ، و (بثمن بخس) أي مبخوس فيه، أي ناقص القيمة ، نقصاناً ظاهراً ، وقوله : (دراهم معدودة) أي قليلة تعد عداً ، (وكانوا فيه من الزاهدين) وتلك إرادة الله وحكمته ليباع يوسف بثمن

(١) سورة يوسف، آية: ٢٠.

قليل ويكون الشارون من الزاهدين فيه ، وقد وصف الله تعالى ثمـــن يوســـف بصفات ثلاث:

الصفة الأولى: كونه بخساً، على سبيل المجاز الفعلي من إسناد المصـدر إلى الثمن، والمعنى: مبخوس فيه، اسم مفعول . مثل قوله (بدم كذب) .

الصفة الثانية: كونه دراهم معدودة. أي تعد ولا توزن لقلتها.

الصفة الثالثة: وأنهم كانوا فيه من الزاهدين، أي أن الذين شروه كـــانوا قليلوا الرغبة فيه، أو ربما يراد أن الذين باعوه كانوا فيه من الزاهديـــن، لأنهـــم التقطوه من البئر و لم يكلفهم شيئاً، والشيء الملتقط يتهاون به، فيباع بأي ثمـــن، أو ربما لأنهم خافوا أن يظهر له صاحب فيطالب به، لذلك أسرعوا في بيعه بـأقل ثمن وذلك هو الرأي المرجح . فإن الله قدر ليوسف أن يباع لعزيز مصر ليمكـــن له العيش فيها .

لاحظ كيف توالت الأفعال في الآيات السابقة منذ تآمر إخـــوة يوســـف عليه وفكروا في الخلاص منه، فاستعمل في تتابع الحدث الواو الاستئنافية وهـــذا يعني أن الأحداث مضت مسرعة متلاحقة، ولو أنه أريد إشعار المتلقي بـــالزمن لقيل: (ثم بعد ذلك، أو حينما أرسلوا واردهم) إلى غير ذلك من الصيغ التي تفيد مرور وقت، لكن النص القرآني آثر توظيف الواو الاستئنافية للدلالة علـــى أن تلك الأحداث لم تأخذ وقتاً طويلاً... كما أن الإيجاز بالحذف واضح بين كـــل آية وما يليها، والمحذوف مفهوم من السياق دون بذل عناء تفكير وهـــذا مـــن دلائل الإعجاز في سرد القصة، فالنص القرآني من سماته الإيجـــاز بـــالحذف أو القصر، والبعد عن كل العبارات التي يمكن فهم مضمونها من السياق بعيداً عـــن لغو الكلام، الذي لا يفيد، وفي الإيجاز روعة العرض بطريقة تشد الانتباه وتثـــير

في المتلقي مزية التفكير والتحليل ومراجعة النص أكثر من مرة، وفي كل مرة يحصل المتلقي على معانٍ جديدة لم تكن لتخطر على فكره أول مرة قرأ فيها النص... لذلك فإن النص القرآني بوجه عام، محتاج باستمرار لمزيد تأمل وتدقيق.

وسورة يوسف ربما من أسباب جمالها الفني هذه الطريقة المعجزة في عرض الأحداث، إذ يجد المتلقي المتعة واللذة في هذه الانتقالات، المفاجئة والسريعة، وعند كل انتقالة حدث، يقف متأملاً فيما هو آتٍ مسترجعاً ما فات، لربط الأحداث، واستشفاف ما بين هذه الآية وتلك من معانٍ ولا يجد المتلقي غموضاً أو تناقضاً بل يأتي الحدث تلو الآخر في سلاسة ودقة متناهية.

حياة جديدة

﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

تأمل روعة النص القرآني في انتقال الحدث في القصة، بطرق سهلة، وهو السهل الممتنع، إذ تطلعنا الآية على أن الذي اشتراه من مصر بالتقديم في قوله (من مصر) لمعرفة الموطن الذي يعيش فيه، وأنه لا ينجب، وأنه رجل من صفاته العطف والحنو والطيبة بدليل أنه سارع بقوله: (أكرمي مثواه..) ويقال أن اسمه: قطفير أو أطفير، وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر وقيل ملك مصر- وكل ما روي عن قطفير، وملك مصر آنذاك، وعن طريقة وصول يوسف إلى

(١) سورة يوسف، آية: ٢١.

مصر لم يذكر في القرآن، و لم يقم دليل على صحة هذه الروايات - يقول الفخر الرازي: "فالأليق بالعاقل أن يحترز من ذكرها".

والوثيقة المؤكدة بين أيدينا (القرآن الكريم) إذاً لا بد من الاعتماد عليه في التفسير والتحليل بعيداً عن كثير من الأقوال التي لا سند لها ولا توثيق، إن النص القرآني يترك للمتلقي فرصة استنباط الأحداث، ونسج العلاقات بينها، بالاعتماد على الفكر والخيال، فقد كانت هذه الروايات التي تجمعت في قصة يوسف من الموروث الذي تناقلته الأفواه و لم يذكر اسم الذي اشتراه أو امرأته، واستعيض عنه بالاسم الموصول (الذي) ربما تكريماً له، وتحرجاً من ذكر اسم امرأته، لكي لا يرتبط به الاسم، لما سيصدر فيما بعد ذلك من أفعال تمين الرجال وتستذلهم، وقيل أن اسم امرأته (زليخا) وقيل (راعيل) وأياً كان اسمها لم يذكر في القرآن وهذا من سمات العظمة في القرآن.

وبضاعة الرق كانت رائجة ومنتشرة في تلك العهود، ولكن الله ﷻ أراد ليوسف الطَيْكُلاً ألا يكون عبداً، فجعله ابناً لعزيز مصر، الذي لم يفكر طويلاً حين اشتراه بل قال (لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا).

قيل إن الذي اشتراه من الوارد بثمن بخس، ذهب به إلى مصر وباعه للعزيز، وقوله: (أكرمي مثواه) أمر واجب التنفيذ من الزوج لزوجته، وربما فيه معنى الالتماس لما عرف عن قطفير من طيبة وضعف أمام امرأته، فإن الأحداث تدل على أنها كانت ذات شخصية قوية مسيطرة، فطلب منها أن تكرم مترله ومقامه، والمثوى مكان الإقامة، وفي ذلك إجلال وتعظيم لقدر يوسف، وقد علل ذلك بقوله (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) أي ينفعنا عند الحاجة إليه، فقد شعر قطفير نحو يوسف بمشاعر مختلفة، أحس أنه يمكن أن يتخذه ولدا لما

لاحظ عليه من علامات النباهة وأنه لا يشبه العبيد فقد تميز بحسن المظهر وطيب المخبر، فكان ظاهراً عليه أنه من بيت كريم وأنه حصل على العناية في تربيتـــه، وإلا كان من الممكن أن يقول لها استعمليه عبداً يزيد من عبيدنا، لكـــن الله ﷻ أراد للعزيز أن يتوسم في يوسف عليه السلام الخير وهو سبحانه الواعز له أن يحســـن معاملته، حيث أمر زوجته أن تتفقده بالإحسان وتتعهده بحسن الملكـــة، حـــتى تكون نفسه طيبة في صحبتهما، ساكنة في كنفهما، لما سبقت الإشارة إليه مـــن أن قطفير لم يولد له ولد، وقيل إنه كان عقيماً.

وقوله : (عسى أن ينفعنا) فيه معنى الرجاء أنه إذا تدرب وراض الأمـــور، ينفعنا فيما نحن بسبيله بكفايته وأمانته، والنفع هنا لا يعني استعماله في العمل الشـــاق المضني، وإنما قُصد أنه ينفعنا في تصريف أمورنا وقت الحاجة، كولد لنا، لأنه لـــو قصد من النفع أن ينفع كعبد لهما، كان أمره لها أن تعرفه بالأعمال المختلفـــة . و لم يعطف قوله " أو نتخذه ولداً " .

﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾.. هذه العبارة سوف تتكرر مرة ثانية إنها تأكيد قاطع على أن كل ما حدث ليوسف بأمر الله وأنه لم يتركه ليهلك بل إن كل ما حدث له بترتيب إلهي له حكمة في ذلك، (وكذلك) اسم إشارة لمـــا تقدم من إنجائه من الهلاك في الجب وعطف قطفير له، بمعنى ومثل ذلك الإنجـــاء نجينا يوسف، ومكنا له في أرض مصر، وجعلناه ملكاً على شعبها، وقد يكـــون المعنى (في الأرض) عموم الأرض أي مكنا له الحياة، وأعطيناه فرصة الحياة بعـــد أن كان عرضة للهلاك. والأولى المعنى الأول لأن التمكين يعـــني التصـــرف في الأرض بأمره ونهيه، أي في أرض مصر.

﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ فالتمكين في أرض مصر يصحبه تعليم وتفقيه، واللام قد تكون للأمر، أو للتعليل بمعنى لكي نعلمه، وذلك يعني أن يوسف كان محفوفاً بعناية ربانية، فهو القائل ﴿وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ إذاً لم يتوقف عنه التعليم، بل كان مستمراً لم ينقطع عنه وحي ربه، فقد كان ذلك الإنجاء والتمكين ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

﴿والله غالب على أمره﴾ أي على أمر نفسه، والمعنى: ان الله لا يُمنع مما يشاء ولا ينازع فيما يريد ويقضي، وفي ذلك رد قاطع لكل من يظن أنه بإمكانه منازعة قضاء الله وقد يراد: إن الله غالب على أمر يوسف يدبره ولا يكله إلى غيره، فقد أراد إخوته به ما أرادوا، ولم يحدث له إلا ما أراد الله ودبره له.

﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فاصلة قرآنية مناسبة للمعنى، جاءت لتختم الآية بما يدل على أمر هام وهو: أن الأمر كله بيد الله، فإن من يتأمل في أحوال الدنيا وعجائبها يعلم يقيناً أن الأمر بيد الله يصرفها كيفما يشاء.

ومع ذلك فإن أكثر الناس لم يكونوا يعلمون ذلك، ويشركون مع الله آلهة لا تضر ولا تنفع، وكذلك يفهم من النص القرآني أن الله عز وجل أراد ليوسف عليه السلام الحياة فنجّاه، وكل ما سوف يحدث له بعد ذلك لحكمة يعلمها لذلك فهو غالب على أمره لا يمنع مما يشاء.

قصة المراودة

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

(ولما) [2] حرف زمان بمعنى (حين)، وتسمى (لما) الحينية، تتضمن معنى الشرط، والفعل (بلغ) والجواب (آتيناه).

اختلف الرواة في سن بلوغ الأشد، وبلوغ الأشد يبدأ من حيث يصير الفتى شاباً ويكون قادراً على تصريف أموره، وفيه يصل الإنسان إلى غاية الكمال والاستواء كرجل مؤهل لتحمل الأعباء..

وقوله: ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ جواب (لما) وهنا سؤال لماذا لم يقل (آتيناه الحكم والعلم)؟

والجواب: لأن التعريف باللام تحديد للمعنى وحصر له، أما التنكير ففيه معنى الشمول والإبهام، الذي يدعو إلى التفكر في ماهية الحكم والعلم ومقداره فتذهب فيه النفس كل مذهب، فاستمر في تعليم يوسف تأويل الأحاديث، إلى أن بلغ أشده وأصبح قادراً على حمل أعباء الرسالة فآتاه حكماً وعلماً، وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه، وقيل: حكماً بين الناس وفقهاً، وقيل الحكم هو النبوة ، والمراد حكم وعلم لا حدود له .

---

(١) سورة يوسف، آية: ٢٢.

(٢) لما: تفيد معنى الشرط ويكون جوابها فعلاً ماضياً، أو جملة اسمية مقرونة بـ(إذا) الفجائية أو فعلاً مضارعاً. وبناؤها على السكون في محل نصب مفعول فيه. المعجم الوسيط في الإعراب. د. نايف معروف وآخر.

أما قوله: ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ فإن الله ﷻ ، لم يمنح يوسف الحكم والعلم لمجرد الاجتباء والاختيار، أي أنه اختاره فيعطيه، وإلا أين شروط الاجتباء والاختيار؟ وما هو العمل الذي يجازي به الرب ﷻ يوسف عليه السلام؟

إنه (الإحسان) إذاً لم يكن العطاء هبة مربوطة على يوسف في كل الأحوال وإنما في حال أن يكون من المحسنين، بالكلمة والعمل وصدق السريرة، لذلك قال (وكذلك) وكذلك نفعل مع المحسنين، أو وكذلك لما قدمته ولما تحملته من غدر إخوتك وبعدك عن أبيك يجازيك الله، وكأن صفة الإحسان معلومة في يوسف، وقيل إنه تنبيه على أنه كان محسناً في عمله، متقياً في عنفوان أمره، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاءً على إحسانه، لذلك قدم الإحسان، كما قدم الحكم على العلم، لأن العلم لا يعطيه الله إلا لمن اختاره وأمده الحكمة، أو أن يكون المراد آتاه الحكم والعلم في وقت واحد.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾(١).

وتبدأ قصة المراودة بين يوسف وزليخا، والتي اختلف حولها المستشرقون ما بين مدافع ومتهم لهما معاً وآيات الله تنطق بالحق المبين ولا تدع مجالاً للمزايدة.

فبعد الحديث عن بلوغ يوسف أشده، وتأهيله للعمل بما علمه الله، انتقلت الآيات نقله مفاجئة، إلى الكلام عن حادثة المراودة، ومعلوم مسبقاً أن يوسف كان في غاية الحسن والجمال، مما جعل امرأة العزيز التي قامت على تربيته

---

(١) سورة يوسف، آية:٢٣.

ورعايته تطمع فيه . يمكن ملاحظة أن قوله تعالى : " ولما بلغ أشده " تمهيداً لحكاية قصة المراودة .

والمراودة: المفاعلة، من راد يرود إذا جاء وذهب، كأن المعنى خادعته عن نفسه، وهي عبارة تدل على التحايل لمواقعته، والمراودة كانت من امرأة العزيز والممتنع يوسف، ويراودوه في معنى يستدرجه ليحصل منه على ما يريد، و(راودته) خلاف (رادته وأتته) لأن في المراودة معنى المخادعة، والقصد إلى ذلك، وكأنها تحمله على مواقعتها، ودفعه إلى ما لا يرضى.

وقوله (التي هو في بيتها) أي أنه كان في بيتها آمناً مطمئناً على نفسه، الآن وقد راودته، فإنها ترفع عنه ستار الأمن والأمان، فجاء التقديم لإثارة العجب والدهشة . والتأكيد على أن المراودة حصلت ممن لم يُتوقع أن تقوم بها .

وأشير إلى امرأة العزيز بالاسم الموصول (التي) ليظل الاسم مستوراً، ربما يكون ذلك توقيراً لزوجها وحفظاً لماء وجهه، ذلك الزوج الغافل عما تنوي امرأته فعله وقد يكون للتحقير من شأنها وأنها غير جديرة بذكر اسمها، كما يمكن تلمس معنى السخرية من هذه المرأة التي هي بمثابة الأم ليوسف، كيف أنها تطمع فيه، وتخون زوجها.

وقوله: (غلقت الأبواب) بالتشديد على التكثير لأنها أغلقت أكثر من باب، تأمل ما في الفعل من إصرار وقصد إلى محاصرة يوسف الذي أراد أن ينفلت منها، وقيل الأبواب كانت سبعة، ولا يهم هنا كم عددها، ولكن المهم في كيفية الغلق، ولأنها أرادت ارتكاب فعل حرام أسرعت و(غلقت)، لأن غلق الباب، يعني إحكام غلقه وتثبيت قفله، حتى لا يتمكن أحد من الخروج ثم دعته إلى نفسها فقالت: (هيت لك) ولها معنيان:

١ – هَيتَ لك مفتوحة الهاء والتاء، معناه بالعبرانية تعالى. وقد تم تعريبه في القرآن.

٢ – هِيتَ بكسر الهاء وفتح التاء، من تهيأت لك وهو الأرجح.

فماذا كان رد فعل يوسف وقد غلقت الأبوابُ وعرضت نفسها عليه؟

لقد جاء رد يوسف سريعاً، لم يفكر و لم يناقشها فيما طلبت و لم يُسْحَر بقولها أو بجمالها - إذ قيل إنها كانت غاية في الجمال رغم كبر سنها بالنسبة له- وقد جاء قول يوسف مفصولاً مستأنفاً بعد قولها: (قال معاذ الله) أي أعوذ بالله معاذاً، أن أفتن، أو استدرج إلى ما حرمه ربي، و لم يعطف قوله لأنه ليس من جنس قولها.

لم ينس يوسف أبداً فضل العزيز الذي رباه لذلك جاء قوله: (إنه ربي أحسن مثواي)، وربي: سيدي ومالكي ويقصد العزيز، فقد أحسن مثواه حين طلب من زوجته إكرام مثواه، ثم إكرامه، ولن يسيء إلى من أراد أن يجعله ولداً له، كيف يخونه في بيته ويغدر به، ونلاحظ هنا أن يوسف عليه السلام ذكر في جوابه على كلامها ثلاثة أشياء:

١ – قوله (معاذ الله).

٢ – وقوله (إنه ربي أحسن مثواي).

٣ – وقوله (إنه لا يفلح الظالمون).

لاحظ تكرار (إنه) وأهمية ذلك في تأكيد الكلام مع وجود التناسق بين الجمل ، وكلها جمل مفصولة مستأنفة، تؤكد صلابة يوسف، ووعيه الشديد لما يقول، والمعنى يدل على تعلق كل قول بالآخر، وجاء رده مرتباً، ترتيباً طبيعياً،

فالإنسان في مثل هذه المواقف ربما يُسحر بالقول وينسى كل معروف وينجرف وراء شهوته، أو العكس ربما إذا استُدرج وأكره على فعل محرم، يطلب العون والمدد من الله، ليرد ذلك الفعل عنه، فكيف بيوسف النبي الذي علمه ربه فأحسن تعليمه، فإن حق الله ﷻ عليه يمنعه عن هذا العمل المشين، كما أن هذا العزيز الذي أنعم عليه يُقبح مقابلة إحسانه بالإساءة، كما أن صون النفس عن الضرر مطلوب.

وجاءت الفاصلة القرآنية (إنه لا يفلح الظالمون) فسمى من يهم بارتكاب الإثم ظالماً، لأنه يظلم نفسه بحملها على ارتكاب معصية حرمها الله، فيلاحظ مناسبة الفاصلة للمعنى المطروح، لأن الذي يجازي الحسن بالسيء، ويقابل الإحسان بالخيانة هو الظالم، ويوسف بريء من أن يظلم، وقيل أراد: الزناة خاصة، لأنهم ظالمون لأنفسهم.

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[1].

يقول الفخر الرازي: "اعلم أن هذه الآية من المهمات التي يجب الاعتناء بالبحث عنها"[2].

وهنا لا بد من الإجابة عن سؤال تردد كثيراً على ألسنة المحققين والمفسرين والمستشرقين، وهو: هل صدر عنه عليه السلام ذنب أم لا؟ هل قام بفعل الهم أم لا؟

---

(١) سورة يوسف، آية: ٢٤.

(٢) التفسير الكبير (١٧-١٨/١١٥).

ويرى كثير من المحققين والمفسرين أن يوسف بريء من الذنب، بريء عن العمل الباطل والهم المحرم، وأن نبي الله لم يكن ليصدر عنه (هم) والأدلة كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾ وغير ذلك من أدلة يتم توضيحها في حينها.

بعض المفسرين أقروا أنه صدر عنه الذنب وأخذوا يذكرون كلمات عارية عن الفائدة ويطيلون في شرح ما حدث، وبإسهاب، يشق على القارئ، الاطلاع على كلامهم، وكما يذكر الفخر الرازي: لم تذكر آية يُحتج بها ولا حديثاً صحيحاً يعول عبه، لذلك فلا يجب أن يؤخذ ما قالوه من تشويه صورة نبي الله يوسف عليه السلام مأخذ الجد، ولا يعتد بما قالوه.

والمراد من قوله: (هم بها): أن نفسه مالت إليها، ميلاً يشبه الهم، فـ... شيء من العزم، ويوسف بريء من هذا الفعل بدليل قوله تعالى فيما به ﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ وذلك يدل على أن ماهيـ... والفحشاء مصروفة عنه، والزنا أعظم أقسام الفحشاء، فكيف يتهم وقد بـرءه الله.

إن الأنبياء عليهم السلام إذا صدرت عنهم معصية كانوا يقدمون التوبـة ويستغفرون فلو أن يوسف عليه السلام أقدم على مثل هذه المعصية ما كان منه إلا أن يتبعها بتوبة واسغفار، والهم يعني المخالطة، إذاً لماذا ذكر الفعل مرتين؟ و لم يقل (ولقد هما)، والحاصل أن المبادرة بـ(الهم) كانت منها، فهي التي بدأت وكادت أن تغويه، فاستشعر في نفسه رغبة أن يهم بها (لولا أن رأى برهان ربه)، لذلك تعلق الشرط بـ(هم بها) وجواب الشرط محذوف، معناه: لولا أن رأى برهان ربه لخالطها، كما يقال: هم بقتله لولا أن خاف الله "وتأخير جواب (لولا)

حسن جائز، إلا أن جوازه لا يمنع من جواز تقديم هذا الجواب"[1] فالتقديم كما يرى النحاة للأهم فالمهم.

وبرهان ربه قد يكون عهداً مأخوذاً على المكلفين، فتذكره يوسف عندما فكر في أن يهم بها، لكنه لم يكد يفعل، بشهادة كل الذين تعلقوا بهذه القضية: يوسف أعلن أنه بريء، وزوجة العزيز فيما بعد قالت: (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم) والنسوة والشهود ورب العالمين شهد ببراءته عن الذنب.

ولا يوجد مبرر لكثرة الحديث والأمر بين، فإن يوسف وضع في حال تكاد تُذهب بالعقول والعزائم، وهو يكسر كل ما به من أحاسيس آثمة ويردها بالنظر إلى برهان ربه المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم.

وامتناع يوسف برغم هذا الميل الشديد لا يقدر عليه غيره إذا كان في موضعه، لأن استعظام الصبر على البلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته، فابتلاء يوسف في هذه اللحظة عظيم وصبره، وتمسكه بشكيمته، وقدرته على التحكم في غرائزه أعظم.

ولو كان همه كهمها عن عزيمة وقصد، لما مدحه الله ﷻ بأنه من عباده المخلصين، كذلك فإن قوله: (ولقد همت به) داخل في حكم القسم باعتبار اللام المتصلة بـ(قد) لام قسم لذلك يجب عند القراءة التوقف لكي لا تدخل جملة يوسف في حكم جملتها، وأيضاً للإشعار بالفرق بين الهمين، أما الواو، فيرى المفسرون أنها واو الحال بمعنى (والحال أنه كاد يهم بها) أي عزم ولم يكد يهم.

---

(١) التفسير الكبير: (١٧-١٨/١١٧).

فقد شاء الله ﷻ أن يجعل الهمين على سبيل التفصيل، لا الإجمال، وفسر "البرهان" بالعديد من التفسيرات، وأقربها للمعنى أنه خاف معصية الله، أو أنه آخذ عهداً أمام الله بألا يرتكب المعصية.

إن يوسف قد جاهد نفسه بجاهدة أولي العزم والقوة، حتى استحق من الله الثناء، فيما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الكريم الذي هو حجة على سائر كتبه ومصدق بها.

فهو النبي الذي استوفى الله قصته وضرب سورة كاملة لها، ليجعل له لسان صدق في الآخرين، كما جعله لجده الخليل إبراهيم عليه السلام، وليقتدي به الصالحون آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار.

أخزى الله أولئك المحققين في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله ﷻ للسورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين ليقتدي الناس بنبي من أنبيائه ارتكب الفاحشة وخان الله،إن ذلك من الافتراءات التي يجب التصدي لها.

﴿وكذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾..

فقوله: (وكذلك) أي ومثل ذلك التثبت ثبتنا يوسف، أو بمعنى: أن الأمر مثل ذلك، وقوله: (لنصرف) اللام لام التعليل أي أن هذا التثبت لصرفه عن خيانة السيد الذي آواه، ومعصية الرب الذي اجتباه وارتكاب السوء الذي حرم عليه. (والفحشاء) يراد بها الزنا، فقد صرف الله عنه الشروع في الزنا؛ لأنه من عباده الصالحين.

لنتأمل كيف يفتح الله للناس باباً عظيماً ليدخلهم في زمرة الصالحين.. إنه باب الإخلاص بالنية والعمل، فبإخلاص النية لله والعمل له، يصرف ما قد يساور العقول من الوقوع في الذنب والمعصية.

فإن يوسف عليه السلام من الذين أخلصوا دينهم لله، فجاءت الفاصلة القرآنية مؤكدة لهذا المعنى في قوله ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ والجملة خبرية مؤكدة من الضرب الإنكاري وللمخلصين قراءتين:

المخلَصين: بفتح اللام، أي الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم.

والمخلِصين: بكسرها، أي الذين أخلصوا دينهم لله.

وقوله (من عبادنا) أي: هو مخلص من جملة المخلصين، أو هو ناشئ منهم لأنه من ذرية إبراهيم، الذين احتباهم الله وقال فيهم: ﴿إنا أخلصناهم بخالصة﴾، وهكذا فإن المتأمل في آيات القرآن يلاحظ هذا التوافق في الأخبار، فلا يوجد مفارقات أو تناقض.

ثم تأتي أربع آيات - بعد ذلك - تصف المشهد الذي تعرض له يوسف حينما غلقت الأبواب وأخذت تراوغه، وتدفعه لارتكاب المعصية وهو يحاول الابتعاد عنها.

يقول الله ﷻ : ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا.إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنْ الْكَاذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنْ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنْ الْخَاطِئِينَ ﴾[1].

---

(١) يوسف، الآيات: ٢٥-٢٩.

وتتوالى البراهين على براءة يوسف عليه السلام، ولنتأمل قوله (واستبقا الباب) أي تسابقا إلى الباب على حذف الجار والمجرور، وإيصال الفعل بالمفعول، وحذف (إلى) يعني تضمين الفعل (استبقا) معنى (ابتدرا) أي: إن يوسف نفر منها فأسرع نحو الباب ليخرج، والاستباق يعني أن هناك صراعاً وملاحقة، وأنه يوجد شخص سابق وآخر لاحق به، فقد أسرعت هي وراءه لتلحق به وتمنعه من الخروج أما لو ذكرت (إلى) لفهم أن كلاهما أسرع نحو الباب، مما يدل على دقة النص القرآني في وصف الحالة، والقصد تبرئة يوسف عليه السلام.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال: كيف أسرع يوسف نحو الباب وهو يعلم أنها غلقت الأبواب؟

والإجابة تقول أنه أسرع محاولاً رفع فراشة القفل؛ لأنه وجد أنها أحاطته بإغوائها من كل جانب فرأى أنه لا مفر منها إلا بالخروج من الباب.

ويأتي برهان آخر في قوله: ﴿وقدت قميصه من دبر﴾، وتبدو دقة النص القرآني في ذكر هذه الجملة، مع أن الشاهد سوف يذكرها، ولكن الله أراد أن يبرئ يوسف عليه السلام في لحظة الواقعة بقوله (من دبر) أي من الخلف، وقدت بمعنى: الشق طولاً، مما يدل على أنها كانت تتملكها الرغبة القوية لدرجة أنها تمزق قميصه طولاً، ولو أن قصاصاً يؤلف تلك القصة، لترك هذه الجملة، لما سيأتي من موقف الشاهد لتتوافر عناصر التشويق، لكن هذا نبي الله يجب أن يكون مبرءاً باستمرار، ولا تترك تبرئته رغبة في تشويق السامع وإخلاف ظنه، فإذا قيل (وقدت قميصه) فقط... لخيل للسامع أنها تصارعه للنجاة بنفسها ويظل هذا الظن السيء متعلقاً بيوسف إلى أن يحكم الشاهد.

﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾..

في (ألفيا) عدة تفسيرات:

قيل: بمعنى وصادفا بعلها عند الباب.

وقيل: ألفياه مقبلاً يريد أن يدخل.

وقيل: جالساً مع ابن عم زوجته.

وربما يسأل أحد: لماذا قيل سيدها و لم يقل سيدهما؟ والجواب كما يقول المفسرون: لأن ملك يوسف لم يصح لأنه اتخذه ولداً له، فلم يكن سيداً له على الحقيقة، أما المرأة فكانت تقول لزوجها: سيدي.

ويظل الحديث عنها بالإضمار، تجنباً لما قد يصم الاسم من عار وقبح.

وقيل: إنه لما اطلع منها زوجها على تلك الهيئة المريبة، وهي مغتاظة من يوسف إذ لم يؤاتها، جاءت بحيلة جمعت فيها بين غرضين: في قوله: ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾:

١ – حاولت أولاً تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والشك.

٢ – تخويف يوسف لشدة غضبها منه، طمعاً في أن يؤاتيها خيفة منها ومن مكرها.

والسؤال الذي طرحته زليخا فيه معنى القصر (بما وإلا)، لزيادة التوكيد أمام يوسف بمعنى: لن يكون جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم، لتؤكد أنها جادة في تهديدها له، وكأنها تخيره بين أمرين، كلاهما قهر له وامتهان لكرامته، (السجن أو العذاب)، وأمر ثالث تطلبه هو أن يؤاتيها، وعندها لن يسجن ولن يعذب.

امرأة العزيز يظهر من موقفها أنها قوية، وأنها كانت المتحكمة والمتصرفة، فلم تترك لزوجها الفرصة، للسؤال، أو الاستفسار، وقولها (من أراد بأهلك سوءاً) و لم تذكر اسم يوسف، لماذا لم تقل لزوجها يوسف أراد بي سوء ويجب عقابه؟ ذلك لأنها قصدت التعميم، بمعنى أن كل منْ أراد بأهلك سوءً، وذلك أبلغ فيما قصدته من تخويف يوسف ومنحه الفرصة لمراجعة نفسه، والرضوخ لطلبها.

﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾..

تقديم الضمير (هي) للتأكيد على أنها هي المبادرة بالمراودة، والتخصيص بتقديم ضمير الفصل، بمعنى: هي البادئة، وهي المذنبة وأنا لم أفعل شيئاً، و لم أقدم على خيانة من رباني وأكرمني.

فإنه لما أغرت امرأة العزيز فتاها وعرضته للسجن والعذاب انتقاماً منه وكرهاً لرفضه الاستجابة لها، وجب على يوسف أن يدفع الشك عنه، وكان لا بد لدفاع يوسف في تلك اللحظة من دليل يقنع العزيز أنه بريء، فجاءت شهادة الشاهد مستأنفة بالواو في قوله: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل إن الشاهد هو الحارس الجالس عند الباب مع زوجها، وقيل: كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشيره، وقيل: كان ابن خال لها في المهْد أنطقه الله، و(من أهلها) لتكون الشهادة أوجب للحجة عليها، وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة عنه، كما أنه قال: (وشهد شاهد) فتكرر معنى الشهادة و لم يقل (وشهد رجل) أي رجل توفرت فيه كل مؤهلات الشهادة، ولأنه من أهلها فلن يقصدها بالسوء إن كانت بريئة.

وتسمية (الشاهد) تحتاج إلى نظر، لأن الذي احتكم في الرواية لم يكن شاهداً، فالمعروف أن الشاهد من يرى الواقعة ويشهد بما رأى، لكن هذا الشاهد لم ير شيئاً مما حدث فعلام يشهد؟

قيل: إنه لما كان هذا الرجل الذي حكم في الأمر من المشهود لهم بالرأي الصائب، والموثوق لدى العزيز، اعتبر كلامه بمثابة الشهادة، ولأنه أدى مؤدى الشهادة، في أن تثبت به قول يوسف وبطلان قولها، لذلك سمي شاهداً.

وقوله: ﴿إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ جملة شرط، وتعد قول من قول أو على إرادة القول بمعنى (وشهد شاهد فقال)، وحذف الفعل لدلالة السياق.

والسؤال: إن كان قميصه قُدَّ من قبل، كيف يكون دلالة على أنها صادقة؟

قيل: إنه إذا كان تابعها وهي دافعته عن نفسها قدت قميصه من قبل بالدفع، أما إن كان قد من دبر، فدليل على أنها هي التي كانت تتبعه وهو يدفعها عن نفسه فتعلقت بقميصه فجذبته وقدته.

ومن الواضح أن هاتين الجملتين قالهما الشاهد قبل رؤية القميص، بدليل قوله بعد ذلك ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ وفي ذلك تأكيد نزاهة الشاهد وعدالة حكمه، وقد يعود الضمير في (فلما رأى) على قطفير ويكون قد توصل إلى براءة يوسف وصدقه، وعرف أنها كاذبة، ورؤية العين داحضة لأي اتهام، ولأن قصتها ملفقة وكذبها لا مرد له، فليس هناك بعد رؤية العين لذلك لم يقل (فلما وجده) ويكون قوله (إن كان قميصه) بمعنى إن رأى قميصه، وقوله

(فصدقت) (فكذبت) ليعلم صدقها وكذبها، وتكون الجملتان (وهو من الكاذبين) (وهو من الصادقين) مؤكدتان، على كذب أو صدق يوسف، وفي الكلام تفصيل وتوضيح وإطناب لأن شهادة الشاهد لا بد أن تكون مبنية على دليل قوي واضح لا لبس فيه فتكررت جملة (إن كان قميصه)، وذكر الاسم على الإظهار في الجملتين و لم يضمر، لأن التصريح به أوضح، وليدل على استقلال الجملة الأولى عن الثانية في الحكم، وإظهار نزاهة الشاهد، ورغبته في استيضاح الأمر دون أدنى لبس، لذلك فصل القول في الجملتين، وأطنب، لأنه أمام اتهام خطير ويحتاج دليلاً قوياً وقُدم الحكم بصدقها، لأن الشاهد سواء كان من أهلها أو من غيرهم، فإن الرغبة في إظهار براءتها أمام زوجها أولى، ولما كان النص القرآني قد راعى إظهار براءة يوسف قبل الشهادة، في قوله (وقدت قميصه من دبر) كان قول الشاهد عن كذبها، تحصيل حاصل، وزيادة تأكيد، وقطع كل شك في أن يكون يوسف هو الكاذب، ليقول زوجها قولته: التي صارت كالمثل يتردد على ألسنة الرجال، فقال: ﴿إنه من كيدكن﴾ وقد يكون القول للشاهد، والضمير في (إنه) يعود على قولها ﴿ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً﴾، أو أن يكون الضمير عائداً على الأمر الذي هو طمعها في يوسف، أي إن طمعك في يوسف من كيدكن، يوجه الخطاب لها ولأمتها من معشر النساء الذين على جنسها ويفعلن أفعالها، أو يوجهه لمن تخالطهن من النساء.

ويكرر المعنى في قوله ﴿إن كيدكن عظيم﴾، والخطاب للنساء عامة، ويريد مطلق الكيد، أي إن كل كيدكن عظيم، قيل الكيد وإن كان في الرجال كما في النساء، إلا أنه معروف أن النساء ألطف كيداً وأنفذ حيلة، وأقدر فعلاً، ولهن في ذلك أساليب يعجز عنها الرجال.. لذلك يغلبن الرجال، إن تسابقاً في الكيد.

ولكن لا يعني ذلك اتهام كل امرأة بالكيد والحيلة، وإنما تتصف به كل من لديها استعداد لذلك، بدليل قوله (كيدكن) و لم يقل (كيدهن)، ليكون الخطاب موجه إلى امرأة العزيز ورفقتها، وربما جاء على معنى التغليب، والكيد العظيم الذي لا حدود له، وفيه مبالغة في الأثر الناجم عن الكيد.

ثم يتحول الخطاب، فيوجه الكلام ليوسف في التفاتة مهمة في قوله: ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ فالخطاب إما للزوج أو الشاهد، والنداء محذوف الأداة، ليس لقربه فقط، وإنما لما فيه من معنى التحذير، كما أن فيه دلالة على قرب يوسف من نفس العزيز وتلطيف لمحله، ومعنى ذلك أن يوسف لم يُعفَ تماماً من هذه التهمة رغم إثبات براءته، أو ربما جاء بمعنى: نحذرك مما كنت على وشك الوقوع فيه، بمعنى إذا كنت كشفت هذا الأمر بينكما، فابتعد ولا تحاول الوقوع فيه مرة أخرى، لأنك إذا وضعت نفسك في هذا المأزق مرةً أخرى فسوف يعني ذلك أنك تقصد إلى ذلك وترتاح لفعل هذا، حتى وإن ثبتت براءتك، والأفضل أن تبتعد عما يلتبس ويشتبه فيه.

وقد يكون التحذير بمعنى: لا تقف في طريق غوايتهن فتقع في المحرم، أو أعرض عن هذا الأمر واكتمه ولا تحدث به، وهذا المعنى بعيد.

ولنتأمل الالتفات التالي حين يتوجه العزيز لمخاطبة زوجته في قوله: ﴿واسغفري لذنبك﴾ وفي الكلام إيجاز بالحذف بمعنى: أما أنت بعد أن ثبت كذبك وأنك مذنبة، يجب عليك أن تستغفري لذنبك، ولأن كل ذلك مفهوم من السياق حذف، وهناك فائدة بلاغية أخرى: أن يستأنف أمر الاستغفار مباشرة بعد أمر يوسف بالإعراض، للدلالة على أنها المذنبة، ويجب عليها الاستغفار إما من زوجها إذا كان القائل الشاهد، وإما من الله إذا كان القائل هو الزوج ومعروف أنهم كانوا يعبدون من دون الله.

و لم يكتفِ الخطاب بإثبات الذنب عليها، بل جاءت جملة ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾ مستأنفة، زيادة تأكيد على أنها كانت كثيرة الخطأ فيما تقدم، وجاء (الخاطئين) بالتذكير للتغليب، وذلك أيضاً من سمات أسلوب القرآن ومثله ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ ﴾[1] وقوله: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ ﴾[2]، وتكرار الضمير مع إن فيه معنى القسم.

ويلاحظ مدى سماحة زوجها الذي اكتفى بأن يطلب منها الاستغفار، قيل لأنه كان شديد الطيبة، وقيل لأنه كان شديد الضعف أمام زوجته، لقوة شخصيتها ولأنها كانت جميلة جداً، فكانت إرادته تضعف أمامها وخاصة وأنه قيل عنه أنه كان عاقراً لا ينجب، فترك لها القيادة والتصرف، وقد تكون كل هذه الأمور مجتمعة، لأنه أظهر عطفه على يوسف بمجرد أن رآه وذلك يدل على قلب طيب، ولكن لا يمكن أن ينسب موقفه لضعف شخصيته: إذا كان عزيز مصر فمن الواضح أنه كانت له شخصية قيادية قوية، يقود شعباً، وينظم شؤون بلاده.

وقيل إن خطاب العزيز لزوجته فيه لين ولطف، وأن ذلك لا يكون في هذه الأحوال والمواقف، فأي رجل تثبت إدانة زوجته بمثل هذه التهمة، لا يتصرف هكذا، وإنما يكون رد فعله أعنف وأقوى، وربما يصل إلى حد القتل، لذلك قيل إن العزيز كان رجلاً حليماً كريماً صبوراً على الأذى، وقيل إنه كان قليل الغيرة، وربما يعزى موقفه هذا لمكانته الرفيعة، لم يرد الانتقام لأن ذلك سيجعل الخبر ينتشر في كل البلاد مما يسيء إليه، لذلك فضل أن يكظم غيظه، ويكتم الأمر.

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٢.

(٢) نفس السورة، آية: ٣١.

ومع ذلك إذا بالخبر ينتشر، رغم محاولة العزيز كتمه، فقيل إنه ربما سمع بعض من في القصر الحوار فنشره بين الناس، أو أن يكون الشاهد نفسه قد أعلنه، أو تكون زليخا هي التي أرادت أن تفاخر بين النساء برغبتها في يوسف ولا يمنع ذلك، بدليل تصريحها بأنها هي التي راودته في قوله: (أنا راودته عن نفسه) لذلك تنتقل القصة انتقالة جديدة ليكون مسرحها المدينة، والحديث بين النسوة.

﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ (١).

والواو للاستئناف، والنسوة: اسم مفرد لجمع، المرأة، وتأنيثه غير حقيقي، لذلك لم يلحق فعله بتاء التأنيث، قيل إن النسوة جماعة من النساء لم يتفق على عددهن، ولكن رجح أنهن كن خمسة: امرأة الساقي، والخباز، وصاحب الدولاب، وصاحب السجن، والحاجب.

وقوله: (في المدينة) تحديد واحتراز من أن يكون في القصر، وكونهم في المدينة يعني انتشار الخبر فيما بينهم، أو أنهن قمن بنشره بين الناس.

أما قوله إن: (امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه) وفي ذلك اتهام صريح لها، مما يدل على أن قصة المراودة وشهادة الشاهد قد انتشرت، وعرف الجميع أنها مذنبة، وربما لاحظ النسوة رغبتها فيه، وقولهن فتاها يعني غلامها، والغلام يعني العبد المملوك لها.

والأصح أن الخبر قد انتشر بين الناس، لأنه كيف يلاحظن رغبتها فيه وهن أصلاً لم يرينه، والبين أنهن يعلمن بالقصة.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣٠.

وقوله: (قد شغفها حباً)، وفيه مجاز، لأن الشغف، من شغاف القلب وهو حجابه، أي: خرق حبه شغاف القلب، و(قد) للتوكيد، والتنبيه وقرئ (شعفها حباً) بالعين والشعف، إحراق البعير بالقطران، فأطلق الشعف وأريد مطلق الإحراق، ثم أريد الإحراق بالعشق مجازاً، بمعنى تشبيه حبها الذي ملك قلبها بهيئة استلذاذ الإبل لذلك الطلي بعد دهنها.

والمفعول لأجله (حباً) لتوضيح سبب الشغف، أي أنها مالت إليه حباً، والشغف ابلغ في التعبير عن الميل من الشعف، لأن القلب مكمن الميل والحب، والشغف فيه معنى دوام التفكير، وأن حبه سيطر على عقلها وقلبها.

وقوله: (إنا لنراها في ضلال مبين) يناظر قول العزيز (إنك كنت من الخاطئين) وجملة (إنا لنراها) تأكيد (بإن واللام) والفعل مضارع ليفيد الاستمرار في الحاضر، أي إنا لنراها مستمرة في ضلال واضح، والجملة خبرية من الضرب الإنكاري، تفيد معنى استمرارها على ضلالها وقول النسوة أشبه بالحكم الصادر على أفعالها وهو حكم مؤكد عليها بأنها هي المخطئة.

رأي النسوة أن (زليخا) قد بعدت عن طريق الصواب، وعشقت عبدها الكنعاني ومقتها ورفضها، وصرحوا بإضافتها إلى العزيز في قوله: (امرأة العزيز تراود فتاها) مبالغة في التشنيع؛ لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار، وما يجري لهم، وعبرن بـ(تراود) الفعل المضارع الدال على أنه صار سجية لها، وأنها ما زالت تخادعه عن نفسها، فلم يقلن (راودت فتاها)، ثم نبهن على علة ديمومة المراودة، وهي كونه (قد شغفها حباً) وانتصب (حباً) على التمييز، وأصل المعنى: شغفها حبه[1].

---

(١) راجع البحر المحيط: (٥/٣٠١).

وتسمع زليخا بمكر هؤلاء النسوة فأرادت أن تطلعهن عليه ليعذرنها فيما فعلت بسبب الافتتان بحسنه وجماله.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

والمكر في الآية بمعنى الاغتياب، أي إن هؤلاء النسوة قمن باغتيابها... والسؤال هل الاغتياب يعد مكراً؟

والإجابة: إن المكر وظف توظيفاً مجازياً بمعنى الاغتياب، لأن قولهن كان في خفية وحال غيبة، كما يخفى الماكر مكره، ولأنها تعلم مسبقاً أن كل واحدة منهن لو تعرضت لمثل ما تعرضت هي من وجود فتى في حسن وجمال وهيئة يوسف في بيتها لفعلت مثلها، وقيل إنها كانت استكتمتهن سرها فأفشينه عليها. فشبه الاغتياب بالمكر على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وفي الصورة مبالغة في معنى الاغتياب.

كذلك في تجلى مكرهن في القول بأنها تراود فتاها وأنها عشقته في حين نفر هو منها وصدها، فجاء مكرهن يشمل الاستهزاء والسخرية منها، وإظهار لخيبة أملها بفشل حيلها، كل ذلك أشعرها بالمهانة والانهزام ففكرت أن ترد لهن الكيد، وترى ماذا يفعلن عند رؤيتهن ليوسف الذي يلمنها على حبها المفرط له، كما أرادت إبداء عذرها، وأنهن أخطأن بلومها.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣١.

لم تشعر امرأة العزيز بالخجل لافتضاح أمرها، و لم يهتز كبرياؤها، فـــهي المرأة القوية القادرة وزوجها الحليم الصبور، أصبح كـــل همـــها رد مكرهـــن بوضعهن في مثل موضعها.

وقوله: ﴿أرسلت إليهن﴾ أي دعتهن، قيل: دعت أربعين امـــرأة منـــهن الخمس المذكورات من أنحاء المدينة كلها.

﴿ وأعتدت لهن متكأ﴾ أي ما يتكئن عليه من نمارق، وفسر بمعنى الطعـــام الذي أعدته لهن، من إسناد الفعل إلى موقع الطعام، على سبيل المجاز المرســـل، ويقال اتكأت عند فلان: بمعنى طعمت عنده، على سبيل الكناية، لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له متكأً أو تسمية الطعام متكأ علـــى ســـبيل الاســـتعارة التصريحية، وذكر أن الطعام كان فاكهة تحتاج إلى تقطيع بالسكين، لذلك ﴿آتت كل واحدة منهن سكيناً﴾.

وبعد أن هيأت الجلسة للنسوة وتأكدت أن في يد كل واحـــدة منـــهن سكيناً، وهن يتكئن على نمارق، إذ قصدت بتلك الهيئة، أن يدهشن عند رؤيـــة يوسف ويبهتن، ويشغلن في أنفسهن، فتقع أيديهن على أيديهن، فيقطعنـــها، لأن المتكئ بخلاف المعتدل في جلسته، فالمتكئ[1] إذا بهت لشيء وقعت يده على يـــده الأخرى، وتكون بذلك قد أعدت خطة ماكرة وهي بذلك تقصد الجمع بـــين المكر بيوسف وبالنسوة معاً .

﴿وقالت اخرج عليهن﴾..

والكلام فيه إيجاز بالحذف بمعنى: فخرج عليهن، وخروج يوسف يعـــني طواعيتها وأنه ما زال تحت إمرتها، ولكن فيما لا يعصي الله فيه.

---

(١) لذلك نهي الرسول ﷺ أن يأكل الرجل متكئاً، ذكره الطبري في حديث ابن مسـعود وفي الأوسط وفي مسند الشاميين من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وأخرجه البزار (الكشاف).

﴿فلما رأينه أكبرنه﴾..

والفاء عاطفة، و(لما) ظرف بمعنى حين، تتضمن معنى الشرط متعلق بـ(رأينه) [١]، ويعني ذلك أن يوسف لم تره النسوة من قبل وذلك يدل على أنه لم يكن يخرج من بيت العزيز، فإن رؤية النسوة له ولأول مرة كانت مفاجأة أذهلتهن و(أكبرنه) أي: أعظمنه، ودهشن برؤية ذلك الجمال الفائق الرائع. وذكر المفسرون أنه قيل: عن فضل يوسف على الناس في الحسن كان كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء، وفيه حديث الرسول ﷺ (لما أخبر بلقيا يوسف قيل: يا رسول الله، كيف رأيته؟ قال: كالقمر ليلة البدر)، وقيل: إذا سار في أزقة مصر يرى تلؤلؤ وجهه على الجدران، كما يرى نور الشمس، وقيل: كان يشبه آدم يوم خلقه ربه، وقيل: ورث الجمال عن جدته سارة، وقد كثرت الروايات في حسنه[٢]، وأكبرنه أبلغ لما يتضمنه من معنى الإعظام مع الدهشة والذهول .

يقول الفخر الرازي: "إنه يحتمل وجهاً آخر وهو أنهن إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة، وسيما الرسالة، وآثار الخضوع والاحتشام، وشاهدن منه مهابة النبوة، وهيئة الملكية، وهي عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح، وعدم الاعتداد بهن، وكان الجمال العظيم مقروناً بتلك الهيبة والهيئة، فتعجبن من تلك الحالة، فلا جرم أكبرنه وعظمنه، ووقع الرعب والمهابة في قلوبهن"[٣]. والواقع أن حمل الآية على هذا الوجه أولى.

---

(١) راجع إعراب الشواهد القرآنية في شرح ابن عقيل، إعداد محمد يوسف أيوب، م/ الفيصلية، ط١ مكة المكرمة، ١٩٩٥م.

(٢) ذكرت أوصاف حسنه في جميع التفاسير مثال ذلك الكشاف للزمخشري (٤٦٥) البحر المحيط (٣٠٢/٥) والتفسير للكبير للفخر الرازي (١٧-١٨).

(٣) التفسير الكبير [illegible]

ويستطرد الرازي قائلاً: "فإن قيل: فإذا الأمر كذلك فكيف ينطبق على هذا التأويل قولها ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ كيف تصير هذه الحالة عذراً لها في قوة العشق وإفراط المحبة؟ قلنا: قد تقرر أن الممنوع متبوع، فكأنها قالت لهن مع هذا الخلق العجيب وهذه السيرة الملكية الطاهرة المطهرة فحسنه يوجب الحب الشديد وسيرته الملكية توجب اليأس عن الوصول إليه فلهذا السبب وقعت في المحبة، والحسرة، والأرق والقلق، وهذا الوجه في تأويل الآية أحسن والله أعلم"[١].

رأى النسوة يوسف فأعظمنه ﴿وقطعن أيديهن﴾ أي جرحن أيديهن دون أن يشعرن لما وجدنه من هيبة أمام حسنه وجماله الفائق، وما كان أحد يستطيع وصفه والتضعيف (قطعن) للتكثير، إما بالنسبة لعددهن وهن كثر أو بالنسبة لكثرة الحزوز والجروح في يد كل واحدة منهن لما ذهلت بما راعها من جمال يوسف، فكأنها غابت عن حسها.

ولما غلب عليهن ما رأين من جمال يوسف وحسنه ﴿قلن حاش[٢] لله﴾ وحاشا بإثبات الألف بعد الشين بمعنى (التنزيه) لأنها المحاشاة وهي التنحية والتبعيد، وتعددت القراءات لحاشا، على كونها حرف جر، أو اسم، أو مضاف، أو مصدر، والمعنى تنزيه الله من صفات العجز والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله.

---

(١) المرجع السابق (١٧-١٨/١٢٨).

(٢) حاش: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف المحذوف للتخفيف، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هو) أي: يوسف، أو اسم للتتريه في محل نصب مفعول مطلق. لله: جار ومجرور متعلقان بحال محذوف من فاعل (حاش). راجع إعراب الشواهد القرآنية: ٦٧.

ثم قلن ﴿ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم﴾..

عملت (ما) عمل (ليس)، إذ نفين البشرية عن يوسف عليه السلام وأصبغن عليه صفات الملائكة وقد جاءت جملة (إن هذا إلا ملك كريم) مفصولة لأنها توكيد معنوى للجملة الأولى (ما هذا بشر) لأن الشيء لا يعطف على نفسه فإن بين الجملتين كمال اتصال[1] .

ويذكر الرازي فيها وجهان:

الوجه الأول: وهو المشهور أن المقصود منه إثبات الحسن العظيم له، قالوا لأنه تعالى ركز في الطباع أن لا حي أحسن من الملك، كما ركز فيها أن لا حي أقبح من الشيطان، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم ﴿طلعها كأنه رؤوس الشياطين﴾، فلما أرادت النسوة المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن، لا جرم شبهنه بالملك.

الوجه الثاني: يقول: وهو الأقرب عندي أن المشهور عند الجمهور أن الملائكة مطهرون عن بواعث الشهوة، وجواذب الغضب، ونوازع الوهم والخيال، فطعامهم توحيد الله تعالى، وشرابهم الثناء على الله تعالى، ثم إن النسوة لما رأين يوسف عليه السلام لم يلتفت إليهن البتة، ورأين عليه هيبة النبوة وهيبة الرسالة، وسيما الطهارة، قلن إنا ما رأينا فيه أثراً من أثر الشهوة، ولا شيئاً من البشرية، ولا صفة من الإنسانية، فهذا قد تطهر عن جميع الصفات المغروسة في البشر، وقد ترقى عن حد الإنسانية، ودخل في الملائكة"[2].

---

(١) راجع جواهر البلاغة ١٨٥ .

(٢) التفسير الكبير، (١٧-١٨/١٢٨).

وقول الرازي لا يعني أنه أصبح ملكاً وإنما يعني أنه بصفاته هذه: كونه بعيداً عن الشهوة والغضب، معرضاً عن اللذات الجسمانية، متوجهاً إلى عبودية الله تعالى، مستغرق القلب، والروح، فهو أمر مشترك فيه بين الإنسان الكامل وبين الملائكة.

إذاً تشبيه يوسف بالملك في هذه الآية، فيما ثبت من صفات الملائكة وفيما بدا من مظاهر الهيبة، وذلك يعني أن نفي البشرية عنه نفي مجازي لا حقيقي، دعاهم إلى هذا القول شدة الإعجاب والشعور بالهيبة عندما رأينه.

وثمة خلاف كبير[1] بين العلماء حول اعتبار تشبيه يوسف بالملك من قبيل تشبيه المحسوس بالمعقول، أم المحسوس بالمحسوس، ودار جدال طويل حول هذه المسألة، منهم من أنكر وجود المحسوس بالمعقول في القرآن، محتجاً بأن القرآن جاء على الأصل، وهو أن الحسي أصل للعقلي، فلا يجوز تشبيه حسي بعقلي، وهناك من أثبت وجود مثل هذا التشبيه في القرآن لأن الملائكة لهم صور معروفة مركوزة في أذهان الناس تتمثل فيها كل صفات الكمال المطلق.

فيجوز أن يكون التشبيه من قبيل المحسوس بالمعقول، "لأنه ليس من مطالب الصورة التشبيهية أن توفر إقناعاً عقلياً بقدر ما تثير انفعالات نفسية تتجاوز حدود العقل البسيط"[2].

وجملة القصر ﴿إن هذا إلا ملك﴾[3]، من قصر يوسف على الملكية قصراً إضافياً، وعملت "إن" عمل "ليس"، وفائدته المبالغة والتوكيد على أنه، وإن كان

---

(١) راجع مناقشة هذا الخلاف في (البيان في ضوء أساليب القرآن د. عبد الفتاح الراشد ٤٥-٥٣ دار الفكر العربي، ١٩٩٨م) .

(٢) المرجع السابق: ٥٢.

(٣) راجع دلائل الإعجاز (عن أن "إن" بمعنى النفي، وتفيد التأكيد – ورأيه في التشبيه في الآية المذكورة. ١٥٦-١٥٧. وإعراب شواهد القرآن: ٦٦-٦٧.

بشرياً فهو يختلف عنهم، بما حباه الله من صفات الجمال والحسن والطهر والهيبة.

وقوله: ﴿ملك كريم﴾ لأنه أجمع للخير من الملائكة.

ورأت زليخا أنه بعد أن قطع النسوة أيديهن أنهن أحق باللوم، وبذلك تكون قد ردت عليهن مكرهن.

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [1].

وفعل القول هنا جملة مستأنفة، وكأنها ترد على دهشتهن وكأن سؤالاً يدور في أذهانهن فترد عليهن (فذلكن) اسم إشارة للبعيد مع أنه كان حاضراً، ويرى الرازي أن أحسن ما قيل في سبب الإشارة إليه بالبعيد ما قاله الزمخشري: "إن النسوة كن يقلن إنها عشقت عبدها الكنعاني، فلما رأينه ووقعن في تلك الدهشة قالت: هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتنني فيه يعني: أنكن لم تتصورنه حق تصوره ولو حصلت في خيالكن صورته لتركتن هذه الملامة"[2].

وقد يراد بـ(فذلكن) الإشارة إلى القريب بلفظ البعيد رفعاً لمنزلته في الحسن، واستحقاقه أن يحب ويفتتن به.

وزليخا تقدم عذرها للنسوة، بأنهن أكبرنه بمجرد النظرة الواحدة فما بالهن بمن تراه أمامها كل يوم، لذلك لم تخش أن تصرح عن محبتها له، وكشفت عن

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣٢.

(٢) راجع التفسير الكبير (١٧-١٨/١٣٠) والكشاف ٤٦٧.

حقيقة كانت تنكرها فقالت: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ والاعتراف سيد الأدلة، فاعترافها بالمراودة ثم اعترافها بأنه (استعصم) أوقع دليل على عصمة يوسف من الانزلاق في الذنب، والاستعصام: بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها. وهو برهان لا شيء أنور منه.

﴿ولئن[1] لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين﴾ واللام في (لئن) موطئة للقسم مبنية على الفتح لا محل لها من الإعراب، وإن حرف شرط جازم مبني على السكون لا محل له من الإعراب، وفي صيغة (لئن لم يفعل) جملة لا محل لها استئنافية، فيها لغة تهديد ووعيد، وكأنها أقسمت لئن لم يفعل سوف يكون له السجن أو الصغار، والضمير في (آمره) صلة الموصول (ما) أي: ما آمره به، فحذف الجار والمجرور لدلالة السياق، وإن جعلت (ما) مصدرية جاز، فيعود الضمير على يوسف، أي: أمري إياه وقوله: (ليسجنن) بمعنى لسوف يسجنن، أو أنها صيغة أمر بالمضارع المتصل بلام الأمر، وهي جملة لا محل لها جواب القسم، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم، وق... (وليكوناً) معطوفة على جملة جواب القسم قلبت النون ألفاً (ليكونن) حكم الوقف ذلك لا يكون إلا في النون الخفيفة، والمد بالألف يناسب لغة التهديد والوعيد التي استعملتها لإرهابه، بمعنى: يا يوسف إن لم توافقني على ما أريد يكون مكانك السجن أو تقع في الصغار، ومعلوم أن التوعد بالص... له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس، مثل يوسف، فهي قررت أن... من الصاغرين الأذلاء، ولم تذكر العذاب الأليم الذي سبق وذكرته في قوله: ﴿ما

---

(١) راجع إعراب الشواهد القرآنية: ٢٧٦.

جزاء من أراد بأهلك سوءً﴾ لأنها إذ ذاك كانت في شدة غيظها، فناسب ذلك التغليظ في العقوبة، وكانت متنصلة من أنها هي التي راودته، أما هنا فقد صرحت بالمراودة وطلبت منه أن يطيعها لذا تريد إيذاءه طمعاً في أن يستجيب لأمرها.

﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[١].

وقوله رد على تهديد زليخا، وتوعدها له، وإرغامه على طاعتها، فإذا برده دليل آخر على عفته ونزاهته، إنه يفضل السجن على تنفيذ ما تأمره به، وهنا سؤال هام.. لماذا قال: (السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه) و لم يقل: (مما تدعوني إليه)..؟

يرى الرازي " أنه عندما سمعت سائر النساء تهديد امرأة العزيز ليوسف عليه السلام فالظاهر أنهن اجتمعن على يوسف وقلن لا مصلحة لك في مخالفة أمرها[٢]، فتم إسناد الدعوة إليهن جميعاً – والمعروف أنها هي التي كانت تدعوه – لأنهن قمن ينصحنه بمطاوعتها، ويخوفنه من مغبة مخالفتها، فما كان أمام يوسف عليه السلام إلا اللجوء إلى ربه، فقال في التفاتة مناجاة﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ أو ربما كان المراد من كلامه التعميم أي السجن أحب إليّ مما تدعونني إليه النساء أي: جنس النساء، إذاً هو يفضل السجن عن المعصية، رغم

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٣٣-٣٤.
(٢) التفسير الكبير (١٣١/١٨/١٧).

ما في السجن من احتمال المشقة، وما في مطاوعتها من التمتع واللذة، ولكنها لذة مكروهة، فإن نتيجتها الذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، والسجن (أحب) بأسلوب التفضيل، ولكن ليس تفضيلاً على الحقيقة فإن مشقة السجن غير محببة على الإطلاق، كما أن (أحب) ليست على بابها من التفضيل؛ لأنه لم يحب ما يدعونه إليه، وإنما هذان شران فآثر أحد الشرين على الآخر.

ويكون في السجن قد عصم نفسه من الذنب، أما ما يدعونه إليه فهذا ما لا تقبله نفسه الطاهرة العفيفة.

أراد يوسف إرضاء ربه، فطلب الاحتماء به والعون منه أن يصرف عنه كيدهن، لم يتردد و لم يراجع نفسه، و لم يتوسل إليها لأنه يعلم مدى إصرارها وأنها لن تعفو عنه إلا إذا أطاعها لذلك يقول: ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ جملة شرط بـ(إن) الشرطية ولا النافية بمعنى إن لم تصرف كيدهن ومغرياتهن أمل إليهن، و(أصب) كلمة مشعرة بالميل فقط لا بمباشرة المعصية فهل هو يشترط على ربه؟ إما أن يصرف عنه كيدهن أو يصب إليهن؟

وهل يعني ذلك أن يوسف غير قادر على صرفهن؟

والإجابة: الشرط هنا غير حقيقي، وإنما هو يخاف ضعفالنفس، فيطلب عوناً من الله، فجاءت الجملة متضمنة معنى الدعاء، أن يصرف عنه كيدهن خشية أن يستملنه ويقع في المعصية، وقوله: ﴿ وَأَكُنْ مِنْ الْجَاهِلِينَ ﴾ أي من الذين لا يعملون بما يعلمون، لأن من لا جدوى لعلمه كمن لا علم له، أو بمعنى أكن من السفهاء، لأن الوقوع في موافقة النساء وارتكاب الذنب من السفاهة وهو النبي الذي علمه ربه وأدبه، وكعادة الأنبياء الصالحين من تنزيه أنفسهم وتجنب المعصية، فزع يوسف ﷺ إلى ربه يعتصم به، ليعينه على غوايتهن له،

وكانت دعوته مستجابة عند ربه إذ قال له: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ والفاء استئنافية، وفيها معنى التعقيب أي أن الله أعقب ما قاله يوسف وفيه معنى الدعاء بالاستجابة، والفاء الثانية للربط بمعنى فاستجاب له ربه وصرف عنه كيدهن، أي حال بينه وبين المعصية، وأعانه على ردهن وصدهن.

ومن هذه الآية يتعلم المؤمن أن الله قريب من عباده يستجيب لدعاء الداعِ ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ لدعاء الملتجئين إليه (العليم) بأحوالهم وما يصلحهم إن كان الدعاء صادقاً والنية خالصة لوجه الله.

يوسف في السجن

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (٣٥) وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

(ثم بدا لهم) يدل الكلام على أن الحكم على يوسف تعلق إلى أن وجدت امرأة العزيز أنه لن يستجيب لها، و(ثم)[1] هنا عاطفة للترتيب مع التراخي، والحاصل أنه بعد فترة من الزمن أمهلت فيها امرأة العزيز يوسف ليخضع لأمرها، ولكن دون جدوى، رأت أن تحيل أمر سجنه على زوجها واستعملت الحيلة والخديعة مرة أخرى، لحفزه على تنفيذ ما توعدت به يوسف وقوله (بدا لهم) الضمير يعود على العزيز وأهله ممن ناقشوا معه مسألة يوسف، وفاعل (بدا) مضمر، لدلالة ما يفسره عليه وهو (ليسجننه)، والمعنى: بدا لهم بداء، أي ظهر لهم رأي: ليسجننه.

وقوله: (من بعد ما رأوا الآيات) أي من بعد ما رأوا الدلائل على براءته في (قد قميصه من دبر)، إذاً (بدا) من البداء، وهو تغير الرأي عما كان عليه في الأول، رغم ظهور الكثير من الدلائل على براءة يوسف عليه السلام وإدانة زليخا، بقوله: (إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم)..

ولأن العزيز كان مطواعاً لها وحليماً رحيماً بها، وزمامه في يدها، لقوة شخصيتها وقدرتها على السيطرة والعمل بالحيلة، نسي ما رأى من شواهد إدانتها، وعمل برأيها فأمر بسجنه.

---

(١) راجع المعجم الوسيط في الإعراب، حرف (الثاء).

(حتى حين) واختلف المفسرون في تحديد الفترة الزمانية، بمعنى ليسجننه إلى زمان، والحين وقت من الزمان غير معلوم، وإنما القدر المعلوم أنه بقي في السجن مدة طويلة لقوله ﷻ: (وادكر بعد أمة)، وكان من الممكن أن يُنسى ويظل محبوساً..

كان العزيز يقصد بحبسه أن يغلق هذه القضية وأن ينساها الناس وينسوا ما فعلته زوجته وحتى يسقط عن ألسنة الناس ذكر تلك الفضيحة التي انتشرت وصارت حديث المدينة.

يتضح مما سبق أن العزيز لم يسرع بالتصرف مع زوجته لما تملكه من قدرة على المخادعة والكيد، ولما تحلت به من قوة شخصية، وأنه هو وقومه سكتوا عن كل الأدلة التي تبرئ يوسف وقرروا وضعه في السجن سعياً في إخفاء الفضيحة، بمعنى أنه إذا لم يقدر على زوجته، فإنه قادر على يوسف بإيعاز منها، تنفيذاً لتهديدها له وعقاباً له على أنه لم يمتثل لأمرها..

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ﴾، والجملة مستأنفة فيها إيجاز بالحذف بمعنى: لما قاموا بحبسه كان هناك فتيان دخلا معه السجن، وبراعة الأسلوب القرآني تبدو - هكذا - من كيفية حذف الجمل التي يمكن أن تفهم من معنى السياق، ولولا ذلك لاحتاجت القصة إلى مجلد خاص، فهي بمفهوم القصة الحديث، تعد رواية لأنها تحكي فترة زمنية طويلة، وتمر بأحداث كثيرة، كما تتعدد فيها الشخصيات بما تطرحه من قضايا جانبية، وأسلوب الإيجاز بالحذف أو القصر لا يتمكن من توظيفه إلا صاحب الفكر العالي والذوق الفني الرفيع، والذي أوتي القدرة على تنسيق الأحداث وترتيب المعاني، فكيف يكون الحال إذا صدر القصص من لدن حكيم عليم، كيف يكون الحال إذا كان من كلام الله ﷻ فإن

الأسلوب القرآني المعجز تجلى في هذه الظاهرة - ظاهرة الإيجاز - لأنه نزل بلسان عربي مبين واللسان العربي تميز بولعه بالإيجاز، ويرى ابن رشيق أن الإيجاز من البلاغة "لأن نفس السامع تتسع في الظن والحساب، وكل معلوم فهو هين لكونه محصوراً"[١]..

وهذا ما جعل سورة يوسف يكثر فيها التأويل، وتثير في المتلقي الرغبة في التفكير والتأمل واستنباط ما طوي بين الأسطر..

أما الفتيان، فقيل أنهما كانا للملك الأكبر بمصر، أحدهما صاحب طعامه، والآخر صاحب شرابه، و(مع)[٢] تدل على معنى الصحبة واستحداثها، وأنه دخل السجن مصاحباً لهما في ساعة دخولهما وتهمة الغلامان على الرواية: أنهما أرادا أن يسما الملك، فأمر بحبسهما.

ثم يخاطب كل من الغلامين يوسف بجمل مستأنفة قبلها محذوف، يدل المحذوف على أنه جرت أحاديث كثيرة بينهما وبين يوسف، وأنه تقرب من جميع من في السجن واستمالهم بحسن حديثه، وفضله ونبله، فأحبوه وأحبه صاحب السجن، وعلما أنه قادر على تفسير الأحلام، عندما رأياه يؤول لبعض أهل السجن رؤاهم، فقاما بقص ما رأياه..

---

(١) كتاب العمدة، (١/٢٢١-٢٢٢).

(٢) مع: لفظة تفيد المصاحبة واجتماع شيئين، وتكون مفتوحة العين وساكنتها، وهي اسم على الترجيح واستعمالاتها: - مضافة فتكون ظرفاً ثنائي اللفظ وتدل على موضع الاجتماع مثال "الطفل مع أمه" وزمان "جئتك مع الغروب". - غير مضافة فتصير اسماً مقصوراً منصوباً منوناً نحو "جاء الصديقان معاً"، المعجم الوسيط حرف الميم..

قال الأول: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً ﴾[١]، أي عنباً وهي جملة مقول القول على سبيل المجاز من إسناد الفعل (أعصر)[٢] لما يؤول إليه العنب بعد العصر (الخمر) مجازاً مرسلاً. وقيل إنه كان يعصر العنب ويسقي الملك.

أما الثاني فرأى في المنام أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ وقول الغلامين: (إني أراني) فيه ضمير الفاعل المستكن، وقد تعد الفعل إلى الضمير المتصل (الياء).

وقيل إن الخمر، بلغة (غسان، وأزد عمان) يراد بها العنب، لذلك يرى الزمخشري أن الكلام على الحقيقة[٣].

كذلك (الخبز) والمراد (الحب) لأن الطير يأكل الحب، فذكر ما يؤول إليه الحب على سبيل المجاز المرسل..

وقوله: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾.. والضمير في (تأويله) أجري مجرى اسم الإشارة، كأن قيل: بتأويل ذلك. أي نبئنا بتأويل ذلك الذي رأيناه .

وقوله: (من المحسنين) أي من المحسنين في العلم؛ لأنهما رأيا أنه من الذين يحسنون التعبير، أي يؤولها، أو يكون المراد: إنه من المحسنين إلى أهل السجن..

---

(١) إني: إن: حرف مشبه بالفعل والياء ضمير متصل في محل نصب اسمها، والنون في (أراني) للوقاية. راجع إعراب الشواهد القرآنية (١٣٠).

(٢) راجع الإيضاح ٢٥١ ، والمجاز المرسل هو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وضع له ملابسة غير المشابهة.

(٣) الكشاف (٤٦٨).

﴿ قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾.

واضح أن الكلام فيه إيجاز بالحذف، وكأنه قال: قبل أن أفتيكما أريد أن أخبركما بما علمني ربي ثم قال، والآيتان ليستا رداً على السؤال..

وهنا لا بد من سؤال وهو: لماذا لم يبدأ يوسف بالإجابة على طلب صاحبي السجن بتأويل رؤياهما؟

والإجابة: ربما لأنه عندما طلب السجينان من يوسف تأويل رؤياهما؛ لأنهما علما عنه القدرة على ذلك ووصفاه بالمحسن وجد يوسف المناخ صالحاً لكي يعرض عليهما الإيمان بالله، ولكي يزيد من الإثباتات التي تؤكد أنه عالم بما علمه ربه، أخذ ينبئهما بما يحمل إليهما كل يوم من طعام، فإذا بالطعام كما وصفه لهما، فتأكد لهما أنه يختلف عن سائر البشر، وأنه يعرف ما لا يعرفونه وهذا التفسير أولى، وحاصلة أنه ادعى الإخبار عن الغيب، وهو يجري مجرى عيسى عليه السلام (وأنبئكم بما تأكلون) لذلك بدأ يوسف عليه السلام مثل هذه البداية قبل أن يجيبهما، لأنه وجدها فرصة لعرض الإيمان عليهما، وتقديم الهداية والإرشاد، والموعظة والنصيحة أولاً، ويدعوهما إلى ما هو أولى وأوجب، ثم يفتيهما بعد ذلك، وفي ذلك تقرير كونه نبياً صادقاً من عند الله تعالى.

وفي (لا يأتيكما من طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله).. و(تأويله) أي ببيان ماهيته وكيفيته، والأسلوب أسلوب قصر من قصر موصوف على صفة، قصر كل طعام يأتيكما على كونه يتنبأ به قبل أن يأتيهما، والقصر من الأساليب

القوية في إفادة التوكيد وخاصة طريقة النفي والاستثناء بـ(لا وإلا) الذي يوظف في الأمور المجهولة التي تحتاج إلى تأكيد لتقوية الحكم.

وقوله: (قبل أن يأتيكما) إثبات للمعجزة التي منّ الله بها على يوسف عليه السلام يعني أنه ينبيء بنوع الطعام وموعده: أي أن يقول لهما الآن أو بعد قليل سوف يأتيكما طعام نوعه كذا وكذا.. وقد اجتهد المفسرون في تفسير هذه الآية وفصلوا القول في أمور كثيرة، والأولى أنه ينبيء بوصف الطعام، إضافة إلى تقرير كونه فائقاً في علم التعبير، ومن ذلك كله يتقرر كونه نبياً مختاراً من الله تعالى..

لذلك يقول: (ذلكما مما علمني ربي) و(ذلكما) اسم إشارة لهما إلى التأويل أي أن ذلك العلم ليس من عنده ولا اجتهاد شخصي منه وإنما هو مما علمه ربه، أي ليس ما يخبرهما به على وجه الكهانة والنجوم، وإنما يخبرهما بوحي من الله وعلم حصل بتعليم الله عز وجل.

وقوله : ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (إني تركت) يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، جملة خبرية من الضرب الطلبي، أو أن يكون تعليلاً لما قبله، أي علمني ذلك وأوحى إليّ لأني رفضت ملّة أولئك واتبعت ملة الأنبياء المذكورين وهي الملة الحنيفية..

ويرى الزمخشري[١] "أن القوم هم أهل مصر ومن تبعهم، وتكريرهم بذكر الضمير (هم) (هم بالآخرة هم كافرون) فالضمير الثاني، ضمير فصل للتخصيص، وتوكيد أنهم خصوصاً لا يومنون بالآخرة، وأن غيرهم كانوا يومنون بها، إذ كانوا على ملة إبراهيم عليه السلام".

---

(١) راجع الكشاف (٤٧٠).

والرد على ذلك هو: أن أهل مصر عرف عنهم أنهم كانوا يؤمنون بالبعث والآخرة إيماناً قوياً سواء منهم من اتبع ملة إبراهيم حنيفاً، وكان يـ ـها، ومنهم من آمن بالبعث والاعتقاد بوجود آلهة تقربهم من الله الواحد بدليل اهتمامهم بموتاهم وتحنيطهم اعتقاداً منهم أنهم سيبعثون، كما أنهم اعتقدوا بالحساب من عقاب وثواب ولكن حسب تفكيرهم واعتقادهم.. إذاً يعني ذلك أنه أراد القوم الذين كفروا بالله الواحد الخالق إله إبراهيم وجميع الأنبياء. وليس جميع أهل مصر.

والكلام يوهم أنه كان في ملة قوم لا يؤمنون بالله، ثم تركها، ولكن يزول الوهم، إذا علم أن الترك معناه كما ذكره الفخر الرازي[1]:

١ - عدم التعرض للشيء وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضاً فيه.

٢ - أو أن يقال إنه عليه السلام كان عبداً لهم بحسب زعمهم واعتقادهم الفاسد ولعله قبل ذلك كان لا يظهر التوحيد والإيمان خوفاً منهم على سبيل التقية، ثم إنه أظهره في هذا الوقت، فكان هذا جارياً مجرى ترك ملة أولئك الكفرة بحسب الظاهر.

ويعني ذلك أنه لم يكن متبعاً ملتهم في الباطن، والظاهر يدل على أنه كان معهم، وكان يكتم إيمانه حتى أوحى له الله ﷻ بالإعلان بالنبوة وإنه وإن لم يذكر ذلك في الآيات، إلا أنه لا بد أن يكون قد ذكره، والدليل قوله: (ذلكما مما علمني ربي) وقوله: (واتبعت ملة آبائي)..

ورأى الزمخشري[2] أنه يجوز أن يكون (تركت ملة قوم...) فيه تعريض بما مُني به من جهتهم حين أودعوه السجن، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على

---

(١) راجع التفسير الكبير (١٧-١٨/١٣٧).

(٢) راجع الكشاف (٤٧٠).

براءته من ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء، بدليل قوله بعد ذلك: (واتبعت ملة آبائي..) وذكر آبائه ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرّفهما أنه نبي يوحى إليه بما ذكر من إخباره بالغيب ليقوي رغبتهما في الاستماع إليه واتباع قوله؛ فهو نبي وآباؤه أنبياء وأجداده أنبياء لله ورسله..

ويدل على ذلك أن درجة آبائه كانت مشهورة في الدنيا، فإذا ظهر أنه ولدهم عظموه وصدقوه واتبعوه..

ولتأكيد كلامه عليه السلام يقول: (ما كان لنا) أي ما صح لنا معشر الأنبياء (أن نشرك بالله) و(لنا) يجوز فيها وجهان: أن يكون المراد هو وآباءه، أو أن يكون المراد جميع الناس ما كان لهم أن يشركوا بالله - ويرجح الأول. فالمراد أنه تعالى طهر آباءه عن الكفر والشرك بالله، وذلك حال كل المكلفين، والفعل (كان) في الماضي للدلالة على أنه لم يدخل في دين الملك، و لم يشرك بالله، ولا يمكن له أن يتبع سوى ملة آبائه الأنبياء. ففي الماضي والحاضر والمستقبل لا يجوز لهم إلا اتباع ملة آبائه .

وقوله: (من شيء) أي من جميع أصناف الشرك بالله، من عبادة الأصنام والنار، والكواكب ، ومنهم من يعبد العقل والنفس والطبيعة ، أي ما كان لنا أن نشرك بالله ما لا تحق عبادته ، فلا موجد إلا الله، ولا خالق إلا الله.. ولا رازق إلا الله، ومن نعم الله على الإنسان أن بعث رسلاً تهدي إلى عبادته، لذلك يقول: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾.. جملة مستأنفة، تفصيلية، فإن قوله: (ذلك) إشارة إلى ما تقدم من عدم الإشراك، أي ما كان يحق لنا أن نشرك بالله وأن معرفتنا بوحودية الله وأحقية عبادته والإيمان به من فضل الله علينا وعلى الناس.

﴿وَلَكِنَّ[1] أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾.. والواو استئنافية و(لكن) حرف عطف واستدراك و(أكثر الناس) المبعوث إليهم (لا يشكرون) فضل الله، فيشركون ولا يتنبهون فيشكرون الله على فضله أن بعث لهم رسولاً يرشدهم وينصحهم ويوجههم لعبادة الإله الواحد..

وكان من الأولى أن يشكر الناس فضل الله عليهم أن أرسل إليهم رسلاً تبشر وتهدي إلى سواء السبيل، وشكر الله مجاز بمعنى الإيمان به وعبادته وحده وترك ما دونه من عبادات. هكذا يكون الشكر.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾.

إن حديث يوسف لصاحبي السجن في الآيات السابقة لم يكن إلا تمهيداً ليعرفهم أنه بالإضافة إلى تأويل الأحاديث هو أيضاً بوحي من ربه يتنبأ بأمور من الغيب، وأنه متبع ملة آبائه وأجداده المعروفين والمشهورين بدعوتهم للتوحيد، وأنهم لا يشركون بالله، ثم يتوجه إليهما بالنداء (يا) للبعيد وهما بقربه، لأنه يخاطبهم في أمر عظيم يريد منهما الانتباه..

وقوله: (يا صاحبي السجن) فيه وجهان: يريد صاحبيَّ في السجن، فأضافهما إلى السجن من إسناد المصاحبة للمكان، على سبيل المجاز المرسل ، إذا

---

(١) ولكن: الواو حرف استئناف مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، ولكن: حرف عطف واستدراك لا محل له من الإعراب ، تعطف جملة على جملة .. انظر : المعجم الوسيط في الإعراب (حرف اللام).

ناداهما باسم الصحبة في المكان الشاق الذي تخلص فيه المودة، وتتمحض فيه النصيحة، فهما قد رافقاه فترة من الزمن.

أو احتمال أن قوله: (يا صاحبي السجن) أن يكون من باب الإضافة إلى الظرف، والمعنى: يا صاحبي في السجن. وفي النداء بهذا الأسلوب معنى التودد والتقرب إليهما، وقد صارا ممن يصاحبهما في المكان.

ثم أتى بجملة استفهامية للتدليل على بطلان ملة قومهما في قوله: (ءأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) ويريد (متفرقون) في العدد، والاستفهام تقريري للمقارنة يحتاج منهما إلى التفكير والتدبر، في أمر هذه المعبودات التي يتخذونها من دون الله، ليفكروا ويقارنوا بين عبادتها وعبادة الواحد الخالق لكل شيء.

والاستفهام حتى لا تنفر طباعهما من المفاجأة بالدليل من غير استفهام، فقد كان من الممكن أن يقول لهما: إن الواحد القهار خير من الأرباب المتفرقون، وبذلك يفاجئهم بما لم يعدوا أنفسهم لتقبله، فينفروا منه، لذلك ترك لهم فرصة التفكير في الإجابة على السؤال، بدلاً من إملاء الخبر عليهم.

وهذا أول احتجاج على فساد عقيدتهم، ويقول أبو حيان الأندلسي "وهكذا الوجه في محاجة الجاهل أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك إلى أن يصل إلى الإذعان بالحق وقابل تفرق أربابهم بالواحد (القهار) وجاء بصفة القهار تنبيهاً على أنه تعالى له هذا الوصف الذي معناه الغلبة والقدرة التامة. وإعلاماً ببعد أصنامهم عن هذا الوصف الذي لا ينبغي أن يعبد إلا المتصف به، وهم عالمون بأن تلك الأصنام جماد"[1].

---

(١) التفسير الكبير (٣٠٩/٥).

وقد سميت (أرباباً) لاعتقاد الناس فيها أنها كذلك، وقد يكون اللفظ ذكر على سبيل الافتراض بمعنى: أنها إن كانت أرباباً فهي خير أم الله الواحد القهار؟ والمقارنة بينها وبين الله الواحد القهار لا تجوز وإنما جاء الكلام على سبيل الفرض، وإنما هو أسلوب لاستمالتهم ودفعهم للتمييز بين من ينفعهم وما لا ينفعهم.

ثم يضرب لهم المثل على أن هذه أصنام لا تنفع فيقول: (ما تعبدون إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم) وجملة القصر (بما وإلا) بمعنى تخصيص عبادتهم على مجرد أسماء سموها أي: أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية باسم الآلهة، ثم طفقتم تعبدونها، أو أن يكون المراد أنكم وضعتم لكل إله من هذه الآلهة الكثيرة اسماً يعرف به ثم اعتبرتموه إلهاً - والله أعلم - والقصر بـ(ما وإلا) من أقوى طرق القصر، ويأتي ليقطع الحكم في أمر مجهول.

وقوله: ﴿ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا[1] مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي أنها أسماء استحدثتموها أنتم وآباؤكم، فهي فارغة لا مسميات تحتها، (ما أنزل الله) بتسميتها من (سلطان) أي حجة على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وواضح أن اللفظ المستعار أقوى في المعنى من اللفظ الحقيقي، والباء في (بها) مؤكدة، للنفي، وتبدو قوة الحكم من تركيب الجملة، واستعمال لفظ (سلطان) بمعنى الحجة، وكيف جاء النفي قاطعاً، موجباً للانتباه إلى فساد عقيدتهم وبطلانها..

---

(١) الباء: حرف جر زائد (والهاء) ضمر متصل مبني على الفتح في محل الجر لفظاً بالباء، والنصب محلاً على أنه مفعول به للفعل أنزل. "راجع حرف الباء في المعجم الوسيط"، "والمعجم الوسيط حرف الهمزة"..

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ ﴾ جملة قصر ثالثة، بمعنى: قصر الحكم لله، في أمر العبادة والدين وجملة القصر دعامة جديدة تضاف للجمل السابقة، حيث تزاحمت أساليب القصر في موضع وفي موضوع يحتاج إلى لغة قوية مؤثرة كالصدع على الزجاج، لأن من يراد تغيير معتقده لا بد من قرع مسمعه بما يؤثر فيه، ويجعله يراجع نفسه فيما ذهب إليه من اعتقاد فاسد، لذلك يستعمل طريق القصر "بالنفي والاستثناء"(١). لإقناع من يشك في الحكم وينكره.

والمعنى أنه ليس لكم ولا لأصنامكم حكم، إنما لله، ثم بين ما حكم الله به في قوله: ﴿ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ إذاً جاء الأمر أخيراً.. واضحاً لا جدال فيه، بأسلوب قصر آخر، قصر العبادة عليه وحده وذلك بالأمر وليس بالتخيير، لأن العبادة لصاحب النعم، فإنها نهاية التعظيم والإجلال، ولا تليق إلا بمن حصل منه نهاية الإنعام وهو الإله تعالى، لأن منه الخلق والأحياء والعقل والرزق والهداية..

هكذا تكاثرت أساليب القصر عندما، دعاها السياق، واحتاج المعنى للأساليب القوية في الإقناع، وخاصة أن القصر بالنفي والاستثناء "ما وإلا" أقوى أساليب القصر، وجاءت في مواضعها، إذ أن هذا الطريق من طرق القصر يوظف إذا كان المخاطب يجهل الحكم. فيمكن أن تكون هذه الأساليب من قصر القلب أو الإفراد أو التعيين حسب المعتقد.

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ يتوجه بجملة مستأنفة فيها التفات للتبيين وذلك باسم الإشارة إلى الدين واصفاً إياه بأنه الثابت الذي دلت عليه البراهين،

---

(١) الأصل في "النفي والاستثناء" أن يكون لأمر ينكره المخاطب ويشك فيه أو لما هو منزل هذه المنزلة - أو لأمر يجهله المخاطب - وهو من أقوى أنواع القصر، راجع علوم البلاغة، ودلالات التراكيب، د. محمد أبو موسى "عن أسلوب النفي والاستثناء".

والإشارة إلى الدين، تثبيت له، والتأكيد على أنه ذلك الدين المعروف الذي لا شك فيه (والقيم) صفة تؤكد أنه هو الدين الصالح الذي ينفع الناس.

أي إن كنتم تريدون عبادة الدين الحق الثابت فذلك هو الدين، أو ربما إجابة لسؤال: لماذا لا نعبد إلا إياه؟

والإجابة: لأنه صاحب الدين الثابت..

وإذا كانت نعم الله كثيرة وجهات إحسانه إلى الخلق غير متناهية، وقد بين الله ﷻ أنه المختص بذلك وأنه وحده الحقيق بعبادته، فإنه يقول: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي إن أكثر الناس بجهالاتهم وغلبة الكفر عليهم لا يعلمون ما تقدم، من ضرورة عبادة الله الواحد الذي بيده تصريف كل شيء.

ويمكن ملاحظة أن الفاصلة القرآنية جاءت مناسبة تماماً لما سبق، وأنها خاتمة مهمة ومكملة للمعنى المراد توصيله، وهو أنه بالرغم من أنه واضح تماماً أن هذه الأصنام التي يصنعونها أو الكائنات والمخلوقات من شمس وقمر وخلافه، كلها جامدة غير قادرة على عمل شيء، وأنه لا بد من وجود إله واحد مسخر هذا الكون وأن دينه هو الدين الحق، فإن أكثر الناس يتجاهلون ذلك ويظلون على جهالاتهم..

وإن كانت هذه الآيات خاطب الله بها الناس في عهد يوسف عليه السلام فإننا الآن وفي عصرنا هذا ما زلنا نشاهد أمثال هؤلاء الجهلاء في مناطق متفرقة من العالم، ما زالوا يعبدون الأبقار والأصنام، وغيرها..

وكأنهم ألغوا عقولهم وصموا آذانهم.. وأغمضوا عيونهم عن الدين الحق، الثابت، فإذا قلنا كيف لهؤلاء بعد التطور والتغير الذي حدث في العالم ما زالوا على جهالتهم؟!

نقول إذا من أين تُملأ جهنم؟ إنهم - بإذن الله - وقودها بكفرهم وشركهم.

﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾.

بعد حديث طويل قاله يوسف عليه السلام لصاحبي السجن، ختمه بتقرير أمر التوحيد والنبوة، وهو الأهم رجاءً في إيمانهما، ناداهما بنداء البعيد للانتباه ثانيةً، لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب، عن سؤالهما الذي ذكراه..

فقال: (أما أحدكما) يريد الشرَّابي (فيسقي ربه) أي سيده، أي أنك سوف تخرج من السجن وتعود إلى عملك وهو سقاية الملك الخمر، أما الآخر فقال له إنه سوف يخرج، فيصلبه الملك ويقتله وتأكل الطير من رأسه..

ثم قال: (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) أي قطع الأمر وتم ما (تستفتيان) من أمركما وشأنكما، وما يجرُّ إليه من العاقبة، وهي نجاة أحدهما وهلاك الآخر.

وبناء الفعل للمجهول، فيه تقوية الحكم ولا يعني ذلك أن الذي ذكره واقع لا محالة، بل يعني: أن ذلك حكمه في تعبير رؤياهما، وأنه هكذا يؤول ما سألاه عنه، وما استفتياه..

﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾..

ويُستأنف الحديث مع من (ظن أنه ناجٍ) واختلف في الموصوف هل هو يوسف أم الناجي، ولذلك عدة تفسيرات:

١ – أن الضمير في (ظن[1]) يعود على يوسف على أساس أنه عالم بعلم التأويل الذي يعتمد على الظن والحسبان.

٢ – أن الضمير يعود على يوسف على أساس أن الظن بمعنى اليقين أي أن التفسير كان بناء على الوحي ، والدليل على ذلك أنه ورد في القرآن الظن بمعنى اليقين في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ ﴾ [2] بمعنى متيقنون.

٣ – أو أن يعد الضمير على الناجي، فما دام لم يكن مؤمناً به، فقوله لا يفيد عنده إلا الظن.

قال: (اذكرني عند ربك) أي صفني عند الملك بصفتي، وقص عليه قصتي، أو اذكرني بعلمي ومكانتي، وما أنا عليه مما أتاني الله، أو اذكرني بمظلمتي وما بليت به من غير حق، والظاهر أنه أراد من الساقي أن يمتدحه عند الملك.. ففي الكلام إيجاز بالقصر لكن الكلام يحتمل أكثر من معنى مما يدعو إلى التفكير فيما يمكن أن يذكره به عند الملك.

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾..

أي أنسى الساقي و لم يذكره عند ربه، وقيل إنه: أنسى الشيطان ذكر الله حين وَكَّل أمره إلى غيره – وهذا تأويل ضعيف..

---

(١) ظن: فعل ماضٍ من أفعال القلوب، تفيد الرجحان. راجع المعجم الوسيط (حرف الظاء).

(٢) سورة البقرة، من الآية: ٤٦.

و(بضع سنين).. ما بين الثلاث إلى التسع، وقوله: (فأنساه) الفاء استئنافية، والضمير في الفعل قد يعود على يوسف، فتكون الفاء في (فلبث) تفيد الترتيب والتعقيب، بمعنى فأنسى الشيطان يوسف ذكر ربه، فلبث بضع سنين، والأرجح أن يعود الضمير في (فأنساه) إلى الساقي، وتكون الفاء في (فلبث) استئنافية، بمعنى فأنسى الشيطان الساقي ذكر يوسف عند الملك..

رؤيا الملك والإفراج عن يوسف

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ ﴾..

ولأن الله ﷻ إذا أراد شيئاً هيأ له أسباباً، فقد هيأ لخروج يوسف من السجن، بأن رأى ملك مصر في منامه رؤيا كانت سبباً للإفراج عنه، بعد أن ظل في السجن منسياً بضع سنين.

انتقلت الآيات إلى الحوار الذي دار بين الملك وملئه، وذكر لهم أنه رأى رؤيا عجيبة هالته: رأى (سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات) وقد روى المحققون الكثير من التفاصيل في هذه الرؤيا، من أن السبع البقرات السمان خرجن من نهر يابس، وسبع بقرات عجاف، فابتلعت العجاف السمان، وأن السبع سنبلات الخضر قد انعقد حبها وسبع أخر يابسات استحصدن وأدركت، فَالْتَوَتْ اليابسات على الخضر حتى غلبن عليها، إلى غير ذلك من الروايات التي لا تستند على الكتاب أو السنة، والمتحقق ما رواه الملك في السورة من رؤياه، وطلب الملك أن يفتوه، فلم يجد من لديه المقدرة على تأويل الرؤيا..

وقوله: (إني أرى) بالمضارع، ولم يقل (رأيت) لأن الجملة حكاية حال، فكأنه ما زال يراها، ومازال متأثراً بها، والكلام فيه حذف، فقوله: (سبع بقرات سمان) أي سبع من البقرات السمان، و(سبع عجاف) أي سبع من البقرات العجاف، و(سبع سنبلات خضر) أي من السنبلات الخضر، و(أخرى يابسات) أي وسبع من السنبلات الأخر اليابسات، فجاء الإيجاز بالحذف مناسباً لمقام الحال حيث كان الملك مهتاباً من هذه الرؤيا ويريد من الملأ سرعة التأويل..

وجاءت (عجاف) على وزن فعال لتناظر (سمان) فالقياس أن (أعجف وعجفاء) لا يجمعان على (فعال)، وإنما لحمله على ما يناقض (سمان)، فمن دأب العرب حمل النظير على النظير، والنقيض على النقيض، للمطابقة بينهما، كما وردت المطابقة بين (سنبلات خضر) و(يابسات).

ولأن الكلام مبني على (السبع) فقد وجب أن يتأول معنى (الأخر) معنى (السبع الأخر)، والحذف لدلالة السياق على المحذوف فقال: (وأخر يابسات).

وقوله: (يا أيها[1] الملأ) يريد بهم الأشراف والأعيان من العلماء والحكماء.

وقوله: (إن كنتم للرؤيا تعبرون) جملة استئنافية لا محل لها، شرطية وجوابها محذوف دل عليه ما قبله أي: إن كنتم للرؤيا تعبرون فأفتوني.. واللام في قوله: (للرؤيا) إما أن تكون للبيان بمعنى: إن كنتم في الرؤيا من العابرين.. كقوله: (وكانوا فيه من الزاهدين)، أو أن تكون اللام زائدة لتقدم المفعول (الرؤيا) على الفعل فزيدت في المعمول لتقوية العامل إذا ضعف بالتأخر، أو بكونه فرعاً عن الفعل. وقد اجتمع الأمران فزيدت اللام أو أن تكون (للرؤيا) خبراً آخر أو حالاً.. فيقال: عبرت الرؤيا أعبرها عبارة، وعبرتها تعبيراً إذا فسرتها.

و(عبر) معناه (عبر النهر) أي قطعه من جانب إلى الجانب الآخر، وقيل عبرت الطريق، وقيل: لعابر الرؤيا (عابر)، لأنه يتأمل جانبي الرؤيا فيتفكر في أطرافها وينتقل من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر..

---

(١) يا: للنداء، أيها: منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب على النداء، وها: للتنبيه حرف لا محل له من الإعراب، والملأ: بدل من (أي) أو عطف بيان مرفوع. راجع إعراب الشواهد القرآنية (١٨٧-١٨٨).

ورد الملأ ممن لديهم الخبرة في عبارة الرؤى أنها ليست سوى (أضغاث أحلام) مفردها (ضغث) وهو الحزمة من أنواع النبت والحشيش بشرط أن يكون مما قام على ساق واستطال، ومعناها في الآية "تخاليطها وأباطيلها" وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان، واللفظ استعارة تصريحية، وإضافة (أحلام) بمعنى "أضغاث من أحلام"، والمعنى أنها رؤيا مخلوطة من أشياء غير متناسبة. لاحظ كيف جاء اللفظان نكرة للتقليل من أهمية الرؤيا، بمعنى أنها ليست إلا مجرد أضغاث من أحلام..

وقوله: (وما نحن بتأويل[1] الأحلام بعالمين) جملة خبرية من الضرب الإنكاري مؤكدة منفية وفيها تقديم، وأصلها "وما نحن بعالمين بتأويل الأحلام"، وزيدت الباء في (عالمين) للتأكيد؛ أما الباء في (بتأويل) فحرف جر، والمراد "أضغاث الأحلام" أي الأحلام الباطلة خاصة، ليس لها عندهم تأويل، وإنما علمهم في تأويل الرؤى الصحيحة لذلك لما قال: (أفتوني في رؤياي)، ردوا بأنها (أضغاث أحلام) وكرروا ونفوا أن يكون لهم مقدرة على تأويل الأحلام، ولم يقولوا (الرؤى)، لأنهم أرادوا أنها أحلام باطلة، ويرى الزمخشري[2] أنهم إما أن يريدوا الأحلام الباطلة، أو يريدوا الأحلام الصحيحة الصالحة.

والمعنى يدل على أنهم أرادوا الأحلام الباطلة، بدليل وصفها بأنها أضغاث أحلام، والمعنى وما نحن بتأويل أضغاث الأحلام بعالمين، لذلك إذا أراد الملك تأويل رؤيا، فإنه يأتي بمن لديهم خبرة في ذلك.

---

(١) الباء حرف زائد، دخل على الخبر المنفي بـ"ما" تجر الاسم لفظاً لا محلاً. راجع المعجم الوسيط (حرف الباء) وإعراب الشواهد القرآنية (١٨٨).

(٢) الكشاف، ٤٧٥.

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ .

والكلام فيه إيجاز بالحذف بمعنى: "فأرسلوني إلى يوسف لأستعبره الرؤيا، فأرسلوه إليه، فأتاه وقال له[1].."..

كانت الرؤيا سبباً في تذكر الرجل الذي نجا وخرج من السجن، تذكر يوسف بعد أن أنساه الشيطان، ولولا أنه يثق في قدرة يوسف على تأويل الأحاديث - لأنه شاهد ذلك بنفسه كيف أن يوسف أول رؤياهما، وأنه صدق في تأويله - ما كان ليعرض نفسه لغضب الملك إذا لم يصدق يوسف في تأويله.

والإيجاز في كلام الساقي ليس فقط على هذا النحو الذي ذكره المفسرون ولكن أكثر من ذلك فالقصة كلها تعتمد على الإيجاز بالقصر والحذف.

وقوله: (ادكر) بالدال هو الفصيح، وقد وردت في سورة القمر (من مدكر)، بمعنى (واذكر) أي تذكر بالذال.

وقوله: (بعد أمة) أي بعد مدة طويلة، التي سبق الذكر بأنها (بضع سنين) والمراد وادكر بعد مضي الأوقات الكثيرة، وكذلك (بعد أمة) أي بعد نسيان، يقال: أمه يأمه أمهاً، إذا نسي.

وقوله: (وادكر) حالية، وفي القول إيجاز بالحذف بمعنى: وقال الساقي بعد فترة طويلة كان قد نسي ما أوصاه به يوسف من ذكره عند الملك والثناء عليه لعلمه ومعرفته بالتأويل فطلب أن يرسلوه إلى السجن ليسأل يوسف في رؤيا الملك، وكله ثقة أنه سوف يؤول ما لم يستطع الملأ تأويله، كل ذلك

---

(١) الإيضاح، ١٨٥.

تم اختصاره في الآية ومع ذلك فالمعنى واضح والسياق يدل على الكلام المحذوف..

وقوله: (أنا أنبئكم بتأويله) لا يعني أن الساقي كان في نيته أن ينسب تأويل يوسف لنفسه ويدعي أنه هو الذي فسر الرؤيا، ولكن الجملة تدل على إقدام الساقي بكل ثقة أنه يعلم من يمكنه تأويل الرؤيا، وتقديم الضمير (أنا) للتأكيد على قدرته في ذلك، بمعنى أنا أنبئكم، وأنا الذي بإمكانه ذلك وليس غيري، فيه معنى التخصيص؛ أي: يخص نفسه بأنه يعرف من يمكن التأويل بدليل قوله: (فأرسلون).

وقوله: (فأرسلون) أي فأرسلوني على سبيل التعظيم إذا كان الخطاب للملك وحده والفاء استئنافية انقطع الكلام قبلها عما بعدها، والفاعل ضمير مستتر تقديره (أنتم) والمفعول ضمير متصل محذوف (الياء) واستعيض عنها بالكسرة، ليناسب اللفظ، حركة آخر الفاصلة القرآنية "النون المتحركة". والجملة فيها إيجاز بالحذف والتقدير : (فأرسلوني إلى يوسف لاستعبره الرؤيا ، فأرسلوه فأتاه وقال له يوسف) فجاء الاختصار لتسهيل الحفظ وتقريب الفهم، وضيق المقام وتحصيل المعنى الكثير باللفظ اليسير[1] .

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

والكلام مستأنف في زمن ومكان آخر بعد أن طلب الساقي إرساله إلى يوسف وفيه إيجاز بالحذف بمعنى: ذهب إليه في السجن ودخل عليه وحياه ثم

---

(١) جواهر البلاغة (باب الحذف للإيجاز) ٢٠٠ .

قال له: إن الملك لديه رؤيا يريد تأويلاً لها، أفتنا فيها وأخذ يقص عليه الرؤيا، كل ذلك وأكثر من أحداث تتخطاها القصة القرآنية إيجازاً بالحذف تارة وبالقصر تارة أخرى لتصل مباشرة إلى حديث الساقي مع يوسف بندائه بأداة مقدرة تقرباً وتزلفاً له، ثم ناداه بـ(أيها الصديق) ليشعره بالمكانة العالية التي يحفظها له في نفسه، والصديق، هو البليغ في الصدق، ووصفه بهذه الصفة لأنه ذاق أحواله وعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه ولم يجرب عليه كذباً، ورأى منه الصلاح في كل أمر أثناء وجوده معه في السجن.

والأمر في (أفتنا) ليس أمراً لازماً، وإنما يلتمس منه، أن يفتيه، في رؤيا الملك، ثم كلمه بلغة الاحتراز (لعلي أرجع إلى الناس) لأنه ليس على يقين أن يرجع إلى الناس، والمعنى لعلي أرجع إلى الناس بفتواك لأنه رأي عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة، فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها فلهذا السبب قال: (لعلي[1])، التي كررها مرتين، بمعنى لعلي أرجع إلى الناس - إن كتب لي الرجوع - لعلهم يعلمون فضلك وعلمك، فاحترز بأسلوب الترجي، لأنه وضع أملاً كبيراً في اللجوء إلى يوسف وتوقع منه الإفادة، وأنه يرجو أن يعود من عنده حاملاً ما يرضي الملك، ويقنعه.

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾.

---

(١) لعل: حرف مشبه بالفعل، يفيد التوقع والترجي لأمر مرغوب فيه. راجع المعجم الوسيط (حرف اللام).

رأى جمهور المفسرين أن (تزرعون) خبر في معنى الأمر، أي (ازرعوا) وإنما خرج الأمر في صيغة المضارع المخبر به، للمبالغة في إيجاب وإيجاد المأمور به، فيجعل كأنه وجد فهو يخبر عنه، والدليل على كونه في معنى الأمر قوله (فذروه في سنبله)، وفي ذلك إخبار غيب بما يكون منهم من توالي الزرع سبع سنين.

والرأي أن الفعل (تزرعون)، بمعنى أنه عندما تزرعون القمح كل عام في موسمه فلا تأكلوه كله بل ذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون، والجملة إخبارية بمعنى (حين تزرعون)، لأنه من المعلوم أن الزراعة كانت موسمية تتم كل عام، فلا حاجة للأمر بها، ويكون الفعل على معناه الحقيقي، ويكون الأمر في (فذروه) على اعتبار أنه ينصحهم.

وقوله: (دأباً[1]) يريد زراعة متوالية مستمرة لا تتوقع في خلال سبع سنين والنصب إما على تقدير محذوف بمعنى: يدأبون دأباً، أو على أنه مصدر وضع في موضع الحال، وتقديره: تزرعون دائبين، فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون، أي دعوا المحصول المتبقي في سنبله حتى لا يفسد ولا يتسوس.

وتعرب (ما) في (فما حصدتم) إما شرطية متصلة بالفاء الاستئنافية، وجواب الشرط مربوط بالفاء (فذروه)، أو موصولة بجملة (فذروه في سنبله).

وقوله: (إلا قليلاً مما تأكلون) استثناء بإلا، أي استثنى الحب الذي يأكلون فيدرسوه ويخرجوه من سنبله.. ويتركوا الباقي في سنبله.. ولفظ (قليلاً) يعني الحرص في الاستهلاك، ومراعاة أن يأكلوا ما هم في حاجة ماسة إليه دون

---

(١) دأب: الدأب: استمرار الشيء على حاله واحدة، وهو دائب بفعل كذا إذا استمر في فعله، ودأب، يدأب، دأباً، أي متوالي.. لسان العرب مادة (دأب)..

إفراط أو ربما يكون المعنى أن يقللوا من الاستهلاك، ويدخروا أكبر قدر من المحصول.

وتبدأ الآية التالية بقوله: (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي، ليدل على ما سوف يحدث بعد ذلك، وقوله: (سبع شداد) يدل السياق على أن المراد (سبع سنين) بدليل قوله: (سبع سنين دأباً)، وقوله: (ثم يأتي من بعد ذلك)، والسنين الشداد تعني سنين الجدب الصعاب التي تشتد على الناس، وهذه السبع الشداد (يأكلن) بضمير الغيبة، وهو من الإسناد المجازي، بمعنى يأكل الناس فيها، فإن السنة لا تأكل فلم يسند أكل أهل تلك السنين مسنداً إلى السنين وإنما أنسد الأكل للسنين مباشرة على سبيل المجاز العقلي، من الإسناد إلى المفعول بدلاً من الفاعل، أو على سبيل المجاز بمعنى يؤكل فيها، وفي ذلك مبالغة في جعل السنين هي التي تأكل، ويستثنى من ذلك ما أحصنوا في قوله: (إلا ما تحصنون[1]).. أي قليلاً مما تخبئون وتحرزون، أي تدخرون.

فإذا كان على المصريين في السنين السبع الأولى التي وصفت بالرخاء أن يحفظوا المحاصيل في سنبلها، إلا القليل منها مما يأكلوه، لأنه ستأتي سبع شداد، يحتاج الناس فيها إلى ما ادخروا، فيأكلوه إلا قليلاً مما يحرزون، إذاً لماذا هذا القدر القليل المخبأ إذا كان بعد سنين الجدب سيأتي عام يغاث فيه الناس؟ والرأي: أنه ربما قصد بالقليل المحصن، خلال سنين الجدب بمعنى: في كل سنة من سنين الجدب يحصنون قليلاً مما ادخروا أي يخبئون قليلاً منه لكي ينفعهم في السنة التالية، أو لكي يخرجونه عندما يستشري الجوع.

---

(١) يقال: أحصنه إحصاناً، إذا جعله في حرز، لسان العرب مادة (حصن).

(ثم يأتي بعد ذلك عام) وهذا العام فيه الفرج بعد سنين الجدب والقحط ويقال إن سنين الجدب لا تزيد عن سبعة بعدها يأتي الخصب، وقوله: (فيه يغاث) بتقديم الجار والمجرور (فيه) على الفعل (يغاث) [١] للتخصيص والتأكيد، على أن الغوث يكون في هذا العام الذي سيأتي بعد سنين الجدب مباشرة، ومجيء الفعل (يغاث) مبنياً للمجهول فيه تعظيم من شأن المغيث وهو الله، الذي يأتي بالفرج.

وجملة (فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) تفصيل لحال هذا العام الذي لا يعلمه إلا الله، وقوله (يعصرون) أي يعصرون العنب، والزيتون والسمسم، وما إلى ذلك مما يعصرون، وقيل: يعصرون لفظ مجازي بمعنى: يحلبون الدروع لأن الحلب فيه عصر للدروع على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل، وحذف المفعول به للدلالة السياق.. وفي الآية إجمال في (يأتي عام) وتفصيل في (فيه يغاث الناس وفيه يعصرون).

يقال إن العام الثامن، بعد تأويل الرؤيا، هو بشرى من الله، بعد الفراغ من شديد العمل وسنين المجاهدة، فهذا العام الذي سوف يجيء مباركاً خصباً كثير الخير، قد أوحى به الله ليوسف، ومعلوم أن بعد سنين الجدب يأتي الرخاء، ولكن أراد الله من خلال الوحي أن يفصل حال هذا العام، كأنه قيل: فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم، أي يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً، والمعلوم المطلق، من انتهاء الجدب بحدوث الرخاء، خلاف المعلوم المفصل، وذلك لا يعلم إلا بالوحي [٢].

---

(١) يغاث: من الغوث أي الفرج، أو الغيث، يقال غثيت البلاد إذا أمطرت، أي: غاثنا الله من الغيث أي المطر، وأغاثنا الله من الغوث - أي الفرج - لسان العرب مادة (غوث، غيث).

(٢) راجع الكشاف بتصرف، ٤٧٧.

و(يعصرون) لها عدة قراءات، ولكن الدراسة تعتمد القراءة المتفق عليها، لأن كل قراءة تغير المعنى، لذلك لا تعنى الدراسة إلا بالقراءة المعتمدة في المصحف وما عدا ذلك من تفسيرات للقراءات لا يدخل في بابها، وإذا أريد البحث في اختلافات القراءات، يمكن إفراد بحث خاص لها.

هكذا فسَّر يوسف عليه السلام رؤيا الملك، بما يعني أنه ستمر البلاد بسنين رخاء يعقبها سنين جدب ثم تختتم بعام خير وخصب ونماء، إنه عام الغوث، وأوضح كيف تكون الطريقة لإنقاذ الناس إذا مرت البلاد بظروف الجدب والقحط وعرفهم بالوسيلة التي يتخطون بها الأزمة التي سوف تمر بها البلاد، ووضع أساساً هاما لمن يتولى رعاية الاقتصاد في البلاد، بأنه من الضروري أن يكون هناك دائماً مخزون من الغذاء اللازم للناس يخرجونه عند الحاجة إليه..

وتدل الآيات بعد ذلك على أن الملك أعجب بكلام يوسف لأن يوسف لم يكتف بتفسير الرؤيا وإنما وضع الحلول التي تخرج البلاد من أزمتها المقبلة، فقد جعل سبحانه وتعالى علمه لخلاصه من المحنة الدنيوية، فكيف لا يكون العلم سبباً للخلاص من المحن الأخروية؟!

لذلك قال – في قوله تعالى – : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ ﴾..

وفي الكلام حذف[1] للإيجاز فبعد أن أعجب الملك به وبرأيه السديد قال ائتوني به فأرسل إليه لكن لم يسارع يوسف بتلبية طلب الملك، وإنما تأنى وتثبت في إجابته لطلبه، وأبى أن يخرج من السجن إلا بعد أن تنكشف حقيقة ما حدث، وتظهر براءته وتزول التهمة التي ألصقت به كلية..

وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (عجبت من يوسف وكرمه وصبره والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان، ولو كنت مكانه لما أخبرتهم حتى اشترطت أن يخرجوني، ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك، ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث، لأسرعت بالإجابة وبادرتهم بالباب ولما ابتغيت العذر، إن كان لحليماً ذا أناة)[2].

وفي رد يوسف ما يدل على قوة الصبر والأناة، طلباً لبراءة ساحته، حين يجد الملك أن ذلك موقفه، موقف الحزم والعقل، لأنه لو خرج في الحال وما زال في نفس الملك شيئ من أثر تلك التهمة، فيراه الملك ويراه الناس بتلك العين أبداً، ويقولون هذا الذي راود امرأة العزيز.

لذلك التمسيوسف من الملك أن يتفحص عن حال تلك الواقعة، لأن في ذلك دليل براءته، حتى إذا خرج لا يمكن لأحد أن يلطخه بتلك الرذيلة، كما أن وجوده في السجن تلك السنين الطوال كان من الطبيعي أن يجعله يسرع بالخروج بمجرد السماح له، وحيث أنه لم يخرج عرف عنه كونه في نهاية العقل والصبر والثبات..

---

(١) راجع أساليب بلاغية.. ٢٢٧.

(٢) أخرجه عبد الرازق الطبري من طريق عن ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة، بدون قوله: (إن كان لحليماً ذا أناة) ووصله إسحاق من رواية إبراهيم الجوزي عن عمرو عن عكرمة عن ابن عباس "بمعناه". راجع الكشاف: ٤٧٨.

وذلك يصير سبباً لأن يعتقد فيه الملك بالبراءة عن جميع أنواع التهم، ولأن يحكم بأن كل ما قيل فيه كان كذباً وبهتاناً..

وقول الملك: (ائتوني به) أمر من الأعلى رتبة واجب ولازم في الحال، ومع ذلك حينما ذهب الساقي إليه، طلب منه أن يرجع إلى (ربه) أي مولاه، وقيل أن النبي ﷺ مدحه في هذه الأناة بقوله: (ولو لبثت في السجن بعض ما لبث يوسف لأجبت الداعي)، وكان في طي هذه المدحة من الرسول ﷺ بالأناة والتثبت تتريهه وتبرئته مما قد يسبق إلى الوهم من أنه هم بزليخا هماً يؤاخذ به، لأنه إذا صبر وتثبت فيما له أن لا يصبر فيه وهو الخروج من السجن، مع أن الدواعي متوفرة على الخروج منه، فهذا دليل على صبره عن الهم، وصبره في ذلك أولى وأحدر، ودليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مواقفها.

وقدم سؤال الملك عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، ومعنى ذلك أنه طلب إلى الملك أن يسأل النسوة ليعلم براءته وهذا يعني:

١ - أن يوسف ﷺ لم يتوجه إلى الملك بسؤال مباشر يجري مجرى الأمر وهذا غير لائق، فاقتصر على أن يسأل الملك عن تلك الواقعة.

٢ - كذلك نلاحظ أن يوسف لم يذكر امرأة العزيز التي هي سبب التهمة الأولى (المراودة) وهي التي سعت في إلقائه في السجن، بل اقتصر على ذكر النسوة.

٣ - يبدو أن هؤلاء النسوة قد اتهمنه بعمل شنيع عند الملك فاقتصر على سؤالهن على سبيل التعيين والتفصيل.

لذلك وجد يوسف عليه السلام أنه من الضروري دفع التهم عنه، وقد حث الرسول ﷺ الناس بدفع التهم في قوله: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم).

أراد يوسف عليه السلام بسؤاله عن حال النسوة، أن يحث الملك ويحركه للبحث عما سُئل عنه، ليجد في التفتيش عن حقيقة القصة بياناً مكشوفاً، يتغلب فيه الحق على الباطل وتتبين براءته.

في قوله: (اللاتي قطعن أيديهن) تعريض بمن على أنهن مصدر الغواية، ولا ذنب له فيما فعلنه، فكل ذلك من كيدهن، كما يأتي الكلام لتمييز هؤلاء النسوة عن غيرهن، لأنهن من قمن باتهامه والسعي في سجنه.

لذلك يقول: (إن ربي بكيدهن عليم) وقد يراد بـ(ربي): الله تعالى، لأنه هو العالم بخفايا الأمور، أو أن يكون المراد: الملك، وفيه إشارة إلى أن الملك يعلم بكيدهن ومكرهن، كما كان قد علم ببراءته، وفي ذلك تعريض بالملك وتقريع، بمعنى أنك رغم علمك بكيدهن، أمرت بسجني استجابة لرغبتهن، وذلك الاحتمال بعيد، بدليل أنه سألهن.

وقوله: (كيدهن) يحتمل أن يكون المعنى: أن كل واحدة منهن ربما طمعت فيه، فلما لم تجد فيه مطلوبها، أخذت تطعن فيه وتنسبه إلى القبح، أو لعل كل واحدة منهن بالغت في ترغيب يوسف في موافقة سيدته على مرادها.

وتنتقل القصة إلى سؤال الملك، وفي ذلك إيجاز بالحذف معناه وعاد الرسول وأخبر الملك بما طلب يوسف، ودون تفكير استجاب للطلب وجمع النسوة لكي يسألهن إذ سأل بجملة مستأنفة، دليل على رغبته معرفة الحقيقة وما خفي عنه بسرعة: (ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه)، وقد يكون في

السؤال بصيغة الجمع المراد به واحدة؛ لأن التي راودته امرأة العزيز وأن كل واحدة راودته لأجلها أو تكون صيغة الجمع على حقيقتها، وأن كل واحدة راودته عن نفسها، والمعنى على الجمع أولى بدليل قوله: (ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن)، ولا وجه بأن يراد امرأة العزيز؛ لأن رد السؤال جاء من النسوة (قلن حاشا لله)، ويبدو أن امرأة العزيز كانت معهن بدليل قولها بعدهم: (الآن حصحص الحق).

وكانت إجابة النسوة أن قلن: (حاشا[1] لله) تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شئ من الريبة ومن نزاهته عنها، وهذا كالتأكيد لما ذكرن في أول الأمر في حقه وهو قولهن (ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم).

وقولهن (ما علمنا عليه من سوء) ليس في المقولة إبرام تام، وإنما كان النفي بالعلم، ولم يقلن (ما به من سوء)، أو (ما فعل السوء)، لأن عدم علمهن لا يبرىء ساحته في كل الحالات، وإنما فيما يعلمنه فقط.

ومع ذلك يدل على حسن سيرة يوسف وأنه كان معروفاً عنه نزاهته وعفته، ولا لمن كان حاله مثل حال يوسف أن يكون في باطنه مثل ظاهره، وإلا ما كان ليطلب سؤال النسوة.

ولما علمت امرأة العزيز برد النسوة وعلمت أنهن يبرأن فيما يعلمنه عنه. قالت: (الآن حصحص[2] الحق) هكذا أراد الله ﷻ أن تكتمل براءة نبيه،

---

(١) حاشا: لفظ معناه الاستثناء، يكون اسماً للتتريه، ويجر الاسم بعده بحرف الجر (حاشا لله) أو الإضافة (حاش الله) المعجم الوسيط (حرف الحاء).

(٢) وحصحص: الأصل في معناه حصحص البعير في بروكه إذا تمكن واستقر في الأرض، اشتقاق من الحصة (لسان العرب، مادة حصحص).

فسخرها لقول الحق، وحصحص: أي ثبت واستقر الحق، وقبل أن يفكر المتلقي في سؤال مضمر في نفسه عن هذا الحق الذي ثبت، تبادر هي بالإجابة فتقـول: (أنا راودته عن نفسه) وبذلك تنكشف وتتضح الحقيقة التي أراد يوسف أن يظهرها للناس، وإذا بامرأة العزيز تبرئُهُ على الملأ، وتسند المراودة إلى نفسها بذكر المسند إليه (أنا) وتقديمه على الفعل المتصل به ضمير المتكلم، ليتكرر الضمير مرتين لزيادة التأكيد.

وقولها: (وإنه لمن الصادقين) جملة خبرية من الضرب الإنكاري لتأكيد صدقه في هذه المقولة، وبذلك تمت براءة يوسف مما لا يدع مجالاً لأي احتمال آخر، وفي الجملة معنى القسم.

﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾.

اختلف في كلام من؟ وفيه وجهان وضحهما الفخر الرازي فيما يلي[1]:

١- وهو رأي الأكثرين أنه قول يوسف عليه السلام وقد وصل بكلام امرأة العزيز ويرى الفراء أن ذلك جائز إذا دلّت القرينة عليه، وقوله: (ذلك) أي ذلك التثبت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز أني لم أخنه بالغيب أي بظهر الغيب في حرمته، بالنصب على الحالية، إذن فالمراد بـ(ذلك) الإشارة إلى تلك الحادثة الحاضرة التي هي اعتراف زليخا، أو ربما يكون (ذلك) بمعنى ذلك الذي فعلته بردي للرسول إنما كان ليعلم الملك أني لم أخنه بالغيب.

٢- أن يكون القول لامرأة العزيز والمعنى: أني وإن أحلت الذنب على يوسف عند حضوره لكني ما أحلت الذنب عليه عند غيبته، أي لم أقل فيه وهو

---

(١) راجع التف[illegible] الك[illegible] ١٧–١٨/ ١٥٤ [illegible]

في السجن خلاف الحق، ثم إنها بالغت في تأكيد الحق بهذا القـــول: (وأن الله لا يهدي كيد الخائنين)، والهداية لا تكون للكيد وإنما لصاحب الكيـــد، فأســـند الفعل المنفي (لا يهدي) إلى الكيد، إسناداً مجازياً، بدلاً من إسناده إلى أصحـــاب الكيد الخائنين، ووصول المعنى بلغة المجاز أبلغ في نفي الهداية عن الخائنين الذيـــن يسعون بالكيد والمكر، لا جرم افتضحت وأنه لما كان بريئاً عن الذنب لا جـــرم طهره الله تعالى عنه، ويوسف لأنه مؤمن بالله فهو يعلم أن مصير الخائن إضـــلال الله له، فلا هداية له ولا نجاة له.

والوجه الأول أولى؛ لأن الذي لم يخن بالغيب هو يوسف، ولما جـــاء في الآية التالية: (وما أبرئ نفسي) أن يوسف يؤكد أن رحمة الله هي المنجاة بدليـــل قوله السابق: (لولا أن رأى برهان ربه) كما أن يوسف عليه السلام هو النبي العالم بأن الله غفور رحيم، فهو المؤمن بالله، أما زليخا ورهطها لم يكونوا مؤمنـــين بـــالله الواحد.

وهناك أدلة أخرى على براءة يوسف عليه السلام وهي:

١ – لو أن الملك صدق ما قيل له عن يوسف عليه السلام وما أُتُّهم به، وكـــان متيقناً من ذنبه ما وثق فيه وصدق تفسيره للحلم، وما كان ليعجـــب بخطته التي وضعها ليخرج البلاد من أزمتها المقبلة، وما كان ليرســـل في طلبه.

٢ – كما أن يوسف عليه السلام لو كان مذنباً، ما كان ليطلب سؤال النســـوة خوفاً من افتضاح أمره عند الملك، وتثبت التهمة عليه.

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

والاستئناف في قوله: (إن النفس لأمارة بالسوء) انقطعت عما قبلها لكونها بمنزلة المتصلة بها، لكونها جواباً عن سؤال، فيما يسمى بشبه كمال الاتصال.

وقوله: (وما أبرئ نفسي) من الواضح أن يكون من كلام امرأة العزيز استكمالاً لكلامها الأول (وذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين) ولما كانت تستشعر وجود سؤال يتردد في نفوس الحاضرين، خرجت الجملة الخبرية[1] على خلاف الظاهر، بأن نزلت غير السائل منزلة السائل، إذا قدم إليه ما يلوح بحكم الخبر، فيستشرف المتردد الطالب، فتقول (إن النفس لأمارة بالسوء) أي وما أبرىء نفسي عن الخيانة مطلقاً، فإني قد خنته حين أحلت الذنب عليه، وقلت (ما جزاء من أراد بأهلك سوءً إلا أن يسجن أو عذاب أليم) وأودعته السجن، وكأنها تقدم ليوسف اعتذارها عما فعلته وتسببت في سجنه..

إذاً ترك العاطف بين الجملتين (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء) كون الثانية في منزلة المتصلة بالأولى، لكونها جواباً عن سؤال اقتضته الأولى فتنزل منزلته فتنفصل الثانية عنها كما يفصل السؤال عن الجواب، كأنه قيل: هل النفس أمارة بالسوء؟ وهذا الضرب يقتضي تأكيد الحكم"[2]. والفصل من

---

(١) راجع الإيضاح: ٢٢، وأساليب بلاغية ١٠١-١٩١.
(٢) الإيضاح: ١٥٦ ، وجواهر البلاغة ١٨٤ .

باب شبه كمال الاتصال. وقد جاءت الجملة الثانية مؤكدة عن تـنزيل خـالي الذهن منزلة السائل المتردد لما تقدم من كلام يشير إلى حكم الخبر[١] .

كما أن المرجح أن يعود ضمير الغيبة في (و لم أخنه) على زوجها، بمعـنى أنها راودت يوسف لكنها لم تقع في الزنا، بسبب استعصامه، وأنهـا لا تـبرئ نفسها عن المحاولة، التي باءت بالفشل، و لم تستطع تحقيق ما كانت تصبو إليه..

ويرى بعض المفسرين أنه من كلام يوسف والواقع أن الكلام موصـول بقولها (الآن حصحص الحق) وظاهر الكلام ومعناه يثبت أنه من قولها، فإذا قيـل إن ق قوله: (وما أبرئ نفسي) كلام لا يحسن صدوره ممن احترز عن المعاصي، إذاً قولهم أن الكلام ليس على سبيل كسر النفس، وذلك لا يليق بـالمرأة الـتي استفرغت جهدها في المعصية.

والرأي أن امرأة العزيز حينما قالت: (الآن حصحص الحـق) وأخـذت تعترف على نفسها، لم تفكر في كسر النفس أو غيره، فإن الله تعالى هداها لقول الحق لذا استكملت كلامها، والمنطق يقول أن كل ما جاء من قول بعد ذلـك لها، والسياق يدل على ذلك، فالمراودة التي اعترفت بأنها صدرت منها، كـانت محاولة لاستمالة يوسف، وكونه تمنع واستعصم دليل على أنها لم تستطع الخـوض في الزنا وارتكاب المعصية، ولكن ذلك لا يعني أنها بريئة، لأنها أخطأت حـين راودته، وذلك لأن النفس الأمارة بالسوء تدفع صاحبها للإثم، وأنها باعترافـها هذا تأمل أن يرحمها زوجها ويعفو عنها بعد هذا الاعتراف الخطير، أو أنها تدعو أن تنال رحمة ربها حسب ما كانوا يعتقدون.

---

(١) راجع : (العدول عن مقتضى الظاهر في الآية أن : مدخول (إن) مؤكد لمضمـون ما [illegible]) جواهر البلاغة ٥٨ .

والدليل على أن القول قولها، أن يوسف لم يكن حاضراً بدليل قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾.

أما قولهم أن بعض القول لامرأة العزيز وبعضه ليوسف مع تخلل الفواصل الكثيرة بين القولين وبين المجلسين فهو بعيد[1].

فإن امرأة العزيز لم تبرئ نفسها تماماً من الزلل، و لم تشهد لها بالبراءة الكلية فإن النفس تأمر بالسوء بما تحمل على صاحبها من التمادي في مطاوعة الشهوات، (إلا ما رحم ربي) استثناء متصل بمعنى إلا البعض الذي رحمه ربي، أي أن النفس أمارة بالسوء في كل وقت وأوان، إلا وقت العصمة، ويجوز أن يكون استثناءً منقطعاً، أي: ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة.

وقوله: ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾..

اختلف العلماء في أن النفس الأمارة بالسوء ما هي؟

والمحققون قالوا: إن النفس الإنسانية شيء واحد، ولها صفات كثيرة، فإذا مالت إلى العالم الإلهي كانت نفساً مطمئنة، وإذا مالت إلى الشهوة والغضب كانت أمارة بالسوء، وكونها أمارة بالسوء يفيد المبالغة، والسبب فيه، أن النفس من أول حدوثها قد ألفت المحسوسات والْتَذَّتْ بها، وعشقتها، فأما شعورها بعالم المجردات وميلها إليه، فذلك لا يحصل إلا نادراً في حق الواحد، فالواحد وذلك الواحد فإنما يحصل له ذلك التجرد والانكشاف طول عمره في الأوقات

---

(١) راجع التفسير الكبير، وكيف حاول الفخر الرازي إثبات أن القول لامرأة العزيز (١٧-١٨/١٥٦-١٥٧).

النادرة، لما كان الغالب هو انجذابها إلى العالم الجسداني (الجسدي)، وكان ميلها إلى الصعود إلى العالم الأعلى نادراً لا جرم حكم عليها بكونها أمارة بالسوء.

ومن الناس من زعم أن النفس المطمئنة هي النفس العقلية المنطقية، وأما النفس الشهوانية والغضبية فهما مغايرتان للنفس العقلية، وأن الطاعة والإيحاء لا يحصلان إلا من الله ﷻ بقوله: ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ فقد دلت الآية على أن انصراف النفس من الشر لا يكون إلا برحمته، ولفظ الآية مشعر بأنه متى حصلت تلك الرحمة حصل ذلك الانصراف، ويستدرك الرازي قائلاً: لا يمكن تفسير هذه الرحمة بإعطاء العقل والقدرة والألطاف، كما قال القاضي لأن كل ذلك مشترك بين الكافر والمؤمن فوجب تفسيرها بشيء آخر، وهو ترجيح داعية الطاعة على داعية المعصية[1].

فدعت ربها أن يغفر لها ويرحمها، والفاصلة القرآنية مناسبة تماماً بعد اعترافها بما اقترفته من ذنب، في قوله تعالى: (إن ربي غفور رحيم).

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾..

هكذا تمت تبرئة يوسف عليه السلام، وهكذا رأى الملك أن يستخلصه لنفسه ليستفيد من أفكاره، ويستعين به في حكمه، وهذا دليل على فطنة ذلك الملك الذي أدرك أن يوسف شأنه عظيم، وأنه يملك قدرات لا يملكها سواه، وما طلبه الملك إلا بمشيئة الله وإرادته، لأن الله ﷻ أراد ليوسف هذا المسار وهذه الرحلة الطويلة، من بلاده إلى أن يصير وزيراً ثم ملكاً..

---

(١) راجع التفسير الكبير (١٧-١٨/ ١٥٧-١٥٨).

واختلف الرواة في الملك، فمنهم من رأى أنه العزيز، وغيرهم رأى أنه الملك الريان الذي هو الملك الأكبر، وذكروا الكثير من الروايات حول كيفية طلب الملك ليوسف وكيفية إحضاره وما فعله يوسف والأدعية التي قالها وكلها أخبار لا دليل عليها من الكتاب والسنة، اللهم إلا أنها كلها ترجيحات وتخمينات، والرأي أنه ليس العزيز بدليل سؤاله النسوة وزليخا معهن، وفحوى الكلام يدل على أنه لم يكن يعرف يوسف.

(وقال الملك ائتوني به).. وذلك يدل على أن يوسف لم يأت إليه حين دعاه في المرة الأولى ولم يكن حاضراً وقت سؤال النسوة، كما لم يكن حاضراً وقت اعتراف زليخا، ورجوعها إلى الحق وطلب التوبة والمغفرة.

وطلب الملك ملزم، وأراد من طلبه أن يستخلصه لنفسه، أي يجعله خالصاً له وخاصاً به، وهنا يوجد في الآية إيجاز بالحذف لعبارات كثيرة بمعنى: فسمع الملك كلام النسوة، واعتراف الزوجة، وبراءة يوسف، فأراد رؤيته فأمر بإحضاره فذهب الرسول إلى يوسف عليه السلام وأبلغه بطلب الملك وتهيأ يوسف للذهاب واستقبال الملك له، وغيرها من أحداث توالت إلى أن كلمه في قوله (فلما كلمه)..

١- **قيل:** أن المراد بالضمير الملك، لأنه من المعروف أنه لا يحسن في مجالس الملوك لأحد أن يبتدئ بالكلام وإنما الذي يبتدىء به هو الملك.

٢- **وقيل:** المراد فلما كلم يوسف الملك ورأى حسن منطقه بما صدق به من الخبر، لأنه من الممكن أن يكون الملك قد أشار له بأن يتكلم.

وعندما تكلم يوسف، قال الملك: (إنك اليوم لدينا مكين أمين)، أي إنك منذ هذا اليوم وبداية من اليوم سوف تكون (لدينا) في حمايتنا ومسؤوليتنا،

(مكين أمين) ذو مكانة ومنـزلة، ومؤتمن على كل شيء، فقد عرفت أمانته وبراءته مما نسب إليه.

وهي حالة يتمكن بها صاحبها مما يريد، وهي كلمة جامعة لكل ما يحتاج إليه يوسف عليه السلام من الفضائل والمناقب، لأنه لا بد في كونه مكيناً من القدرة والعلم.

ووصف يوسف عليه السلام بأنه (مكين) اسم فاعل، فيه زيادة معنى، أي أنه سوف يكون لدى الملك أكثر تمكناً وأعلى مكانة، واستعمال (مكين) أبلغ من لو قيل: ذو مكانة، وتمكين الملك ليوسف ومنحه الأمان، جعل يوسف عليه السلام يطلب منه أن يجعله وزيراً على خزائن مصر، وفي الكلام حذف معنا: أن يوسف عليه السلام عندما اطمأن على وضعه عند الملك، وأن الملك قد مكنه وأمنه، فكر أن يقوم على خزائن مصر يصرفها حتى ينقذ البلاد من السنين العجاف، المقبلة، والتي سوف تحدث أزمة اقتصادية، إذا لم يكن هناك وزير مالية قوي يستطيع أن يصرف أموره ويستعد لهذه الأزمة.

لذلك أقنع الملك بأن يجعله على (خزائن الأرض) أي: ولني خزائن أرضك، أو أرض مصر، فجاء اللفظ معرفاً بـ(ال) وكأن خزائن أرض مصر تشمل خزائن الأرض كلها، والأمر ليس لازماً، وإنما هو يحثه طالباً أن يسند إليه هذه المهمة وسوف يقوم عليها خير قيام.

وقوله: (اجعلني) يُذكر الفعل بما فعل إخوة يوسف حين (أجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب)، فالفعل واحد والموقف مختلف، إنهم جعلوه في غيابت الجب، للتخلص منه، وفي المقابل جعله الملك على خزائن مصر وتمسك به واستخلصه لنفسه، فالفعل تم توظيفه في موقفين متناقضين.

وحاول يوسف عليه السلام أن يقنع الملك ويؤثر عليه فأكد له بجملة الخبر أنه (حفيظ عليم) أي: أمين يحفظ ما يستأمنه عليه، عالم بوجوه التصرف، حفيظ بجميع مصالح الناس، عليم بجهات حاجاتهم، وهو بذلك يصف نفسه بالأمانة والكفاية وهما مما يطلبه الملك فيمن يولونه شؤون الناس.

وطلب يوسف عليه السلام من الملك ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل، والتمكن مما لأجله تبعث الأنبياء إلى العباد، ولعلمه أن أحداً لا يمكنه القيام بما سيقوم به، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا.

ويناقش المفسرون طلب يوسف عليه السلام ويتساءلون: كيف جاز له أن يتولى عملاً من يد كافر، ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته؟

يجيب الزمخشري[1]: أنه روى مجاهد أنه كان قد أسلم، فإن كان كافراً ولم يسلم فقد روي عن قتادة: هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر، وإذا علم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق، فله أن يستظهر به، كما قيل: أن الملك كان يصدر عن رأي يوسف ولا يعترض عليه في كل ما رأى، فكان الملك في حكم التابع له والمطيع.

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾.

---

(١) راجع الكشاف ٤٨٢.

ولا بد للمتلقي أن يتذكر قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾[١].

عندما نجاه الله ﷻ من الجب، وعندما نجاه من السجن قال في الحالتين: (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض..)، لتتحقق مشيئة الله ﷻ، فإن الله ﷻ إذا قال لشيء: ﴿كن فيكون﴾، إنه قادر على كل شيء، وقد كان قَدَرُ يوسف عليه السلام أن يمر بكل هذه المصاعب في حياته لحكمة يعلمها الله، يحاول العلماء والمهتمون بتفسير القرآن جهد طاقتهم الوقوف على العلل والأسباب.

وتكرار جملة (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض) فيها ما يدل على قدرة الله ومشيئته، وإن التكرار هكذا أحد عناصر بلاغة القرآن، ودلالة على المقصد الأساس الذي بنيت عليه سورة يوسف، وهو تغليب إرادة الله، ولكن التكرار لم يحدث بدرجة واحدة، ومعنى واحد.

ففي الآية الأولى مكن الله ﷻ ليوسف عليه السلام في الأرض ليعلمه من تأويل الأحاديث، أما وقد كبر، وتم تعليمه فقد كان التمكين في الأرض ليتبوأ منها حيث يشاء، وقدر له الله ﷻ أن يعتلي عرش مصر وأن يتم الله نعمته ويجعله آية للناس.

ففي قوله: (وكذلك) الكاف منصوبة على التمكين، و(ذلك) إشارة إلى ما تقدم، أي: ومثل ذلك الإنعام الذي أنعمنا عليه في تقريبنا إياه من قلب الملك، وإنجائنا إياه من غم الحبس، و(مكنا ليوسف في الأرض) أي أقدرناه على ما يريد برفع الموانع، والسامع للفظ (مكنّا) يستشعر هذا التثبيت والدعم الذي ناله يوسف، من الله ﷻ.

---

(١) آية: ٢١.

وفي الكلام إيجاز بالحذف مفاده: أن يوسف عندما طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، قال الملك قد فعلت وجعلتك المتصرف فأرني ماذا تفعل؟ فلم يذكر في السورة هذا المحذوف، لأنه مفهوم من السياق ولأن إجابة الملك له سبب ظاهر، وأما المؤثر الحقيقي والفاعل الحقيقي، فليس إلا الله تعالى الذي مكنه في الأرض، وذلك لأن ذلك الملك كان في يده القبول أو الرفض، فنسبة قدرته إلى القبول وإلى الرد على التساوي، وما دام يبقى هذا التساوي امتنع حصول القبول، إذاً فلا بد وأن يترجح القبول على الرد في خاطر ذلك الملك، وذلك الترجيح لا يكون إلا بمرجح وهو أمر الله تعالى، وإذا أراد لشيء أن يكون فإن أمره القبول لا محالة، فالتمكين ليوسف في الأرض ليس إلا بأمر الله دفعه في قلب الملك، فلهذا السبب ترك ذكر إجابة الملك واقتصر على ذكر التمكين الإلهي، لأن المؤثر الحقيقي ليس إلا هو.

وقوله: (يتبوأ منها حيث يشاء) يدل على أنه صار في الملك بحيث لا يدافعه أحد، ولا ينازعه منازع، فكل مكان يتخذه منزلاً ومتبوأ أينما أراد، ولتأكيد أن ذلك كله بفضل من الله يمنحه لمن يشاء قال: (نصيب برحمتنا من نشاء) أي نصيب بعطائنافي الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (من نشاء) أي من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك.

نتأمل الفعلين (مكنا) و (نصيب) كيف أُسندا إلى لفظ الجلالة المتكلم والفعل الأول في الماضي ليدل على أن التمكين تم ولا مجال لاستحداث حال جديدة ، و (نصيب) مضارع مستمر للدلالة على أن الله سبحانه وتعالى مستمر في العطاء برحمته وإرادته .

والجملة مفصولة مستأنفة عما سبق لأنها إجمال بعد تفصيل ولو ذكرت الواو ظن المتلقي أنه كلام مغاير، وقوله (ولا نضيع أجر المحسنين) أي نـأجرهم في الدنيا والآخرة، وضياع الأجر عند الله أمر ممتنع، وعطفت الجملة المنفية على ما قبلها للاتفاق في الخبر وزمن الفعل والفاعل، وبين الفعلين مطابقة خفية بالسلب في (نصيب) (لا نضيع) .

إذاً أمر يوسف عليه السلام كان معلقاً: بمشيئة الله وقدرته، وهذه شهادة من الله عز وجل على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين، وتكذيب لكل من ادعى على يوسف عليه السلام خلاف ذلك فمن فسروا ﴿وهم بها﴾ على أنه فَعَل ، وصدر منه الهم، فكل ما قالوه في هذا الصدد مردود غير مقبول بشهادة الله عز وجل له بأنه كان من المحسنين وبدلات أخرى سبق ذكرها .

وقوله: (ولأجر الآخرة خير) لما ذكر الله عز وجل أجر يوسف عليه السلام المحسن في الدنيا، أراد أن يوكد أن أجره في الآخرة خير من الدنيا، فإن كان قد وصل إلى المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الدنيا، إلا أن الثواب الذي أعده الله لـه في الآخرة خير وأفضل وأكمل.

ولفظ (خير) يدل على أن أحد الأجرين أفضل من الآخر، أي أن خير الآخرة هو الخير، وأما ما سواه فعبث، واللام في (لأجر) لام الابتداء[1] لتوكيد مضمون الجملة بعدها.

---

(١) لام الابتداء: سميت هكذا لأنها لا تأتي إلا في ابتداء الكلام وتفيد التوكيد لمضمون الجملة بعدها وتدل على المبتدأ باتفاق، واختلف في دخولها على الفعل. راجع المعجم الوسيط حرف "اللام".

وقوله: (للذين آمنوا وكانوا يتقون) يعطي تفسيراً آخر للآية وهو: أن أجر الآخرة يكون خيراً موقوفاً على الذين آمنوا وكانوا يتقون، فعطف (وكانوا يتقون) لأن الجملتين متفقتين في الخبر معنىً لا لفظاً، والموصوف واحد، بمعنى: وحالهم أنهم كانوا يتقون، أي: أنه كان كذلك، وهذا تنصيص من الله تعالى على أن يوسف كان من المتقين، يضاف إلى ما سبق من عبارات تؤكد تبرئة يوسف عليه السلام بعد قوله: ﴿ولقد همت به وهم بها﴾ فكان هذا شهادة من الله عز وجل أنه من المتقين تضاف لقوله: ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ وشهادة من الله عز وجل أيضاً على أنه من المخلصين في قوله: ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾.

وأجر الآخرة هو الأفضل لأنه الدائم، وفي الآية إشارة إلى أن حال يوسف عليه السلام في الآخرة ستكون خيراً من حالته العظيمة في الدنيا.

لقـــاء الإخـــوة

﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّـــا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلا تَقْرَبُـــونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾.

وتبدأ مرحلة أخرى من حياة يوســـف ﷺ بعـــد أن مكنــه الله ﷻ في الأرض، وتولى خزائن مصر، ويروي المفسرون والمحققون العديد من الروايـــات عن حياة يوسف ﷺ بعد خروجه من السجن، وموافقة الملك لــــه أن يتـــولى العمل كما أراد، فيرون أن الملك توجه وأخرج خاتم الملك وجعلـــه في إصبعـــه وقلده بسيفه، ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت وروى أنه قـــال له: أما السرير فاشدد به ملكك، وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي، فقال الملك: قد وضعته إجلالاً لك وإقـــراراً بفضلـــك فجلس على السرير ودانت له الملوك، وفوض الملك إليه أمره وعـــزل قطفـــير، فزوجه الملك، زليخا.. وكلها روايات لا يوجد لها سند من الكتاب أو السنة.

وتروي الكتب أن يوسف ﷺ أقام العدل في مصر، وأحبه الناس، واسـلم على يديه الملك وكثير من الناس، وأعتقهم جميعاً بعد أن استرقهم، ورد عليـــهم أملاكهم التي قدموها في سنين الجفاف والقحط..

ولما أصاب أرض كنعان وبلاد الشام مثل ما أصاب أرض مصر، أرســـل يعقوب ﷺ بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين، وكان يوسف لا يبيع من أحد مـــن الممتارين أكثر من حمل بعير، عدلاً بين الناس وقد اشتهر عنه أنه رجل صالح يمير الناس، وكانت هذه الواقعة سبباً في التقاء يوسف ﷺ مع إخوته وتصديقاً لقوله تعالى: ﴿لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾.

(وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون)..

والواو استئنافية لزوم الحكاية، والجملة انتقالة لمرحلة جديدة في حياة يوسف عليه السلام يدل السياق على مرور الزمن وانقضاء السنين، التي مرت بمصر من سنين رخاء ثم جدب ثم انقضاء الأزمة وعودة الرخاء مرة أخرى، وعندما دخل إخوته عليه عرفهم، فإن طول العهد، ومفارقته إياهم في سن الحداثة لم تجعله ينساهم بل عرفهم.

قوله: (وهم له منكرون) و لم يقل: (وهم لم يعرفوه) ذلك لأن المعنى يدل على أن القضية لم تكن التعرف عليه، روي إنما لأنهم اعتقدوا أنه ربما هلك، أو لذهابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان، عن حاله التي فارقوه عليها طريحاً في البئر، مشرياً بدراهم معدودة، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم.

قيل: ولعله أمر من الله ألا يعرفونه ليتحقق قوله فيهم وتتحقق الرؤيا..

كذلك من دواعي إنكارهم له روي أنهم وجدوه في زي فرعون عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج، فما خطر ببالهم أنه هو..

وقيل: ما رأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الحوائج، وإنما عرفهم لأنه فارقهم وهم رجال ورأي زيهم قريباً من زيهم إذ ذاك، ولأن همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم، فكان يتأمل ويتفطن، وخاصة أنه يتذكر الرؤيا التي فسرها وعرف أنهم سوف يأتون إليه وكذلك قوله: (لتنبئنهم) جعله مترصداً لذلك الأمر.

ولكن المتأمل في قوله تعالى: (كانوا له منكرون) يلحظ دلالة العبارة على أنهم في قرارهم لم يكونوا يرغبون في التعرف عليه، فكانوا ينكرون أعينهم، حتى إذا فكروا في احتمال أن يكون أخوهم فإن عقولهم تنكر ذلك، فإن الإنسان إذا تنكر لغيره، يعني أنه لا يتعرف عليه عن قصد. فإن (منكرون) اسم فاعل ، وتقديم الجار والمجرور (له) يؤكد أنهم خصوه بالإنكار ، وقولنا : فلان أنكر فلان عندما أتاه يعني أن يعرفه لكن ينكره .

(ولما جهزهم بجهازهم) أي زودهم بما يحتاجون إليه في السفر وأوفر ركابهم بما جاؤوا من الميرة قال: (ائتوني بأخ لكم من أبيكم)، وفي الكلام قبله إيجاز بالحذف فكان على يوسف أن يتحاور معهم ليطلب منهم أخاه "بنيامين" دون أن يتشككوا في أمره، فإنه لابد أن يكون قد تكلم معهم قبل أن يسألهم فقد روي العديد من الروايات حول سؤالهم من هم؟ ومن أين أتوا؟ ولماذا؟ وعددهم؟ إلى غير ذلك من أسئلة وهم يجيبون عليه، إلى أن طلب منهم أن يأتوه بأخٍ لهم من أبيهم، ولعله كان في قوله هذا تنبيه لهم أن يعرفوه لكنهم ظلوا منكرين له، وهذا دليل على أنهم أنكروه عن قصد.

ويذكر الزمخشري ما روي عن لقاء يوسف عليه السلام بإخوته وقد عرفهم وهم لم يعرفوه: أنه لما رآهم وكلموه بالعبرانية..

قال لهم: أخبروني من أنتم؟ وما شأنكم؟ فإني أنكركم.

قالوا: نحن قوم من أهل الشام رعاة، أصابنا الجهد فجئنا نمتار.

فقال: لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادي؟

قالوا: معاذ الله، نحن إخوة بنو أب واحد، وهو شيخ صدِّيق من الأنبياء، اسمه يعقوب.

قال: كم كنتم؟

قالوا: كنا اثني عشر، فهلك منا واحد.

قال: فكم أنتم ها هنا؟

قالوا: عشرة.

قال: فأين الأخ الحادي عشر؟

قالوا: هو عند أبيه يتسلى به من الهالك.

قال: فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون، وأن الذي تقولون حق؟

قالوا: إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا.

قال: فدعوا بعضكم عندي رهينة وائتوني بأخيكم من أبيكم، وهو يحمل رسالة من أبيكم حتى أصدقكم..

فاقترعوا بينهم، فأصاب القرعة "شمعون"، وكان أحسنهم رأياً في يوسف، فخلفوه عنده..

وكثير من هذه الروايات ضعيفة، لأن يوسف قال: (ائتوني بأخٍ) بالتنكير، لأنهم لو عرفوه بأخيهم لقال: (ائتوني بأخيكم)..

ويرى أبو حيان أن التنكير للمبالغة في كونه لا يريد أن يتعرف لهم ولأنه يدري من هو؟[1].

وقوله: (ألا ترون أني أوفي الكيل) فإن (ألا[2]) للتحضيض، إذ يحاول أن يحرضهم ويغريهم بكرمه وسخائه وأنه يوفي الكيل ويتمه ولا يبخسه ويزيدهم

---

(١) البحر المحيط، (١/٣١٩).

(٢) ألا: حرف تحضيض، وذلك حينما تدخل على الجملة الفعلية. راجع المعجم الوسيط في الإعراب ٥٢٠.

حمل بعير كما قالوا لأبيهم، كل ذلك ليأتوا بأخيهم طمعاً في الكيل، والحصول على ما يريدون وزيادة.

وقوله: (وأنا خير المنزلين) أي: خير المضيفين لأنه حين أنزلهم أحسن ضيافتهم، وهو يحاول بهذه الجملة المؤكدة ـ أيضاً ـ أن يؤنسهم ويستميلهم، ثم يتوعدهم إن لم يأتوا به إليه أن يحرمهم من الميرة بقوله: (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون)، بجملة شرط، جوابها منفي (فلا كيل لكم عندي) وقوله: (ولا تقربون) يحتمل أن يكون نهياً، وأن يكون نفياً مستقبلاً، أو نفياً بمعنى النهي داخلاً في الجزاء مجزوماً معطوفاً على محل (فلا كيل لكم عندي).

وكما هو واضح فإن يوسف في طلبه جمع بين الترغيب والترهيب، وذلك لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام، فأخذ يساومهم على ذلك، وهو يعلم أنهم سوف يتحايلون على أبيهم لأخذ أخيه وإحضاره، كما فعلوا معه.

وظاهر كل ما فعله يوسف عليه السلام معهم يدل على أنه بوحي من الله، وإلا كان مقتضى البر أن يبادر إلى أبيه، ويستدعيه، لكن إرادة الله أن تكتمل محنة يعقوب ليؤجر على كل ما عانى، وليستمر إخوته في المخادعة في قولهم: (سنراود عنه أباه) أي سنخادع عن بنيامين أباه ونجعله يتركه يأتي معنا، كما خادعوا أباهم عن يوسف، اليوم يفعلون، ولكن هذه المرة ليس لإبعاد أخيهم ولكن ليحصلوا على ما أرادوا من تجارة ومن زيادة في الكيل، فهم من أجل ذلك مستعدون للاجتهاد في الاحتيال عليه حتى ينزعوه من يده لذلك يقولون (وإنا لفاعلون) جملة من الضرب الإنكاري بمعنى: وإنا لقادرون على ذلك، لا محالة لا نفرط فيه ولا نتوانى، وفي الجملة معنى القسم، ويمكن أن تكون تكرير للتأكيد بمعنى: وإنا لفاعلون هذه المراودة لنجيئك به.

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾..

والواو استئنافية، فبعد أن خاطب إخوته، وردوا عليه بالإجابة لطلبه، توجه بالخطاب إلى (الفتية[1]) جمع فتى، (اجعلوا بضاعتهم في رحالهم) فعل أمر لازم التنفيذ، وقوله (لعلهم يعرفونها) يدل على أن يوسف عليه السلام أمر غلمانه الكيالين أن يضعوا بضاعتهم في رحالهم، دون أن يعرف إخوته بأمرها..

والمعنى كما ذكر الزمخشري: لعلهم يعرفون حق ردها وحق التكرم بإعطاء البدلين (إذا انقلبوا إلى أهلهم) وفرغوا ظروفهم.

وإذا كان الحرف (لعل[2]) مشبه بالفعل، ويفيد التوقع والترجي لأمر مرغوب فيه، فإن يوسف يتوقع من إخوته إجابة طلبه لرغبته الشديدة في رؤية أخيه ليضمه إليه ويجلسه معه، وقوله: (لعلهم يرجعون) جملة مستأنفة، فلماذا لم يقل لعلهم يعرفونها فيرجعون، وكرر (لعل)..

والجواب: للتأكيد على رغبته الشديدة في عودتهم بأخيهم ولتعليق الرجوع بترجي معرفة البضاعة وقيل: فعل (يرجعون) متعدٍ، فيكون المعنى: لعلهم يردون البضاعة، وقد روي العديد من التفسيرات في سبب جعله بضاعتهم في رحالهم، ولعل الأقرب ــ والله أعلم ــ أن يوسف عليه السلام أراد أن يجعلها توطئة لجعل السقاية في رحل أخيه بعد ذلك، ليتبين أنه لم يسرق لمن يتأمل القصة، كذلك ربما أراد مقابلة إساءتهم له بإحسانه إليهم.

---

(١) قرئ لفتيانه جمع كثرة على وزن (فعلان)، وقرئ على رأي الجمهور (فتيته) جمع قلة على وزن (فعلة).

(٢) راجع المعجم الوسيط، حرف (اللام).

وقوله: (فلما رجعوا إلى أبيهم)، الفاء استئنافية و(لما) ظرف زمان متضمن معنى الشرط، فإنهم عندما رجعوا إلى مصر ممتارين، فكروا في الطريقة التي يستميلون بها يعقوب لإرسال أخيهم معهم، وذلك بعد علمهم بإحسان العزيز إليهم برد بضاعتهم، لذلك (قالوا يا أبانا منع منا الكيل) بالبناء للمجهول في (مُنع) والمراد يوسف الذي قال لهم (فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي)، فالمنع يراد به في المستقبل أي: سوف يمنع عنا لأنهم عندما ذهبوا كال لهم وجاؤوا أباهم بالميرة "جلب الطعام للبيع"، ولكن لما أنذرهم يوسف بمنع الكيل قالوا: (منع منا الكيل)، لاحظ قوله: (منا) و لم يقل (عنا).

ولأن المراد منع الكيل في المستقبل فقد قالوا (فأرسل معنا أخانا نكتل) أي نرفع المانع من الكيل، ونكتل من المطاعم ما نحتاج، وبذلك جُعل أخوهم سببٌ للاكتيال، والمنع بسببه، وتقديم الجار والمجرور (معنا) للتخصيص، ثم لأنهم محل إنكار من أبيهم وأنه لا يأمنهم، لذلك قالوا: (وإنا له لحافظون) وهو القول الذي قالوه في يوسف من قبل، فالجملة من الضرب الإنكاري، بمعنى: نضمن لك أن نكون حافظين له، فلما قالوا ذلك تذكر يعقوب أنهم سبق وذكروه في يوسف لذلك ﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[١].

يريد أن يقول: إنكم خنتم بضمانكم، فلا يمكن أن آمنكم الآن على بنيامين، وقد أمنتكم في الماضي على يوسف فخنتم و لم تحفظوه، فجاءت (هل) بمعنى النفي (لا)، والاستفهام يفيد التوقيف والتقرير، بمعنى النفي، أي: لا آمنكم عليه، ويكون الاستثناء[٢] المفرغ (إلا) بمعنى الحصر، مع أداة التشبيه (كما)، وفي

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٤.

(٢) تكون إلا أداة حصر: وهي التي تقع في جملة استثنائية حذف منها المستثنى منه (الاستثناء المفرغ) على أن يتقدمها نفي (المعجم الوسيط حرف "الهمزة").

ذلك إشعار بتألمه من فراقه بنيامين كما تألم لفراق أخيه، و لم يصرح بمنعه من إرساله لما رأى من المصلحة، فشبه الائتمان في ابنه بنيامين بائتمانه إياهم في حق يوسف، يريد: أخاف أن تفعلوا به مثل ما فعلتم بيوسف، فتكيدوا له كما كدتم لأخيه.

لكن من الملاحظ أن يعقوب لم يخف على بنيامين كما خاف على يوسف، ويتضح ذلك من قوله: (فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين) استسلم لله، ونُصب (حافظاً) على التمييز، والمنسوب له الخير هو حفظ الله، والحافظ الذي جهة الله، وأجاز الزمخشري نصبه على الحال، وفيه تقييد (خير) بهذه الحال، وقرئ (خير حافظ) على الإضافة، بمعنى: فالله تعالى متصف بالحفظ وزيادته على كل حافظ.

يريد يعقوب ما معناه: وثقت بكم في حفظ يوسف، فكان ما كان والآن أتوكل على الله وأسلم أمري إليه في حفظ بنيامين، وقد يكون اطمئنان يعقوب بسبب أن أبناءه كبروا واستشعر ميلهم للخير والصلاح، بدليل ما قالوه عند تخلصهم من يوسف: (ونكون من بعده قوماً صالحين).

وقوله: (والله خير حافظاً)، قيل: إنه إذنٌ من يعقوب عليه السلام في إرسال بنيامين مع إخوته، وقيل: ليس بإذن، وإنما قال ذلك عندما ذكر أخيه (إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل). والسياق يدل على أنه لا يمتنع أن يكون ذلك دعاء للاثنين معاً، ويكون متضمناً معنى الإذن أيضاً لأنه ربما أوحي إليه أنهما في حفظ الله، والله كفيل أن يردهما.

وقيل: ربما ضرورة القحط أحوجته إلى ذلك، وهذا ضعيف لأن تركه ليوسف لم تكن هناك ضرورة له، وإنما هو نبي الله الذي يتصرف بوحي منه، ويقين أن الله خير حافظاً.

وتأتي الفاصلة القرآنية (وهو أرحم الراحمين) جملة حال مستأنفة ينهي بها يعقوب عليه السلام قوله إيماناً منه بأن الله هو ذو الرحمة الواسعة، فهو يرجو أن ينعم عليه بحفظه ولا يجمع عليه مصيبتين، هكذا جاءت الفاصلة مناسبة تماماً لموقف يعقوب عليه السلام، وهي جملة حالية مربوطة بما قبلها بالواو وضمير ذي الحال، وقوله: (أرحم الراحمين) ليس أسلوب تفضيل بمعنى إدخاله تعالى في زمرة الراحمين وتفضيله عليهم، ولكن المعنى أنه أرحم بعباده وأقدر على ذلك لأنه الأعلم بأحوالهم.

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾[1].

والواو استئنافية و(لما) [2] ظرف زمان متضمن معنى الشرط، ويعني ذلك أنه مرَّ زمن قبل أن يفتحوا متاعهم، فقد كان كل همهم عند وصولهم، استمالة أبيهم لإرسال أخيهم معهم، وبعد ذلك (فتحوا متاعهم)، وقوله: (رُدَّت إليهم) بالبناء للمجهول، لاستكمال عامل المفاجأة والدهشة، إذ أنهم لم يتوقعوا أن يجدوا بضاعتهم، مع علمهم بأنها ردت بأمر الملك، وفي البناء للمجهول إيجاز بالقصر بدلاً من قولهم: أمر الملك معاونيه برد البضاعة إلينا..

(قالوا يا أبانا ما نبغي) و(ما) استفهامية بمعنى: ماذا نريد بعد أن رُدت إلينا بضاعتنا؟ وما الذي بقي لنا لنطلب؟ ويجوز أن تكون (ما) نافية ويكون (نبغي)

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٥.

(٢) لما: مبني على السكون في محل نصب مفعول فيه لفعل (وجدوا).

من البغي، بمعنى ما بغينا وافترينا على هذا الملك، وما نتزيد فيما وصفنا لك من إحسانه وإكرامه، وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك، فإن هذا الملك كريم لم يترك لنا مجالاً لأن نظن فيه السوء. وهكذا فإن حجتهم أصبحت قرينة في أن هذا الملك صادق في كلامه وأنه سوف يميرهم ويزيدهم حمل بعير إذا أخذوا معهم أخاهم..

وجملة (هذه بضاعتنا ردت إلينا) جملة مستأنفة موضحة لقوله (ما نبغي)، والجمل بعدها معطوفة عليها. (ونمير[1]، ونحفظ، ونزداد)، والفائدة تشريك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم، على معنى: إن بضاعتنا ردت إلينا، ويمكن أن نستعين بها (ونمير أهلنا) عند رجوعنا إلى الملك (ونحفظ أخانا) فلا نعرضه إلى مكروه مما تخشاه، وتكرار حفظ الأخ مبالغة في الحض على إرساله، ولكي يطمئن إليهم، أو أن يكون كلاماً مبتدأ، وتكون جملة (نمير) معطوف عليها (نحفظ، ونزداد).

وقوله: (ونزداد كيل بعير) إن استصحاب أخيهم يجعل الملك كما قال يوفي إليهم الكيل ويزيدهم وسق بعير على أوساق بعيرهم، لوجود أخيهم، والمعنى يدل على أنهم أرادوا أن يقولوا: فأي شيء نبتغي وراء هذه المباغي التي نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا، وزيادة حمل البعير إذاً متوقفة على أخيهم؛ لأن يوسف عليه السلام لم يكن يزيد للرجل على حمل بعير، وذلك للاقتصاد.

وقوله: (ذلك كيل يسير) جملة مستأنفة، قد يعود اسم الإشارة (ذلك) على ما يكال لهم، بمعنى ذلك كيل لا يكفينا وعلينا أن نزيده بكيل أخينا، أو أن تكون الإشارة إلى (كيل أخيهم) أي: ذلك الكيل قليل يجيبنا إليه الملك، فإنه

---

(١) قال الأصمعي: ماره، يميره، ميراً.. إذا أتاه بميرة، أي: طعام، ومنه يقال: ما عنده خيرٌ ولا مير. لسان العرب، مادة (مير).

سهل عليه أن يمنحه لنا وهو الرجل المحسن، السخي، الحريص على البذل، يسير عليه أن يعطيه، كما وعد بذلك، ويجوز أن يكون من كلام يعقوب عليه السلام بمعنى: ذلك كيل قليل لا يجب للمخاطرة بابنه من أجله، ومعنى ذلك أن ظاهر الكلام أنه من كلامهم، وهو من كلام يعقوب، وهذا بعيد والمرجح أن يكون من كلامهم، "وهذا تحميل للقرآن ما يبعد تحميله، وفيه مخالفة لظاهر الدليل"[1].

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِي مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[2].

والموثق[3]: العهد الذي يوثق به، وقوله من الله، أي: عهداً موثوقاً به، أي: مؤكداً بإشهاد الله عليه، والقسم بالله عليه، وقد وضع يعقوب الموثق شرطاً لإرسال ابنه معهم، فيقول (لن أرسله معكم حتى) تعطوني موثقاً، فقد كان عليه أن يؤمن سلامة ابنه بعد أن ألحوا عليه في طلبه، وقوله: (لتأتنني) جواباً للحلف، بمعنى: حتى تحلفوا لتأتنني به، أو بشرط أن تحلفوا .

وقوله: (إلا أن يحاط بكم)، و(إلا) أداة حصر دخلت على جملة استثنائية حذف منها المستثنى منه، ويسمى (الاستثناء المفرغ)، ولا بد في هذه الحالة أن يتقدمها نفي، لذلك وجب تأويل (لتأتنني) على النفي، بمعنى لا تمتنعون عن الإتيان إلا أن يحاط بكم، بمعنى: إلا أن تغلبوا فلا تقدرون على إعادته، أو تهلكوا جميعاً، وبذلك يكون يعقوب قد أثبت لهم علة واحدة تمنعهم من الإتيان به، وهي: أن يحاط بهم؛ في هذه الحالة فقط سوف يتقبل بعده وفراقه، إذا كان تركه لأمر خارج عن إرادتهم، أو أن يحاط بهم جميعاً فلا يتمكنوا من العودة.

---

(١) البحر المحيط: ٣٢١/٥.

(٢) سورة يوسف، آية: ٦٦.

(٣) الموثق: مصدر بمعنى الثقة، وهو مصدر بمعنى المفعول.

وهو استثناء من أعم العام في المفعول له (أن يحاط بكم)، وهذا النوع من الاستثناء لا يكون إلا في النفي وحده، وهو لفظ عام لجميع وجوه الغلبة، بحيث لا يكون لهم حيلة ولا وجه تخلص، ولا يتمكنون الإفلات من الخطر.

وفي الكلام إيجاز بالحذف معناه: فأجابوه إلى ما طلبه وآتوه موثقاً، ثم جاء قوله تعالى: (فلما أتوه موثقاً) كلام مستأنف، إذ نفذ الإخوة شرط الأب فيما طلب، وقوله: (والله على ما نقول وكيل) يريد: والله شهيد بمعنى أنه موكول إليه هذا العهد، والمعنى أن الله شهيد على ما نقول من طلب الموثق إعطائه وهو رقيب ومطلع..

إن يعقوب قد ترك أمر أولاده وموثقهم بين يدي الله، وفوض أمره إليه، وقد علم خوفهم وخشيتهم من الله..

﴿ وَقَالَ يَا بَنِي لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[1].

(وقال) معطوف على قوله السابق، متصل به، إذ كان عليه أن ينصحهم ويرشدهم لأنه، لما كان أبناء يعقوب موصوفين بالكمال والجمال والبهاء، نهاهم من الدخول من باب واحد خوفاً عليهم من الحسد، لأنهم كانوا مظنة لطمرح الأبصار إليهم من بين الوفود، وطلب منهم الدخول من أبواب متفرقة، والآية فيها إيجاز بالحذف ومعناه: قال "يا بني عندما تدخلوا مصر لا تدخلوا من باب واحد، على ما أنتم عليه من العدد والهيئة"، فلم يأمن عليهم من حسد الناس ونظرتهم لهم وهم العصبة من الرجال لأب واحد وبهذا الجمال اللافت، وهذا

---

(١) سورة يوسف، آية: ٦٧.

دليل على أنه خاف عليهم من العين، والنهي (لا تدخلو) والأمر (ادخلو) حقيقي وفيه مطابقة بالسلب أفادت حرص يعقوب على سلامة أبنائه .

وهنا يرد سؤال: لماذا لم يقل لهم يعقوب هذا الكلام في المرة الأولى عندما دخلوا مصر؟

والإجابة كما يرى المفسرون : ربما لأن أولاده في المرة الأولى لم يكونوا معروفين ومشهورين، وإنما كانوا مغمورين مجهولين، حتى تحدثوا إليهم وعرفوا أنهم إخوة، ثم زادت شهرتهم بعد مخاطبة الملك لهم وقول الناس إنهم أضياف الملك أكرمهم وقربهم، وفضلهم على الوافدين، فخاف عليهم يعقوب أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيصيبهم ما يسوءهم.

وقوله: (وما أغني عنكم من الله من شيء) أي: إن أراد الله بكم سوءاً لن ينفعكم نصحي لكم بالتفرق؛ لأن الله ﷻ يصيب من يشاء مهما احتاط، لو قضى أن يصيبهم مجتمعين أو متفرقين، وقد تركبت الآية من عدة مجرورات (معمولات الفعل)، وفيها تقديم إذ المعنى: وما أغني شيئاً عنكم من الله، فقدم الجار والمجرور (عنكم) للتخصيص، وأخَّر (من شيء) المفعول لأن الأولى تقديم لفظ الجلالة (من الله)، ولاحظ مجيء (من) التبعيضية في (من شيء) بمعنى: بعض الشيء، والجملة جواب شرط (لما) في قوله: (فلما أتوه موثقهم)؛ لأن (لما) حرف يترتب جوابه على ما بعده، وقال ابن عطية: "ويجوز أن يكون جواب (لما) محذوفاً مقدراً، ثم يخبر عن دخولهم أنه ما كان يغني"[1].

ونفى بعض المفسرين[2] أن تكون (لما) بمعنى حين، إذ لو كانت ظرف زمان ما جاز أن تكون معمولة لما بعد ما النافية".

---

(١) البحر المحيط: ٥/٣٢٣.

(٢) المرجع السابق: ٥/٣٢٣.

والرد أنه من الممكن أن تكون ظرف زمان، بمعنى: فحين أتوه موثقهم، قال: الله على ما نقول وكيل، ثم يخبر عن دخولهم أنه لم يكن في دخولهم متفرقين دفع قدر الله الذي قضاه عليهم، ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، وإنما طمع أن تصادف وصيته قدر السلامة فوصى، وفي ذلك إشارة إلى مراعاة الأسباب في الدنيا، مع الإيمان بوجود المسبب.

وقوله: (إن الحكم إلا لله) جملة قصر، و(إن) بمعنى (ما) من قصر الحكم على الله قصراً حقيقياً، وهي جملة مؤكدة للمعنى السابق، لذلك تركت الواو، لوجود شبه كمال اتصال بين الجملتين، لمجيء الثانية كالمورد للسؤال، فتفصل عنها كما يفصل الجواب عن السؤال، ويسمى الفصل استئنافاً، والجملة الثانية تنبيه للغافل أن القدر لا يدفعه الحذر، وأن قضاء الله نافذ مهما روعيت الأسباب.

وقوله: (عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون) جملة أخرى مستأنفة بتقديم الجار والمجرور (عليه) للتخصيص، والفصل من كمال الانقطاع لعدم وجود مناسبة في المعنى ولارتباط بين المسند إليه فيهما ولا بين المسند، فإن يعقوب عليه السلام بعد أن أسند الحكم لله وحده قصد توكله عليه، وقوله: (وعليه فليتوكل المتوكلون) قصر آخر معطوف على ما قبله واللام[1] في (فليتوكل) عاملة للجزم، موضوعة للأمر ساكنة بعد الفاء.

والمعنى: توكلوا على الله إن أردتم أن تتوكلوا، فالله هو المخصوص بالتوكل، فإنه لما ثبت أن الأمر بيد الله ولا حكم إلا لله لزم أنه لا توكل إلا

(١) اللام العاملة للجزم: هي اللام الموضوعة للأمر حركتها الكسر مثل: لينفق ذو سعة من سعته)، وإسكانها بعد الواو والفاء العاطفتين أكثر من تحريكها. انظر: المعجم الوسيط في الإعراب حرف (اللام).

عليه، ويلاحظ التوازن الصوتي بتكرار (عليه) والجناس بالاشتقاق في (توكلت، فليتوكل، المتوكلون).

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وقوله: (من حيث أمرهم أبوهم) كناية عن دخولهم متفرقين، وجملة جواب الشرط (ما كان ليغني عنهم من الله من شيء) تكررت للتوكيد على أن الأمر بيد الله، وأنه لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم، وأن حذر يعقوب عليه السلام لن يغني من القدر؛ لأن دخولهم متفرقين تسبب في أن تمكن الملك من أمر جنوده أن يضعوا صواع الملك في رحل أخيهم، وحجزه فتضاعفت المصيبة على أبيهم.. وقد يكون كل ذلك بتدبير من الله.

وقوله: (إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها) قدم (في نفس) للتوكيد وترتيب الجملة: إلا حاجة قضاها يعقوب في نفسه، وقوله: (إلا حاجة) استثناء منقطع، على معنى: ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهي حرص وخوف عليهم من إصابة العين والحسد أو خوفه من أن يقصدهم ملك مصر بشر أو خوفه عليهم من أن لا يرجعوا إليه، أو أن يكون بوحي من الله ليتم ليوسف ما أراد من الانفراد بأخيهم.

وقوله: (إنه لذو علم لما علمناه) والجملة مستأنفة خبرية من الضرب الإنكاري معطوفة لأنها تفسير وتوضيح لما قبلها...

---

(١) سورة يوسف، آية: ٦٨.

بمعنى: من أجل، والتقدير: إنه لذو علم من أجل تعليمنا إياه.. أو يحتمل أن تكون بمعنى (الذي) والهاء عائدة إليه، والتقدير: وإنه لذو علم للشيء الذي علمناه، يعني أنه لما علمناه شيئاً حصل له العلم بذلك الشيء.

ويذكر الفخر الرازي[1] أن في الآية قولان:

الأول: أن المراد بالعلم الحفظ. أي أنه لذو حفظ لما علمناه ومراقبة له.

الثاني: لذو علم لفوائد ما علمناه وحسن آثاره وهو إشارة إلى كونه عاملاً بما علمه..

وقوله: (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الواو استئنافية و(لكن) عاطفة للاستدراك وللمعنى وجهان[2]:

الأول: ولكن أكثر الناس لا يعلمون مثل ما علم يعقوب.

الثاني: لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة من العلم.

وقوله: (أكثر الناس) يريد من الكافرين، ولم يقل: (ولكن الناس) للدلالة على أن القليل يعلمون ولكن يكتمون علمهم.

وقوله: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3].

ذكر المفسرون روايات كثيرة عما دار من حديث بين يوسف وإخوته، ولا سند لهذه الروايات، ومنها ما روي أنهم لما دخلوا على يوسف قالوا له: هذا

---

(١) التفسير الكبير: ١٧٧.

(٢) المرجع السابق: ١٧٧.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٦٩.

أخونا قد جئناك به، فقال لهم: أحسنتم وأصبتم، وستجدون ذلك عندي، فأنزلهم وأكرمهم، وقوله: (آوى إليه أخاه)، بمعنى: ضم إليه بنيامين، أي أنزله في الموضع الذي كان يأوي إليه وربما يكون المراد: أن يوسف أصبح بمثابة المأوى لأخيه، والجملة جواب (لما).

وقوله: (قال إني أنا أخوك)، السياق أن يعطف (بالواو) لإفادة تشريك المعطوف والمعطوف عليه في الحكم. ولكن جاء الفصل لأن بنيامين عندما أواه أخوه يوسف إليه تعجب وسأل نفسه: لماذا اختارني أنا من دون إخوتي، فجاء قول يوسف عليه السلام كالجواب على سؤاله، بجملة خبرية من الضرب الإنكاري، مؤكدة بـ(أن) والضمير المنفصل (أنا) ليؤكد له أنه أخوه الذي ظن أنه هلك فلم يكن من السهل على بنيامين أن يصدق ذلك وخاصة أن يوسف تركه وهو صغير والآن وقد صار ملكاً احتاج أن يؤكد الخبر، ليزيل عنه الوحشة والتساؤل، لحصول المسرة والأنس.

وقوله: (فلا تبتئس بما كانوا يعملون)، واضح أن في الكلام حذف للإيجاز فمن المتوقع أن يدور بينهما حديث طويل عن إخوته وما فعلوه بهما فيما مضى، فيتألم بنيامين لذلك فيقول له: (لا تبتئس) أي لا تحزن، أو يكون المعنى: بما أنك علمت أني أخوك يوسف فلا تحزن، والفاء استئنافية والنهي حقيقي، وتبتئس على وزن "تفتعل". والظاهر أنه حكى له ما فعلوه به فحزن بنيامين فقال له: (لا تبتئس).

ويكون قوله: (بما كانوا يعملون) أي بما كانوا يصنعوه فيما تقدم، من حسد يوسف وما فعلوه به لإبعاده عن أبيه لأنه كان يخصه بمزيد الإكرام، والاهتمام، فخاف بنيامين أن يحسدوه مرة أخرى بسبب أن الملك خصه ـــ أيضاً ـــ بمزيد الإكرام فأمنه منه، وقربه إليه، ووثق في عمله، يريد يوسف: لا

تلتفت إلى ذلك فإن الله قد جمع بيننا، وأحسن إلينا، والجملة جامعة لكل ما فعل إخوة يوسف من أعمال منكرة.

أراد يوسف أن يبين لأخيه أنه ما بقي في قلبه شيء من العداوة ضدهم وصار صافياً، فأراد أن يجعل قلب أخيه صافياً معهم أيضاً، كما يبدو أنه أوضح لأخيه أنه سوف يحتال على إخوته، ليبقيه معه، وعرفه أن ذلك أمر مؤقت، وأنه أعلمه بما سيفعل من وضع صواعه في رحله، لكي يجد الحجة لحبسه عن إخوته.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾[1].

و(الفاء) استئنافية، و(لما) ظرف زمان بمعنى الشرط يفيد الانتقال من زمان لزمان آخر (والسقاية) مشربة يسقي بها وهي الصواع، كان يسقي بها الملك، ثم جعلت صاعاً يكال به، ولها أوصاف عدة في التفاسير، وفي (جهزهم بجهازهم) جناس اشتقاق ، وقوله: (جعل السقاية في رحل أخيه) جواب الشرط، وفي الكلام حذف بمعنى ولما أعدوا رحالهم واستعدوا، وبدأت تتحرك ركابهم (أذن مؤذن) و(ثم) تعطف الجملة مع إفادة الترتيب والتراخي في الزمن، بمعنى أن يوسف أمهلهم إلى أن انطلقوا في طريق العودة، ثم أمر المؤذن أن يؤذن، بمعنى نادى المنادي.

وقوله: (أيتها العير إنكم لسارقون) فالنداء لسرعة التنبيه بمعنى قفوا ولا تذهبوا، وفي نداء العير مجاز مرسل، فالمراد أصحاب العير، وقيل: إن العير هي: "الإبل" التي حملت تجارتهم، وقيل: إنهم كانوا يستعملون الحمير، ولكثرتها وكثرة

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٧٠-٧٢.

استعمالها سميت مجازاً بالعير، ويجوز أن تطلق العير على القافلة أو الرفقة، فلا يكون من المجاز بالحذف، ودليل ذلك قوله في موضع سابق: (والعير التي أقبلنا فيها).

وتعميم التهمة (إنكم لسارقون) معناها أن السارق واحد منكم، كقولهم "بنو فلان قتلوا فلان" والقاتل واحد منهم. أو ربما بمعنى أنكم جميعاً مشاركون في السرقة، والمعنى الأول موافق للسياق، لأن المقصود من التهمة إبقاء بنيامين مع يوسف. وقوله: (إنكم لسارقون) دليل على أن المراد أصحاب العير وهم إخوة يوسف عليه السلام والجملة من الخبر الإنكاري للتوكيد، وفي ذلك ما فيه من إدخال الروع في نفوسهم، وما فعل يوسف ذلك إلا بوحي من الله، لما علم في ذلك من الصلاح.

وفسّر بعضهم[1] (إنكم لسارقون) بمعنى إنكم لسارقون يوسف من أبيه، وهو تفسير بعيد، والأقرب إلى ظاهر الحال أن المراد سارقون صواع الملك.

وإذا قيل: كيف لنبي الله أن يحتال على إخوته، ويجعل السقاية في رحل أخيه، ثم ينادي المنادي متهماً لهم بالسرقة؟

وضع المفسرون العديد من الإجابات لهذا السؤال، والظاهر أن يوسف أطلع بنيامين على هذه الحيلة، لاتخاذها حجة لإبقائه معه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بهذا التصرف، وأن يوسف ما فعل ذلك إلا بوحي من الله. وإنهم لما فعلوا ما فعلوا استجيز أن يقال لهم هذا، وتنسب السرقة لهم جميعاً.

---

(١) راجع التفسير الكبير: ١٧-١٧٩/١٨.

والتفت إخوة يوسف للمؤذن الذي يناديهم ويتهمهم بالسرقة، وهم في دهشة يتساءلون عما فقد؟ في قوله: (قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون؟) ويجيء الفعل (قالوا) مستأنفاً، ليدل على حالة الإنزعاج التي أصابتهم ، فجاء القول وهم في حالة إقبال فإن قوله : (وأقبلوا عليهم) جملة حال : أي أقبلوا على طالبي السقاية، أو على المؤذن أو يكون الإقبال عليهم جميعاً، بدليل صيغة الجمع، وساءهم أن يُرموا بهذه المثلية، وربما يتبادر سؤال: لماذا قدم القول على الإقبال؟

والإجابة: إن ذلك دليل براءتهم لأنهم لم ينتظروا أن يعودوا من حيث بدأوا الرحيل، وعندما يصلون يسألون: فإذا قال: وأقبلوا عليهم وقالوا ماذا تفقدون؟ لا يدل على استغرابهم أو دهشتهم، لكن البريء دائماً يسارع في الرد قبل الحركة، لذلك سبق القول، وللدلالة على أن القول جاء في أثناء إقبالهم، بمعنى: قالوا وهم مقبلون، و لم يلوذوا بالإنكار، ويستمروا في مسيرهم.

والقول هو السؤال: ماذا تفقدون؟ وقد أقبلوا مستعدين للتفتيش، لتظهر براءتهم، لأنهم واثقون أنه ما من أحد منهم يتجرأ على السرقة، لذلك لم يقولوا ماذا سرقنا.

واحتمل أن يكون (ماذا) استفهاماً في موضع نصب: أي تفقدون ماذا؟ أو يحتمل أن يكون (ما) وحدها استفهاماً مبتدأ، و(ذا) موصولة بمعنى (الذي) خبر عن (ما) وتفقدون صلة لـ(ذا)، والعائد محذوف، أي: ما الذي تفقدونه؟

وقوله: (قالوا نفقد صواع الملك) وصواع الملك هو (السقاية)، فيجيء الجواب من مضمون السؤال.

وقوله: (ولمن جاء به حمل بعير). وهو من قول طالبي السقاية (الصواع) أي: لمن دل على سارقه حمل بعير زيادة، وقوله: (وأنا به زعيم) من كلام المؤذن، أي: وأنا بحمل البعير كفيل أؤديه إلى من جاء به، فأراد به وسق بعير من طعام لمن حصل (الصواع)، والزعيم[1]: الكفيل بلغة أهل اليمن، يقول الفخر الرازي: قلنا: حمل بعير من الطعام كان معلوماً عندهم، فصحت الكفالة به، إلا أن هذه كفالة مال لرد سرقة، وهو كفالة بما لم يجب؛ لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئاً على رد السرقة، ولعل مثل هذه الكفالة كانت تصح عندهم.

وللرد على ذلك، فإنه ليس المراد أن السارق يأخذ شيئاً على رد السرقة، وإنما المراد من (لمن جاء به) أي شخص يتمكن من العثور على الصواع، له مكافأة.

جاء رد إخوة يوسف سريعاً مستأنفاً بعد كلام المؤذن، بدون أداة (ثم). مثلاً وذلك لأنهم يعلمون أنهم بريئون.

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾[2].

ولنتأمل موقف إخوة يوسف وهم في براءة تامة من السرقة، اندفعوا بالقسم (تالله)[3] ليفيد التعجب مما اتهموا به ومما يحدث ويؤكدون به على

(١) قال الكلبي: الزعيم الكفيل بلسان أهل اليمن، وقال الكسائي: زعمت به تزعم زعماً وزعامة أي كفلت به. وهذه الآية تدل على أن الكفالة كانت صحيحة في شرعهم. التفسير الكبير: ١٧-١٨/١٧٩-١٨٠

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٧٣-٧٥.

(٣) تالله: التاء: حرف جر وقسم مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، متعلق بفعل القسم المحذوف المقدر بـ(أقسم)، المعجم الوسيط في الإعراب (حرف التاء).

براءتهم وأنهم لم يجيئوا للفساد في الأرض، والتاء في (تالله) تختص بالقسم ولا تدخل إلا على لفظ الجلالة، وقد تكررت فيما يلي من السورة (تالله لقد آثرك الله علينا).

وقوله: (لقد علمتم ما جئنا لنفسد) كثرت أدوات التوكيد، التي تساهم مع القسم على إبراء ذمتهم من السرقة، والخطاب لطالبي الصواع: يؤكدون بلغة الحسم والقطع إنهم ما جاؤوا ليفسدوا في الأرض، ثم يعطف جملة (وما كنا سارقين) لأن السرقة نوع من الفساد في الأرض.

وقولهم: (لقد علمتم) يستشهدون بعلمهم، أي بعلم معاوني الملك لأنهم عرفوهم إذ جاؤوا في المرة السابقة طالبين من الملك أن يميرهم، ثم طلب منهم العودة مرة أخرى ومعهم أخوهم ولو أنهم لم يرتكبوا أي إثم في المرتين، والجميع يشهد بذلك..

ولنلحظ كيف تكرر قوله تعالى: (في الأرض) ويراد مصر، للشمول وكأن أرض، مصر هي كل الأرض التي يعرفونها.

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين)؟ أي: إذا كنتم تقسمون على براءتكم، فما جزاء من نجد عنده الصواع، إذا ثبت كذبكم، وهو سؤال الواثق من وجود الصواع في رحلهم.. فلماذا لم يقل: وما جزاؤكم إن كنتم كاذبين؟

والجواب: أن الغرض من الحيلة، حبس بنيامين عنهم، لذلك فإن الجزاء محصور فيه ولو كانت السرقة حقيقية، لتم وقوع الجزاء عليهم جميعاً لأنهم إخوة قد يظن أنهم أتوا للسرقة، ولن تكون السرقة مجرد سرقة صواع الملك، فإن أمره هين.. ولكن يوسف عليه السلام أراد أن يجعله حجة عليهم، لأنه لو طلب منهم ترك أخيهم بدون سبب لتساءلوا عن السبب، ويوسف أراد أن يخفي عنهم حقيقته، إلى أن يأذن الله له بإعلانها..

وكان رد إخوة يوسف عليه السلام في قوله: (قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه) أي: جزاء سرقته أخذ من وجد في رحله، وقوله: (فهو جزاؤه) تقرير للحكم جواب للشرط، أو زيادة في البيان، كما تقول: جزاء السارق القطع فهو جزاؤه، مع علمهم أن الجزاء سيكون بالحبس والاسترقاق.

فقد ذكر المفسرون أنه كان للسارق جزاء معلوم في مصر، أن يضرب ويضعف عليه الغرم.

وقيل: كانوا في ذلك الزمان يستعبدون كل سارق بسرقته، لذلك لم يرد إخوه يوسف تحديد الجزاء، وإنما تركوا ذلك للملك ينفذ شرعهم في السارق وهم في ذلك مطمئنين أنهم ليسوا بسارقين، ويأتي كلامهم دالاً على تلك الحال وأنهم غير مبالين لأنهم بعيدون عن الشبهة، ولا شيء يدينهم.

وقد يدل كلامهم من جهة أخرى على أنهم لن يتحملوا نتيجة الإثم إن وجد، فالسارق مسؤول عن عمله، وهو الحقيق بالجزاء أياً كان ذلك الجزاء.

وقوله: (كذلك نجزي الظالمين) جملة مستأنفة بمعنى: كذلك نجزي الظالمين بالسرقة، وهو سنتنا في أهل السرقة، قيل: إنه من قول أصحاب يوسف، وقيل: إنه من بقية كلام إخوة يوسف، على أساس أنه لو كان بيننا سارق، فقد ظلم، وكذلك نجزي الظالمين بظلمهم، لا نحمل غيرهم نتيجة إثمهم، والسياق يدل أنه من جملة قولهم، وأن سنة قومهم في السارق كانت الاسترقاق ، وكذلك في مصر .

كل ذلك و لم يخطر ببالهم أن يكون الصواع مع أحد منهم، لذلك تكلموا بثقة، وتقدموا للتفتيش دون خوف أو حرج.

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾[1].

والكلام فيه إيجاز بالحذف بمعنى: "فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل تفتيش وعاء أخيه". لأنه مفهوم من السياق.. وقوله: (فبدأ) والضمير عائد على يوسف، هل يدل على أن يوسف هو الذي قام بنفسه بتفتيش إخوته، والواقع في الكلام مجاز عقلي[2]؛ لأنه ليس من المعقول أن يقوم الملك بالتفتيش وإنما الذي فتش أصحابه في حضرته، فأسند الفعل إليه، لأنه هو الآمر بذلك، ولنفي التهمة عنهم، وتمكين الحيلة، بدأ التفتيش بأوعية إخوة يوسف حتى بلغ وعاء أخيه بنيامين، فوجد فيه الصواع، فاستخرجها، وتكرار (من وعاء أخيه) للتوكيد، وقوله: (ثم) للترتيب مع التراخي في المهملة، كل ذلك لكي تنطلي عليهم الحيلة، فقد روي أن يوسف عندما وصل إلى وعاء بنيامين قال: ما أظن هذا أخذ شيئاً، فقالوا: والله ما نتركه حتى ننظر في رحله، لأنه لما لم يجد السقاية في رحالهم ظنوا أن أخاهم مثلهم، "والرواية لا سند لها".

و(كذلك) أي: ومثل ذلك الكيد العظيم (كدنا ليوسف) أي: علمناه إياه، وأوحينا به إليه، وقيل: (كدنا) أي صنعنا، والدليل إضافة الله تعالى الكيد إلى ضميره، فإن كيد الله ورد في القرآن بمعان مختلفة، فإن كيد الله (عقاب) للذين يكيدون، ولفظ الكيد هنا مشعر بالحيلة والخديعة، وذلك في حق الله تعالى

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٢) ومثل ذلك كثير في القرآن، مثال قوله تعالى: ﴿يا هامان ابن لي صرحاً﴾ فمن المعلوم أن هامان أمر عماله. كذلك قوله عن فرعون: ﴿يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم﴾ فالمعلوم أن فرعون أمر أعوانه بذلك.

محال، لكن اللفظ مناسب لما أوحى به الله ﷻ إلى يوسف عليه السلام من حيلة لإبقاء أخيه معه، واختلف في معنى الكيد هنا والقريب من السياق: أن يكون المراد من هذا الكيد هو أنه تعالى ألف في قلوب إخوته أن حكموا بأن جزاء السارق ما يشرعه الملك، وأن ظهور الصواع في رحل بنيامين لم يترك لهم مجالاً إلا أن يتركوا أخاهم، فما كان يوسف قادراً على حبس أخيه بسلطانه عنده إلا بكيد من الله، أي صنع الله، وقيل: إن الكيد في هذا الموضع من الآية معناه حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية. وربما جاء (كدنا ليوسف) بمعنى مكنا له أخذ أخيه، ويكون اللفظ من المجاز بالاستعارة التبعية بمعنى: مكنا له أو صنعنا له، أو دبرنا له.

وقوله: (ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك) تفسير وبيان للكيد والنفي مؤكد باللام، لذلك تم الفصل بين الجمل، و(إلا أن يشاء الله) استثناء لمشيئة الله وإذن، والاستثناء حكاية حال والتقدير: إلا أن يشاء الله ما وقع من هذه الحيلة والجملة من القصر بالنفي والاستثناء، بمعنى: قصر أخذه لأخيه على مشيئة الله، قصراً حقيقياً، و(دين الملك) يراد به شرعه الذي يسير عليه المصريون من استرقاق السارق، لذلك لم يقل: (في دينه) مظنة أن يفهم الذي هو دين آل يعقوب، كما قال (في دين) ولم يقل: (بدين)؛ لأن يوسف أخذ أخاه بدين الملك أي بسلطانه أو بقضاء وحكم الملك، ولكن لأن يوسف عليه السلام كان في دين ملك مصر والمراد شرعه، وهو ما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثل ما أخذ إلا أن يلزم ويستعبد، فقد أدخل أخاه في دين الملك مجازاً بالاستعارة التبعية في الحرف. و(في) فيها معنى الدخول دون إرادة، فإن يوسف عليه السلام كان عليه أن يحكم بناءً على شريعة المصريين في الحكم.

(نرفع درجات من نشاء) جملة مستأنفة مفصولة، لأنها من خطاب الله ﷻ وتكرر ضمير (الله) المعظم في (نرفع، نشاء)، أي: يرفع الله درجات من يشاء

رفع درجاته بإضافة درجات فهو يرفع يوسف درجات بما علمه واجتباه، أو نرفع في العلم من نشاء درجات كما رفعنا درجة يوسف فيه، بالتنوين في (درجات).

والمراد: أن الله ﷻ يخص يوسف عليه السلام بأنواع العلوم، وأقسام الفضائل، وأنه بهذا قد رفعه درجات على إخوته، وهذه الآية دليل على شرف العلم وأن للعالم أعلى الدرجات.

فإنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك فقال: (نرفع درجات من نشاء) وأيضاً قالها في إبراهيم عليه السلام: (نرفع درجات من نشاء) عند إيراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب.

وقوله: (وفوق كل ذي علم عليم) والواو استئنافية، وقد تكون حالية بمعنى: والحال أن فوق كل ذي علم عليم، أي: أنه مهما رفع الله من شأن من يعلمه فإنه العليم الذي لا يبلغه أحد.

وقوله: (ذي علم) أي: عالم، فالمعنى أن فوق أرفع منه درجة في علمه، والعليم هو الله ﷻ، أو أن كل ذي علم فوقه عليم بدرجة هذا العلم؛ لأنه هو الواهب والرازق هذا العلم.

والمراد أن إخوة يوسف عليه السلام كانوا علماء فضلاء، إلا أن يوسف زاده الله عليهم في العلم.

﴿ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾[1].

جاء رد إخوة يوسف منافياً للحقيقة،باتهام يوسف بأنه سارق، وورود الخبر منهم جميعاً بصيغة الشرط للتأكيد على أنه ليس بغريب على بنيامين السرقة.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٧٧.

والآية مستأنفة انقطعت عما قبلها لأنها من خطاب إخوة يوسف، يـودون على الملك، وظاهر الآية يقتضي وجود حذف للإيجاز بمعنى أنهم قالوا للملـك: إن هذا الأمر ليس بغريب منه – أي بنيامين –، فإن أخاه الذي هلك كان أيضاً سارقاً، وكان غرضهم من هذا الكلام نفي السرقة عنهم، مبررين ذلك بما معناه: إنا لسنا على طريقته ولا على سيرته، وإنما يوسف وأخوه هما المختصان بذلـك، لأنهما من أم أخرى، وتم تأكيد جواب الشرط بالفاء و(قد) وتنكـير (أخ) لأن الحاضرين لا يعرفون أخاه، ولا علم لهم به، وذكر المفسرون روايات كثيرة عـن سرقة يوسف ولا سند لها..

(فأسرها) والضمير يفسره سياق الكلام، بمعنى فأسر التهمة التي ألصقوهـا به، والإضمار أوقع من التصريح للتعميم، ويرى الزمخشري أن أسـر الكـلام (بالتأنيث) على تسميتهم الطائفة من الكلام كلمة أو جملة أي فاسر ما قـالوه في نفسه و لم يبده قال:(أنتم شر مكاناً) تفسير لما أسره، أضمر على شريطة التفسير، والمعنى قال في نفسه: (أنتم شرٌ مكاناً) لأن الجملة بدل من (أسرها) [1]، ومعـنى (أنتم شر مكاناً) أنهم شر مترلة في السرقة لما لكم من سابقة سرقة أخيكم مـن أبيكم، ووصفهم بالمصدر (شر) فيه زيادة مبالغة وتأكيد على أنهم هم الواجب اتصفاهم بالسارقين .

يرى أبو حيان، من قوله: (أنتم شر مكاناً) خطابهم بهذا القول في الوجـه، فكأنه أسر كراهية مقالتهم، ثم وبخهم بهذه الجملة، وفيها إشارة إلى تكذيبـهم فيما قالوه في حقه[2]، وظاهر الكلام يدل على أنه لم يصرح لهم بهـذا القـول بدليل قوله: (فأسرها) ولأنه لو صرح لهم بذلك لأدخل الشك في قلوبهم ولربمـا علموا أنه هو يوسف.

---

(١) راجع الكشاف: ٢/٤٩٣.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٧٨-٧٩.

كما أراد (أنتم شرٌّ مكاناً) لما أقدمتم عليه من ظلم أخيكم وعقوق أبيكم إذ فرقتم بينهما ووضعتم أخاكم في الجب، ثم كذبتم وقلتم لأبيكم أكله الذئب، وتركتموه يباع، وبعد مرور الزمن، ما زلتم تذكروه بالسوء، من شدة حسدكم له، فرميتموه بالسرقة.

والظاهر أن إخوة يوسف عليه السلام حتى ذلك الوقت، لم يكونوا أنبياء، إلى أن أتى بهم يوسف وخروا جميعاً ساجدين، فإن تكليفهم بالنبوة لم يذكر زمانه، وظاهر كلامهم لا يدل على أنه ورد من أنبياء، فما زالوا على غيهم وما زال الشيطان لهم عدواً يغويهم، ويدفعهم للإثم... عدواً أم معيناً.. لأنهم يطيعونه ؟

وتأتي الفاصلة القرآنية (والله أعلم بما تصفون) متممة لكلام يوسف عليه السلام، ولا يتضح إن كان صرح لهم بذلك أم قال في نفسه، والأقرب أنه قال ذلك في نفسه، يريد لم يصح لي ولا لأخي سرقة، وليس الأمر كما تصفون، والله مطلع على ذلك ويعلم كذبكم، وهو العالم بحقائق الأمور.

إذن الظاهر من قوله: (فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون).. إنه لم يصرح بهذا القول لإخوته وإلا لكانوا علموا أنه كشفهم، وعرف كذبهم، مما يدفعهم للتفكير والتساؤل، من أين له معرفة ذلك؟

﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظَالِمُونَ ﴾[١].

وفي الكلام إيجاز بالحذف، معناه: أنه لما ثبت وجود صواع الملك في وعاء بنيامين، استوجب على الملك إيقاع الحكم عليه بان يستعبد، ولما كان إخوته قد

---

(١) راجع الكشاف: ٢/٤٩٣.

أخذ أبوهم موثقهم على أن يعيدوه، وقد ذكروا أن له أخ هلك، وهذا شقيقه يستأنس به، حاولوا بعد ذلك استعطافه، وخاطبوه بالعزيز ونادوا بنداء البعيد زيادة في التوقير والتعظيم من شأنه، ولاستمالته وإرضائه، "رُوِيَ أنه لقب بالعزيز بعد موت قطفير وفي رواية أخرىأنه عزله"، ذكروا أن أباهم شيخ كبير في السن والمقام والقدر، وأن بنيامين أحب إليه منهم، وطلبوا منه على سبيل التمني (خذ أحدنا) ومعنى مكانه أي: بدله على جهة الاسترهان، أو الاستعباد ويحضر سؤال وهو: لماذا لم يقولوا: إن أبانا شيخٌ كبيرٌ وهم قد أخبروا يوسف أنهم إخوة؟

إن ذكر (أبا) نكرة، ونسبته إلى بنيامين خاصة، نوع من زيادة الاستعطاف ودليل لا إرادي على ما يشعرون نحو أخيهم من أنه ليس شقيقاً لهم ولا يعد منهم.. كان من الممكن أن يقولوا إنه أخونا الصغير ولا ندري كيف يحدث ذلك وإننا جميعاً فداءً له، ولكن كان ﷺ همهم أنهم استوثقوا أباهم..

وقوله: (إنا نراك من المحسنين) لما عهدناه منك من الإحسان علينا، فقد وصفوه بما شهدوه، وتكرار النون للتوكيد، أو قد يراد إنا نراك من المحسنين إن فعلت ذلك.

(قال معاذ الله) وقول يوسف، تأكيد أنه لا يريد إلا بنيامين، لأن كل ما يحدث كان لهذا الغرض، ولو كانت السرقة حقيقية ربما وافق أن يأخذ رهاناً منهم إلى أن يعود من عند أبيه بعد حكاية القصة له.

والمعاذ[1]: الملجأ، وهو مصدر لا يستعمل إلا مضافاً نحو (معاذ الله)، وظاهر الكلام: أنه وجب من فتواكم ومن تنفيذ الحكم المشرع في مصر أن

---

(١) معاذ: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره "أعوذ" منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة. الله لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الكسرة الظاهرة. انظر: المعجم الوسيط في الإعراب: حرف الميم.

نأخذ من وجد الصواع في رحله، واستعباده، فلو وافقنا على أخذ غيره كان ظلماً في مذهبكم، ومذهبنا فلا تطلبوا ما تعرفون أنه ظلم.

(أن آخذ إلا) أي لن آخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، على سبيل التخصيص وتكرار نون الضمير (وجدنا متاعنا) للتوكيد، وقوله: (إنا إذاً لظالمون)، (إذاً)[1] جواب وجزاء واستقبال، أي إن أخذنا بدله ظلمنا، والخبر من الضرب الإنكاري، والفعل بعد (إذا) مقدر بمعنى "نكون" وذلك لحسم الأمر ولا يترك لهم مجالاً للرجاء أو التوسل.

جاء القصر والخبر الإنكاري المؤكد، ومعه (إذاً) الجزائية، لتأكيد الحيلة التي بها تمكن يوسف من حبس أخيه عن إخوته، وإذا قيل: كيف فعل يوسف ذلك وهو يعلم أن أباه سوف يزداد ألمه وحزنه، لفقد ولديه، وأن في ذلك تشديد للمحنة عليه؟

وإن هذه الواقعة التي افتعلها يوسف تمثل تزويراً وكذباً، فكيف يجوز له وهو نبي الله من الإقدام على ذلك وإيذاء الناس من غير سبب؟

والجواب: لعل الله ﷻ قد أمر يوسف بافتعال هذه الواقعة والله يعلم أن أباه سوف يفرح بلقاء الأخوين، وأن حزنه لن يدوم، وأن هذه الواقعة مقدرة لتأخذ القصة هذا المنحى، ويتضح مدى سوء إخوته، الذين لم يفتهم اتهامه بالسرقة، عندما أرادوا تخليص أنفسهم، فإن ظاهر الأحداث ألم وحزن وباطنه

---

(١) إذا: سُمي حرف جزاء لأن الفعل الذي يأتي بعده يكون جزاء لمضمون كلام سابق، وهو جواب من قال: سأفعل، وقد تكون للجواب الخالص الذي لا جزاء فيه، كأن تقول لصديقك: إني أحبك وأقدرك، فيقول: إذن أظن صادقاً (بالنون) فينصب الفعل المضارع بشرط أن يأتي في صدر الكلام. انظر: المعجم الوسيط في الإعراب: حرف الهمزة.

فرح وسرور بالتقاء الأب مع ابنيه بعد ذلك، وكذلك ما سوف يحدث من فضح إخوة يوسف، وما تبع ذلك من اعترافهم بأخطائهم، واستغفارهم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[1].

لما لم يستطع إخوة يوسف استعطافه، ليترك لهم بنيامين، وعرضهم له أن يأخذ أحدهم بدلاً، ولما وجدوا رد يوسف حاسماً وقاطعاً، بأنه لن يأخذ إلا من وجد الصواع في رحله، استيأسوا وانقطع طمعهم من يوسف في رد أخيهم فالتفوا يتشاورون فيما حل بهم، وكيف يواجهون هذه المعضلة؟

إذ احتاجوا إلى وقت ينفردون فيه للتحاور والتناجي مع بعضهم البعض، ففي قوله: (فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) الفعل (استيأسوا) على وزن "استفعلوا"، ويئس، واستيأس، بمعنىً واحد إلا أن الثاني فيه زيادة مبالغة، بزيادة "السين، والتاء"، مبالغة في يأسهم من رده.

(خلصوا نجيا)[2] أي تفردوا عن سائر الناس يتناجون بمعنى يتشاورون في الرأي فيما وقعوا فيه من مأزق مع أبيهم، بعد المواثيق المؤكدة رد بنيامين سالماً وفي الكلام مجاز عقلي من إسناد المصدر (نجيا) إلى الفاعل، بدلاً من قوله: (خلصوا يتناجون) فالمعنى في (نجيا): إما بمعنى المناجي، أو بمعنى المصدر الذي هو

---

(١) سورة يوسف، آية: ٨٠.

(٢) والنجي: فعيل بمعنى فاعل، كالخليط والعشيرة، ومعنى المصدر الذي هو: التناجي، والنجوى بمعنى التناجي، وهو لفظ يوصف به من له نجوى، واحد كان أو جماعة، مؤنثاً أو مذكراً، ويجمع على أنجية.

التناجي، فلما أخذوا في التناجي على غاية الجد صاروا كأنهم في أنفسهم، صاروا نفس التناجي حقيقة.

(وقال كبيرهم) اختلف في اسمه، واختلف في معنى كبير، فقيل كبيرهم رأياً وتدبيراً وعلماً، وهو "شمعون"، أو كبيرهم في السن وهو "روبيل"، أو كبيرهم في العقل والرأي وهو "يهوذا".

و"يهوذا" هو الذي قيل: إنه نهاهم عن قتل يوسف حينما أرادوا التخلص منه.

وقوله: (ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) استفهام تقريري يذكرهم بموثقهم مع أبيهم بمعنى: إنكم تعلمون في قوله (لتأتنني إلا أن يحاط بكم)، وجملة (أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله) خبرية من الضرب الإنكاري (بأن وقد) فصلت عن جملة (ألم تعلموا) لاختلاف الجملتين خبراً وإنشاءً.

وقوله: (ومن قبل ما فرطتم في يوسف)، و(ما) زائدة، والمعنى: ومن قبل (هذا) فرطتم في يوسف، وفرقتم بينه وبين أبيه، وبعده كلام محذوف معناه: والآن تريدون أن تفرطوا في بنيامين، وقد عقد معكم يعقوب الميثاق في المرتين، فهذه المرة سيتأكد له أننا غير أمناء، وأننا لسنا أهلاً للميثاق، لذلك يقول: (فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي).

و(حتى)[1] أداة ناصبة للفعل المضارع تفيد انتهاء الغاية، والفاء في (فلن) استئنافية؛ و(لن) حرف نفي واستقبال ونصب، و(يبرح) أي يفارق، وأبرح

---

(١) حتى: من وظيفتها نصب الفعل المضارع بـ(أن) المضمرة وجوباً، والفاعل ضمير مستقر مستتر فيه وجوباً، تقديره (أنا) والمصدر المؤول من (أن) وما بعدها في محل جر بـ(حتى): المعجم الوسيط في الإعراب (حرف الحاء).

أبلغ: لأنه بمعنى لن أزول عن المكان.. والمعنى: فلن أفارق وأزول عن أرض مصر حتى يأذن لي أبي في الانصراف إليه، أو يحكم الله لي بالخروج منها، أو بالانتصاف ممن أخذ أخي، أو بخلاصه من يده، إذاً أفادت حتى بلوغ الغاية المشروطة، لاحظ تقديم (لي) مع (أبي) للتوكيد، وتقديم لفظ الجلالة على (لي) للتعظيم ولأنه حقيق بأن يقدم.

وكلما جاء ذكر مصر ذكر لفظ (الأرض) والمراد مصر، على سبيل الشمول والتعميم وكأن أرض مصر هي كل أرض يعرفونها، ما عدا أرض بلادهم، ويناسب ذلك قوله تعالى: (وكذلك مكنا ليوسف في الأرض)، أي في أرض مصر.

وجد كبيرهم عذراً يزول معه حياؤه وخجله من أبيه أو غيره، وهو أنه حكم على نفسه بالبقاء في مصر ولن يعود إلى بلاده وأهله، حتى يتقبل يعقوب عذرهم الذي بسببه تركوا بنيامين، وحتى يسمح لابنه بالعودة.. أو يحكم الله ويجد مخرجاً لهذا الحرج الذي وقع فيه، وفيه معنى الشرط بأن وضع شرطاً لعودته إلى أبيه، بمعنى: إلا يأذن أبي، أو يحكم الله، ومعنى الشرط ومعنى الغاية متقاربان..

وقوله: (وهو خير الحاكمين) لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق، والفاصلة مناسبة تماماً للموقف، لأنه حتى لو كان الإذن من أبيه فهو بأمر الله، فالله هو الحاكم في تصريف أمور الناس، وكأنه لما علق الأمر بالغاية الخاصة "إذن أبيه" رجع إلى نفسه، فأتى بغاية عامة، تفويضاً لحكم الله تعالى، ورجوعاً إلى من له الحكم حقيقة، ومقصوده التضييق على نفسه، كأنه سجنها في الأرض التي أدت إلى حزن أبيه، وقد تم عطف جملة (يحكم) على (يأذن)، والفعل المعطوف منصوب ــ أيضاً ــ بـ(أن) المضمرة بعد (أو) في جواب النفي، بمعنى: "إلا يحكم الله لي".

﴿ ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾[1].

وفعل الأمر (ارجعوا) للإلتماس، يطلب منهم أن يرجعوا إلى أبيهم فيقولوا له صراحةً إن ابنه قد سرق، وقوله: (يا أبانا) من دواعي التأدب في مخاطبتهم لأبيهم، وفيه تلطف في الخطاب، وقد تكرر نداء الأبناء في السورة بهذه الصيغة عند مخاطبة الأب، توقيراً له، واحتراماً في مخاطبته، إذ كان من الممكن أن يقال: ارجعوا إلى أبيكم فقولوا إن ابنك سرق، وفي استعمال أداة النداء للبعيد ـــ أيضاً تنبيه المخاطب لاستقبال الخبر، وحتى يكون في حالة إصغاء تامة لما يقال .

وفي الكلام حذف بالإيجاز تقديره: فرجعوا إلى أبيهم، لما ظهر لهم من أنه الرأي الأصوب فقاموا يقصون عليه ما حدث لأخيهم، كما أوصاهم أخوهم الأكبر.

وقوله: (إن ابنك سرق) إنما هي شهادة بما علموا، في قول الملك وأصحابه، والجملة خبرية مؤكدة من الضرب الطلبي، وهذا هو الظاهر الذي علموه وشاهدوه.

وقد أثبت المفسرون العديد من الآراء حول قولهم (إن ابنك سرق) ووجهوا سؤالاً؛ وهو: كيف حكموا عليه بأنه سرق من غير بينة؟

فإنهم لم يروه وهو يسرق، ولم يشهد عليه أحد بأن رآه يسرق؟

والإجابة الأقرب إلى السياق: أنهم ما كانوا أنبياء في ذلك الوقت، فلا يبعد أن يقال أنهم ذكروا هذا الكلام، ولا سيما وهم الذين قالوا: ﴿ إِنْ يَسْرِقْ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨١-٨٢.

﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[١] وكأنه تثبيت للتهمة عليه فهو مثل أخيه كذلك فقد شهدوا بظاهر الأمر الذي علموه، مع علمهم بأن أخاهم ليس بسارق.

نلاحظ كيف ينسبون بنيامين إلى أبيهم، و لم يقولوا: إن أخونا قد سرق، كما سبق وقالوا: أخ له، و لم يقولوا: أخونا، فمن أول السورة، وحتى نهايتها يسترعي القارئ، كيف أنهم فصلوا بينهم وبين أخويهم من أبوهم، واعتبروا أنفسهم عصبة من الرجال، وأنهم مختلفين عنهما.

ويمكن ــ أيضاً ــ ملاحظة الفرق في صياغة الخبر في قوله: ﴿فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾، فقد تم الإخبار عن الواقعة مباشرة دون سرد للواقعة من أولها، وعلى العكس حين جعلوا يوسف في الجب، ذهبوا إلى أبيهم ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾[٢]. جاء الإخبار بأكل الذئب ليوسف بعد مقدمة طويلة، والسبب واضح، إذ أنهم مع يوسف كانوا مذنبين يكذبون ويلفقون القصة، أما في واقعة بنيامين فلا ذنب لهم، لذلك ما احتاج الأمر للإطالة وتلفيق الحدث وإنما أبلغوه مباشرة بالخبر، هكذا يراعي السياق القرآني أدق الأمور في سرد القصة.

و(ما شهدنا إلا بما علمنا)، إلا ما علمنا من ظاهر حاله، أنه سرق، والجملة من القصر وطريقه النفي والاستثناء بـ(ما وإلا)، وهو من أقوى أنواع القصر ويجيء لإثبات الأمر المجهول، فجاء مناسباً في موضعه، لأن الأب يجهل الحقيقة، وقد سموا قولهم شهادة، وما هو بلفظ الشهادة، لأنه يؤدي مؤدى الشهادة أمام يعقوب عليه السلام، فيبدوا أنهم لم يمهلوا سيدنا يعقوب عليه السلام ليسأل عن ولده، بل بادروه بالخبر، رغم علمهم بمدى الألم الذي يفضي إليه الخبر، وهم

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٧٧، وقد سبق تفسيرها..
(٢) سورة يوسف، الآية:١٧، وقد سبق تفسيرها..

يعلمون مسبقاً أن أباهم لن يصدقهم، لما لهم من سابقة الكذب، لذلك آثروا أسلوب القصر للتوكيد والتقرير.

والمعنى: ما شهدنا إلا بقدر ما علمناه من سرقته وتيقناه، لأن الصواع استخرج من وعائه أمامنا ولا شيء أبين من هذا..

وقوله: (وما كنا للغيب حافظين) أي: وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق، وتقديم الجار والمجرور (الغيب) للأهمية، أي: لم نعلم غيب الأمور وخفيها، أي: لم نعلم أنه سيأتي بما يوجب الاسترقاق، في محاولة حثيثة لإبعاد مسؤولية حبسه واسترقاقه عنهم، وأنهم بريئون مما حدث له، وحفظ الغيب أبلغ من علمه، لأن فيه معنى العلم مع التيقن.

(واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها) والواو استئنافية قبلها كلام محذوف تقديره: وإن كنت غير مصدق لنا، من الإيجاز بالحذف، وفي الآية مجاز كأنه قيل: واسأل أهل القرية التي كنا فيها واسأل أهل العير التي أقبلنا فيها، ويقول ابن حيان: إلا إن أريد بالعير القافلة، وللرد على ذلك: أنه حتى لو أريد بالعير القافلة[1]، فالسؤال يكون لمن يسيرون في القافلة، على سبيل المجاز المرسل من ذكر المحل وإرادة أصحابه، والقرية يريد بها مصر وقوله العير التي أقبلنا فيها بدلاً من (معها) لأن (في) تفيد زيادة التمكين، وكأنهم كانوا داخلها، بعكس (مع) التي تفيد أنهم كانوا بجوارها، بمصاحبتهم.

إن إخوة يوسف أحالوا يعقوب على أناس رأوهم وتحدثوا إليهم وعرفوهم، يسألهم ليوضحوا له القصة، ويشهدوا بما سمعوا، واختلف العلماء حول السؤال هل هو للقرية والعير على الحقيقة، كما يرى المعتزلة، فإن الله قادر — في مفهومهم — أن يجعل نبيه يعقوب يخاطب الجمادات والحيوان، ولكن

---

(١) البحر المحيط: ٥/٣٣٢.

بالرجوع إلى كلام العرب، نعلم أنهم كانوا يحذفون المضاف ويسندون الفعل للمضاف إليه ليس من باب الحقيقة، وإنما من باب المبالغة في تأكيد المعنى، مثل قولهم: خرج النادي، سألت المجلس، ولا يراد الإسناد على حقيقته، وإنما يراد "أصحاب النادي، وأصحاب المجلس".

ويوجد وجه ثالث لتفسير الآية إذ يقول الفخر الرازي[1]: "أن الشيء إذا ظهر ظهوراً تاماً كاملاً فقد يقال فيه، سل السماء والأرض وجميع الأشياء عنه، والمراد أنه بلغ في الظهور إلى الغاية التي ما بقي للشك فيه مجال".

ويُرَدُّ على ذلك بأنه كان من الممكن ذلك وجهاً في التفسير لولا أن أبناء يعقوب عليه السلام يطلبون منه السؤال على الحقيقة للتأكد من كلامهم، وليس سؤالاً خرج إلى معنى بلاغي، فالمراد: إذا كنت شاكاً في كلامنا، فاسأل من شاهدوا الواقعة في القرية ـــ مصر ـــ أو اسأل من كنا نسير معهم في قافلة واحدة، وهم موجودون ويمكنك سؤالهم للتأكد من صدق ما قلناه.

وقوله: (وإنا لصادقون) تتمة لتأكيداتهم، فبعد أن قالوا (اسأل)، ختموا كلامهم بخبر من الضرب الإنكاري للتوكيد على صدقهم، والتقدير: وحالنا أننا صادقون جملة حال مربوطة بالواو والضمير .

تأمل الفرق بين قولهم في هذه الواقعة (وإنا لصادقون) وقولهم في واقعة يوسف (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين)، ففي المرة الأولى كانوا كاذبين لذلك كان كلامهم مضطرباً و لم يؤكدوا صدقهم، وإنما جاء قولهم مؤكداً لكذبهم لأنهم متيقنون فيما بينهم من كذبهم، وغدرهم بيوسف، وقولهم (ولو)

---

(١) التفسير الكبير: ١٧/١٨/ ١٩٠ ، ١٩١.

حرف امتناع الامتناع بمعنى: لو كنا صادقين ما صدقتنا، إذاً هم كاذبون، فهذه الأداة الشرطية تثير الشك في الكلام.

يقف المتأمل في إعجاز القرآن أمام هذا القول، ليرى كم أنه دليل ضدهم. يقف الأبناء في مشهد صعب أمام أبيهم المفجوع، فيأتي رده هادئاً، قصيراً سريعاً، في قوله: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّـهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1].

فقد أضرب يعقوب عليه السلام عن كل ما قالوه ولم يستوعبه، وتجددت عليه الأحزان بعد حزنه على يوسف عليه السلام، فأبطل بـ(بل) [2] قولهم وتأكيداتهم، ورد عليهم بما يدل على أنه يفهمهم ويعرف كيف يفكرون، فقال: (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) أردتموه وإلا فما أدرى الملك أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم، إذن أراد بقوله هذا أن يحملهم الذنب فيما حدث لابنه...

وقيل: إن قول يعقوب هنا لم يقصد به الكذب والاحتيال عليه كما في قوله في واقعة يوسف عليه السلام ولكن قصد: بل سولت لكم أنفسكم إخراج بنيامين عني والمسير به إلى مصر طلباً للمنفعة فعاد من ذلك شرور وضرر.

فذكر كلمته ذاتها التي قالها يوم فقد يوسف لكنه في هذه المرة يضيف إليها الأمل أن يرد الله عليه يوسف وأخاه وابنه الذي تخلف في مصر.

هنا أيضاً يجب الانتباه إلى أمر وهو: أن يعقوب في المرة الأولى قال: (والله المستعان على ما تصفون) لأنه علم أنهم دبروا أمراً للتخلص من يوسف لذلك

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٣.

(٢) بل: حرف معناه الإضراب عن الأول والإيجاب للثاني، وذلك بنقل حكم ما قبله إلى ما بعده، تدخل على المفرد وعلى الجملة.انظر: المعجم الوسيط في الإعراب (حرف الباء).

طلب العون من الله فهو خير معين، وفي المرة الثانية قال: (عسى[1] أن يأتيني بهم جميعاً)؛ لأنه أحس وهو نبي أن ما يحدث لأبنائه لا بد وأن الله مطلع ويعلمه، وهو القادر على إعادتهم له سالمين، فإن يعقوب عليه السلام لم ييأس من رحمة الله، لذا يرجو من الله أن يجمعه بهم؛ لأنه وهو النبي يلمس في قرارة نفسه إحساساً ملحاً أنهم لم يهلكوا، وأنه سوف يلتقي بهم.

وربما ترجى يعقوب أن يجمعه الله بهم حسب ما جاء في رؤيا يوسف من قبل، فكان أمله كبير في تحقق الرؤيا، لأنه علم أنها رؤيا حق، ولا بد وأن تتحقق لأنها بوحي من الله.

فمن الواضح أن يعقوب لم يشك ولو للحظة في رؤيا يوسف، وأنه حي يرزق؛ لأن علامات النبوة توفرت فيه وهو القائل: (إني أعلم من الله ما لا تعلمون) وما دام الله ﷻ اصطفى يوسف عليه السلام فهو القادر على حفظه ورعايته، لذلك عاش آملاً أن يراه، واثقاً في قدرة ربه، لذلك قال: (إنه هو العليم الحكيم) فأتت الفاصلة القرآنية مناسبة لسياق المعنى مؤدية دورها في إثبات حقيقة إنه عليم بكل ما حدث، وحكيم يدبر الأمور بحكمة لا يعلمها إلا هو، لذلك كان على يعقوب أن يسلم لحكمة الله في كل ما جرى.

يقول سيد قطب: هذا الشعاع من أين جاء إلى قلب هذا الرجل الشيخ؟ إنه الرجاء في الله، والاتصال الوثيق به، والشعور بوجوده ورحمته، ذلك الشعور الذي يتجلى في قلوب الصفوة المختارة فيصبح عندها أصدق وأعمق من الواقع المحسوس الذي تلمسه الأيدي وتراه الأبصار[2].

---

(١) عسى: فعل ماض ناقص جامد من أفعال المقاربة "أخوات كاد" يفيد الرجاء بمعنى "لعل" وتأتي فعلاً تاماً إذا جاء بعدها "أن" المصدرية والفعل ــ كما في الآية ــ..

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب: ١٣/٢٠٢٥.

﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

عطفت الجمل الدالة على حال يعقوب عليه السلام ثم ختمت بالجملة الاسمية (فهو كظيم) تفسيراً لنوع الحزن المكظوم..

والكظيم، الكاظم، وهو الممسك على حزنه فلا يظهره، قال ابن قتيبة: ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم، ومعناه: المملوء من الحزن مع سد طريق نفسه المصدور من كظم السقاء إذا اشتد على ملئه، ويجوز أيضاً أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده.

و(كظيم): على وزن فعيل صيغة مبالغة للدلالة على كثرة واستمرار حزنه المخبوء داخل نفسه لا يبوح بكل ما لديه من حزن على أبنائه المفقودين وحزن وأسى من أولاده الموجودين، لأن صبره كان جميلاً..

... فقد تنامت لدى يعقوب عليه السلام الأحزان، على يوسف ومن بعده على بنيامين، وهذا الذي حبس نفسه في أرض مصر إلى أن يسمح له أبوه بالعودة، إنه الأب المبتلى في أولاده، (فتولى عنهم) أي أعرض عن أولاده، وتركهم ليظل مع أحزانه، مفجوعاً بما جاؤوا به من أخبار ساءته وأحزنته (وتولى عنهم) أبلغ من (تركهم) لأن في تولى معنى الترك لكراهة مجلسهم ولتألمه وغضبه من تصرفهم كما يدل على حالة من اليأس والاستسلام، وقال: (يا أسفى على يوسف) يتوجع على يوسف، ينادي الأسف، من نداء غير العاقل بغرض الندبة،

(١) سورة يوسف، الآيات: ٨٤-٨٦.

والظاهر أن تضاف ياء المتكلم إليه (يا أسفيَّ) فقلبت ألفاً على عادة العرب، في الندبة، وحذفت هاء السكت، (يا أسفاه) ليمتد الصوت ولا يتوقف، لأن (الهاء) تضع حداً لمد الصوت، ولما في الألف والفتحة من خفة في النطق، وكأنه يقول: "يا طول حزني على يوسف"، فكان الأسف عليه أسف على الكل فنادى الأسف للتعبير عن شدة الأسى والتفجع لما ابتلي به من فَقْد يوسف وأخويه فصار من بعدهم يتألم أشد الألم.

ولنتأمل هذا التجانس بالتصريف بين "أسفى ويوسف" وهذا اللون من الجناس ورد بالقرآن كثيراً، مما يمنح الكلام هذا التوازن الرائق الذي يضفي لوناً من موسيقى تناغم الحروف.

مثال ذلك ما ذكره أبو حيان من قوله تعالى: ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ﴾ [1]، وقوله: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ﴾ [2]، وقوله: ﴿ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ [3]، وقوله: ﴿مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ﴾ [4]، "يقع مطبوعاً غير مستعمل، فيلمح ويبدع"[5]، وهو نوع من الجناس يساعد في انسجام الجمل والعبارات، ويمنح الكلام موسيقى خلابة؛ لأن اتفاق الألفاظ في بعض الحروف وتواليها، يولد جرساً موسيقياً يدهش المتلقي فتطرب لسماعه الأذن، وتكتمل المتعة إذا كان الكلام كلام الله المعجز، فإن كل لفظ فيه نافع للمعنى، يزيده استجلاءً ووضوحاً.

---

(١) التوبة، آية: ٣٨.
(٢) الأنعام، آية: ٢٦.
(٣) الكهف، آية: ١٠٤.
(٤) النمل، آية: ٢٢.
(٥) البحر المحيط: ٣٣٣/٥.

ويلحظ القارئ أن يعقوب لم يأسف إلا على يوسف وذلك لسببين:

١ – لفرط محبته ليوسف ولأنه لا يعلم عنه شيئاً من زمن طويل مضى، ولا يعرف إن كان حياً أو هالكاً، فهو لا يتشبث إلا بروح الله القادر على إرجاعه.

٢ – ولأن يوسف أول ما أحزن قلبه، وهو أصل الرزايا عنده إذ ترتبت عليه.

أما أخواه فإنه يعلم أنهما سالمين ويمكن رؤيتهما، وأن ما هم فيه أمر مؤقت، ويكفي علمه أنهما على قيد الحياة و لم يصبهما الضرر.

وقوله: (وابيضت عيناه من الحزن) الواو استئنافية، وابيضاض العينين كان من توالي البكاء، ولما كان الحزن يؤدي إلى البكاء فقد جعل ابيضاض العينين بسبب الحزن على سبيل المجاز المرسل، وهي صورة مؤثرة للوالد المفجوع، يحس أنه منفرد بهمه، وحيد بمصابه، لا تشاركه هذه القلوب التي حوله ولا تجاوبه، فينفرد في معزل، يندب فجيعته في ولده الحبيب، يوسف، الذي لم ينسه، و لم تُهَوِّن من مصيبته السنون، تذكره به نكبته الجديدة في أخيه الأصغر فتغلبه على صبره الجميل، ويكظم الرجل حزنه ويتجلد فيؤثر هذا الكظم في أعصابه حتى تبيض عيناه حزناً وكمداً[1]..

وابيضاض العينين حقيقي لا مجاز فيه لأن الحزن الشديد قد يُفقد المحزون سواد مقلتيه فتصير بيضاء .

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب: ٢٠٢٥/١٣.

وقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾[1].

لاحظ كيف ائتلف[2] اللفظ مع اللفظ، فإنه لما أتى بـ(التاء) التي هي أغرب حروف القسم بـ(تفتأ) التي هي أغرب أفعال الاستمرار. فجاء اللفظان (تالله) و(تفتأ) من وادٍ واحد في الغرابة والتأمل.

وتفتأ: بحذف لا، جائز، بمعنى: لا تفتأ، وحرضاً: مصدر بمعنى: هلاكاً.

فقد بلغ الحسد مبلغه من نفوس أبناء يعقوب فيحسدون أخاهم على تذكر الأب له، حتى مع عدم وجوده، فإن يوسف ظل عالقاً بقلب أبيه، لم ينسه، و لم ييأس من روح الله، مما زاد قلوبهم ألماً، لم يرحموا ذلك الأب المكلوم و لم يفكروا في التسرية عنه، بل و لم يعللوه بالرجاء، وإنما كان رد فعلهم، الحنق والاستنكار لتصرف الأب وكلامه، يستنكرون عليه أن يظل يذكر يوسف، حتى يؤثر ذلك الحزن على نفسه، فيهده ويهلكه، بلا نتيجة، فمن وجهة نظرهم فإن يوسف فُقد ولا أمل في عودته، والحلف (تالله) بناء على الظاهر مما رأوه من أحوال أبيهم، وأنه منغلق على أحزانه.

وابيضاض عيني يعقوب هو العمى بدليل قوله تعالى حكاية عن يوسف (فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً)، لأن الحزن الدائم من دواعيه البكاء المستمر الذي يفضي إلى العمى.

هكذا نظر الأبناء إلى حزن أبيهم على يوسف، إنه حرض أي مفسدة ومهلكة لبدنه، وإذا كان (الحرض) هو الهلاك، فإن (أو) في الآية لا تدل على

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٥.

(٢) راجع جواهر البلاغة: ٣٣٤.

التخيير وإنما تدل على الإبهام لأن قوله: (أو تكون من الهالكين) تكرار للمعنى في (حرضاً) للتوكيد.

أراد الأبناء أن يوضحوا لأبيهم الآثار الناجمة عن تذكره ليوسف وحزنه عليه، بأنه سيظل هكذا حتى يكون هو الهلاك بعينه، على سبيل التشبيه، فلم يجعلوه (حَرِض) صفة، أو أحرضه الحزن، أي أهلكه، وإنما أسند الضمير إلى المصدر على سبيل المجاز العقلي للدلالة على أنه سوف يصبح الهلاك بعينه، وفي ذلك مبالغة، للدلالة على مدى الضرر المعنوي والجسدي الذي يؤول إليه يعقوب عليه السلام.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[1].

وقول يعقوب رد على أبنائه، بعد أن رأى منهم تلك الغلظة والقسوة في قلوبهم، فيرد عليهم بأنه لا يشكو إليهم ولا لأحد من خلق الله، لأنه يعلم أن الله هو القادر على إزالة ما في نفسه من حزن، ولذلك فهو يقصر الشكوى على الله قصراً حقيقياً، ولذلك فقد (تولى عنهم) وأعرض، لأنه لا رجاء فيهم، والقصر يؤكد قوة إيمان يعقوب في ربه وأنه لن ييأس أبداً من رحمة الله، بمعنى: لا أشكو إلى أحد منكم ولا غيركم ولكن لله وحده.

و(البث) نشر الحزن، فالحزن إذا ستره الإنسان كان همّاً، وإذا نشره على الناس كان بثاً، وذلك إذا عظم وعجز الإنسان عن ضبط نفسه.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٨٦-٨٧.

وفي الآية يبث يعقوب حزنه لله، مهما تفاقم حزنه وهمه لن يلجأ إلا إليه، في هذه الكلمات يتجلى الشعور بحقيقة الألوهية في هذا القلب الموصول[1].

وعطف (البث) على (الحزن)، من قبيل الإطناب، لأن (البث) يتضمن معنى أشد الحزن، والحزن أشد الهم، أراد يعقوب: إذا كنتم تحاولون إثنائي عن الحزن فاتركوني لما أنا فيه، وإذا كنتم تقنعوني بأن أيأس وأفقد الأمل في عودة يوسف، فلن يؤثر فيّ قولكم لأني (أعلم من الله ما لا تعلمون) والجملة معطوفة على ما سبقها للاتفاق في الخبرية والقائل، وهذه قيمة الإيمان بالله، واليقين أنه هو القادر على تغيير الأحوال، فقد أدرك يعقوب عليه السلام رحمة ربه ورعايته، وذلك شأنه مع عباده الصالحين.

إن كلمات يعقوب عليه السلام السابقة رد واضح وصريح، تدل على أنه النبي الذي تجلت أمامه الحقيقة، إنه العبد الصالح الذي يعرف ما لا يعرفه الذين ييأسون من روح الله، إذاً مهما تفاقمت عليه الهموم والأحزان، فإن صلته بخالقه، تجعله يعلم من رحمته وإحسانه ما لا يعلمون، فسوف يأتيه الفرج من حيث لا يحتسب.

والكلمات تدل على صمود يعقوب عليه السلام أمام جفاء أبنائه، وإيمانه الشديد بأنه يتوقع عودة يوسف، ولا يشك لحظة في أنه على قيد الحياة.

ثم يتلطف يعقوب عليه السلام في مخاطبة أبنائه بندائه لهم (يا بني) حثاً لهم على الذهاب للبحث عن يوسف، فيقول: (اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه)، والتحسس: طلب الشيء بالحاسة، وهو الاستقصاء والطلب بالحواس، ويقول الأنباري: تحسست عن فلان، ولا يقال: من فلان، وقوله: (من يوسف) لإقامة

---

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب: ١٣/٢٠٢٦.

(من) مقام (عن) على سبيل الاستعارة التبعية في الحروف والأبلغ (من) لأن (عن) فيه معنى المجاوزة والاستعلاء، ويدل على أن التحسس يكون عن بعد، أما (مِنْ) فالمعنى فيه أشمل وفيه معنى التمكن؛ لأنه حرف جر معناه ابتداء الغاية المكانية، أو الزمانية، ومنه اشتقت سائر المعاني، وقيل: تستعمل (مِنْ) في الأشياء التي تنتقل من مكان إلى آخر، أما (عن) فتستعمل في الأشياء التي لا تنتقل[1].

ويجوز أن تكون (من) التبعيضية، ويكون المعنى: تحسسوا من أخبار يوسف، أي بعض أخباره، فأقيمت مقام (عن) للدلالة على التبعيضية.

وإذا قيل: لماذا ذكر (أخيه)؟

فالإجابة: أن يعقوب ﷺ لما أخبر بسيرة ملك مصر، وكمال حاله في أقواله وأفعاله، واتهام بنيامين بالسرقة، مع علمه قطعاً أن ابنه لا يسرق، ربما انتابه هاجس أن يكون الملك يوسف وأنه احتجز أخاه عنده، خاصة أنه علم أن رؤيا يوسف ﷺ التي قصها عليه صادقة، لأن مظاهر الاجتباء من الله كانت واضحة في أفعاله، وكذلك مظاهر الرشد والكمال، لذلك ظن أنهم عندما يستقصوا من أخبار يوسف سوف يجدون بنيامين، وربما يكون بوحي من الله، بدلالة قوله: (وأعلم من الله ما لا تعلمون) ولم يذكر أخوهم الذي قال: (لن أبرح الأرض) لأنه تخلف برغبته وإرادته.

يطلب يعقوب ﷺ من أبنائه، الاستقصاء في لطف وبصر وصبر، وينهاهم عن اليأس (ولا تيأسوا) نهيٌ خرج لمعنى النصح أن يصبروا في البحث ويتأنوا، ويعلموا أن رحمة الله واسعة وأن فرجه قريب، وقوله: (روح الله)، فالروح: ما يجده الإنسان من نسيم الهواء، ولفظ (الروح) أبلغ وأدق وأكثر شفافية، للدلالة على معنى الاسترواح من الكرب الذي تفاقم، والتنسم بروح الله.

---

(١) المعجم الوسيط في الإعراب، (حرف الميم، والعين).

وجملة القصر (لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) قصر الذين ييأسون من روح الله على الكافرين، وفي ذلك تأكيد وتنبيه لهم ألا يقعوا في الذنب، لأن الكافرين وحدهم هم الذين لا يؤمنون بوجود الله، وإذا وقعوا في الكرب لا يعتقدون في رحمة الله، القادر على تفريج الكروب، ودفع الأحزان والهموم، وفي الكلام نفي الكفر عنهم ضمنياً، وحث لهم ودفع وترغيب في الصبر والمثابرة.

يريد: ألا تكونوا مثل الكافرين فتيأسوا من روح الله... فالمؤمن موصول قلبه بربه، عالق بروحه، متشبث برحماته، شاعر بنفحاته الندية لا يفقد ثقته بخالقه، يمتلىء قلبه طمأنينة، فهو على يقين دائم بقربه منه واحتياجه إلى عطفه ورحمته حين تتفاقم الهموم.

أبناء يعقوب عليه السلام يتعرفون على يوسف عليه السلام

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾(١).

والواضح أن في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير: أن يعقوب عليه السلام لما طلب من أبنائه أن يذهبوا يتحسسوا من يوسف وأخيه، أجابوا طلبه وعملوا بوصية أبيهم فعادوا إلى مصر وأول ما فعلوه أن دخلوا على يوسف، ودخولهم هذا هو "الثالث"، في كل مرة تحدث أمور تجعلهم يعودون إلى مصر، وكأن يوسف أراد أن يجعلهم عالقين به، كلما ذهبوا عادوا إليه.

ويبدو أن إخوة يوسف كانوا سيذهبون على أية حال لأن المجاعة أضرت بهم ونفدت منهم النقود، وجاءوا ببضاعة رديئة وقيل: قليلة، وقيل: ناقصة، يشترون بها من مصر ما يسد حاجتهم، وهي كل ما لديهم، في تلك الظروف الصعبة، التي تمر بها بلادهم من مجاعة وقلة موارد.

وقوله: (فلما) الفاء للاستئناف، والانتقال لمرحلة جديدة، و(لما) شرطية زمانية فمنذ أن ذهب أبناء يعقوب عليه السلام إلى مصر أول مرة وعرفهم يوسف عليه السلام، توالت الأحداث وظلوا في حالة ذهاب وعودة، إلى أن جاءت اللحظة التي سيكتشفون فيها أن العزيز هو يوسف عليه السلام، وأن ما حدث لأخيهم بتدبير من يوسف عليه السلام، وليطلعوا على الذنب الذي ارتكبوه في حق أخيهم.

قالوا في ذلة وانكسار، وشعور بالضعف وقلة الحيلة: (يا أيها العزيز) وندائه بالعزيز تقديراً لمكانته وإعلاءً لشأنه، وتوقيراً له، وقولهم: (مسنا وأهلنا

---

(١) سورة يوسف، آية: ٨٨.

الضر) أي لحق بنا وفي الكلام إيجاز بالحذف تقديره: (مسنا ومس أهلنا الضر) والمحذوف مفهوم من السياق، وهكذا في جميع النصوص القرآنية، فالذكر يكون لضرورة يتطلبها المعنى، والحذف لدلالة السياق أو لإعمال العقل والتفكير في المحذوف، وقولهم: (مسنا) على سبيل الاستعارة المكنية، ولم يقولوا: أصابنا الضر، والمس بالضر في الرزق أخف وطأة من الإصابة في البدن، وبذلك يتضح أنهم لم يبدأوا بما وصاهم به أبوهم، من التعرف على يوسف وأخيه، وإنما بدأوا بالشكوى من الضر الذي لحق بهم، وأهلهم وهو الهزال والجوع، والفقر والحاجة.

والسبب في أنهم بدأوا بالشكوى ما آل إليه حالهم وأن الحصول على مطلوبهم من الزاد كان جل اهتمامهم، وأنه لم تكن في نيتهم البحث عن أخيهم، أو أنهم أرجأوا البحث حتى ينتهوا من الصفقة التجارية مع العزيز.

وقد تكون الشكوى مدخلاً للتحسس والتعرف على يوسف لأن بنيامين عنده، وهم يعلمون أن يعقوب ما ينطق عن الهوى وأنه يعلم أن يوسف قريب من بنيامين، فأرادوا أن يجعلوا تجارتهم سبباً للبحث في الخفاء وتقصي الحقائق دون أن يشك أحد فيهم.

وقوله: (جئنا ببضاعة مزجاة) المراد بالمزجاة: المدفوعة، يدفعها التاجر لرداءتها، رغبة عنها، ونبذاً لها، من أزجيته إذا دفعته وطردته، والإزجاء في اللغة: الدفع قليلاً قليلاً، وبدلاً من أن يقولوا: بضاعة يزجيها التجار، قالوا: مزجاة وذكر الاسم أوقع، لإفادة ثبات الصفة ودوامها والتصاقها بالبضاعة.

إذاً بلغ الأمر بإخوة يوسف عليه السلام أن عرضوا عليه بضاعة مزجاة هي كل ما لديهم لإنقاذهم وأهلهم من الفاقة، والجوع في زمن الشدة، في الوقت الذي كانت مصر تنعم فيه بالرخاء بعد الشدة، فطلبوا منه على سبيل الالتماس

والترجي في قوله: (فأوف لنا الكيل وتصدق علينا) أي إيفاء الكيل، والتساهل فيه بالزيادة، وأن يتصدق عليهم: كأنهم طلبوا القدر الزائد على سبيل الصدقة، ورفض معظم المفسرين أن يكون المراد: طلبهم الصدقة لأن الأنبياء وأبناءهم محرمة عليهم الصدقة، وقيل: ربما لم تكن محرمة ثم حرمت، وأنها كانت حلالاً لهم.

ويرى الزمخشري أن الظاهر أنهم تمسكنوا له وطلبوا إليه أن يتصدق عليهم، ومن ثم رقّ لهم وملكته الرحمة عليهم(١).

ويرى أبو حيان أن (تصدق علينا) أي: بالمسامحة والإغماض عن رداءة البضاعة أو زدنا على حقنا، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة(٢)، أي استعمل اللفظ على سبيل المجاز بالاستعارة التبعية، ولفظ (تصدق) أدقّ، لأن المتصدق يخرج مما عنده حباً في إغاثة المحتاج، فيقدم ما يقدم عن طيب خاطر، أما طلب الزيادة، فليس فيه قصد الفضل طواعية وحباً في العطاء. إذاً قولهم الصدقة فيه تجوز لاستعطاف العزيز في المبايعة، واسترحامه، لإعادة النظر في حالهم.

و لم يجد يوسف عليه السلام بداً من كشف أمره لهم ومفاجأتهم بعد ما علم من تردي أحوالهم، وقد تكون الساعة الموعودة قد حانت ليعرفهم بنفسه، بعد قولهم: (إن الله يجزي المتصدقين) تأتي الفاصلة القرآنية منفصلة، مستأنفة، توكيداً لجزاء المتصدقين، وبين (تصدق ــ والمتصدقين) جناس بالاشتقاق، والمراد: إن الصدقة هي العطية التي ترجى بها المثوبة من الله تعالى.

---

(١) الكشاف: ٢/٥٠٠.

(٢) البحر المحيط: ٥/٣٣٦.

وهنا يمكن أن نتساءل: هل كان أبناء يعقوب في هذه الأثناء، يظهرون إيمانهم بالله الواحد أمام عزيز مصر، وهم يعلمون أنه كافر؟

يذكر أبو حيان: "هي من المعاريض التي هي مندوحة عن الكذب، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً على غير دينهم، ولو قالوا: إن الله يجزيك بصدقتك في الآخرة كذبوا، قالوا له لفظاً يوهم أنهم أرادوه، وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأويل"[١]، أي: يجزي المتصدقين وأنت منهم.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

لم يستطع يوسف ﷺ تكتم أمره أكثر من ذلك بعد ما رأى من استعطافهم له، رقّ لهم ووجه إليهم سؤالاً فيه تعريض بهم إذ (قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه؟).. من استفهام تجاهل العارف، فإن يوسف ﷺ لا يريد إجابة على السؤال لأنه يعرف الإجابة، وإنما أراد أن يعرض بأفعالهم، بمعنى: هل علمتم قبح ما فعلتم، من التفريق بين يوسف وأخيه، بجعل يوسف في الجب، وإبعاده عن أبيه، واتهام أخيه بالسرقة، فهو يذكرهم بالذنب الذي ارتكبوه، وقوله: (إذ أنتم جاهلون) قيل: إنه جري مجرى العذر، إذ أنهم كانوا في جهالة الصبا أو جهالة الغرور الواضح إنهم كانوا عصبة من الرجال الأشداء حسب قولهم، لذا فإن قول يوسف ﷺ يعتبر عتاب لهم وتأنيب، والله أعلم.

عتاب على ما فعلوه به وبأخيه، وهم جاهلون بجريرة ما فعلوا، ظناً منهم أنهم بعد ارتكابهم الذنب يتوبوا فيغفر لهم الله، والدليل على ذلك قول أحدهم

---

(١) البحر المحيط: ٥/٣٣٦.

(٢) سورة يوسف، الآيات: ٨٩-٩٠.

(وتكونوا من بعده قوماً صالحين)، وذلك دليل على أنهم كانوا يعلمون أن ما يفعلونه بيوسف ذنباً، يحتاج التوبة والعودة إلى الصلاح.

كلمهم يوسف مستفهماً عن وجه القبح الذي يجب أن يراعيه التائب، فإذا استقبح المذنب فعله، دعاه ذلك إلى التوبة، وقوله: (إذ أنتم جاهلون) و(إذ) ظرفية للزمان الماضي، أي كنتم وما زلتم تجهلون الخطأ والقبح فيما أقدمتم على فعله بأخويكم.

إن سؤال يوسف عليه السلام لإخوته نبههم إلى هذا الصوت الذي كان مألوفاً لديهم، تذكرهم نبراته ليعودوا إلى الوراء.. أخذوا يحدقون في ملامحه، التي غابت عنهم سنين طويلة، يسترجعون تلك الملامح أيام كان صبياً صغيراً ينطلقون به إلى الصحراء، وكله شوق للعب والرتع وكلهم شوق لتنفيذ ما أجمعوا عليه، إنه هو في سمت الملوك، إنه هو ولكن قد صار رجلاً قوياً يأمر فيطيعه الناس، إنه هو يوسف الذي ظنوا أنه هلك.. وغاب عنهم أن رعاية الله وعنايته تحفه وتحفظه أينما ذهب، عادت صورة يوسف تلتمع في خواطرهم، فقالوا: أئنك لأنت يوسف.. فاللام لام الابتداء، و(أنت) مبتدأ و(يوسف) خبره، والجملة خبر إن و(أنت) تكرار للضمير للتأكيد والتقرير..

لم يجيبوا على سؤال يوسف عليه السلام وإنما وجهوا إليه سؤالاً تقريرياً تعجبياً لما أثار دهشتهم، من هول المفاجأة، والسؤال يدل على أنهم قد اكتشفوا أخيراً حقيقة العزيز وتأكدوا أنه يوسف عليه السلام؛ لأنه لا يعلم قصة يوسف سواه، وسؤاله جعلهم يتنبهوا، ويتأكدوا أنه هو، "فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير في ذلك الرجل الكبير"[1].

---

(١) تفسير القرآن، سيد قطب: ٢٠٢٧/١٣.

أفضى إليه بحقيقة أمره، بأسلوب مباشر وهادئ رد عليهم بدون مقدمات أو تفسيرات.. قال: (أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا..) إنما صرَّح باسمه، وكأنه يقول: أنا ذلك الذي ظلمتموه، وهذا أخي الذي ظلم أيضاً صيَّرنا الله كما ترون، إجابة صريحة وواضحة ولا تدع مجالاً للتفكير أو الشك، إن المفاجأة عظيمة، وعجيبة، كان بمقدور يوسف عليه السلام من أول مرة حبسهم أو صدهم، أو الكيد لهم، وإضرارهم، كما فعلوا به، لكن يوسف النبي الصديق، يذكرهم بأن الله مَنَّ عليه وعلى أخيه، فجاء قوله تصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [1]، ولنتأمل كيف جاء الخبر (أنا يوسف وهذا أخي)، من الضرب الابتدائي بدون مؤكدات لأنه لا يحتاج إلى ذلك.

وذكر لهم علة هذا المن من الله، بأنه مكافأة لمن اتقى وصبر، فإن يوسف وأخاه، اتقيا المعاصي، وصبرا على الأذى، وكان الله بصيراً بهما، لم يضيع أجر المحسنين فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتماله على المتقين، حيث وضع يوسف نفسه وأخيه موضع المحسنين، وفي ذلك اتهام غير مباشر لإخوته بأنهم لم يتقوا الله فيما فعلوه بأخويهم، لأن لفظ (المحسنين) عام يندرج فيه من تقدم أو وضع موضع الضمير لاشتماله على المتقين والصابرين، كأن قيل: لا يضيع أجرهما لأن التقوى والصبر من الإحسان، ويوضح ذلك أسلوب الشرط (ومن يتق) وجوابه (فإن الله لا يضيع أجر المحسنين)..

فماذا كان رد فعل إخوة يوسف بعد ما علموا أن العزيز هو يوسف، وأن الله قد مَنَّ عليه هو وأخيه بهذه المكانة الرفيعة، وهذا الوضع العظيم، إنهم لم ينسوا حسدهم، وإنما تجدد حسدهم له، في قوله:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٥، وقد سبق تفسيرها..

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[١].

جاء ردهم على يوسف عليه السلام جملتان خبريتان من الضرب الإنكاري، توكيداً وإقراراً منهم إذ أقسموا أن الله يؤثر يوسف عليهم، ويفضله بالملك والعلم، والتقوى والإحسان، وأكدوا أنهم كانوا من الخاطئين، وفرق بين (الخاطئ) و(المخطئ) فالخاطئ هو الذي ارتكب الخطيئة عمداً، أما المخطئ هو الذي اجتهد في الحكم ولكنه أخطأ، فهو مخطئ..

ومن ذلك تتضح دقة استعمال اللفظ المناسب لأنهم تعمدوا الخطأ، واعترافهم يستوجب التوبة.

وروي أن رسول الله ﷺ أخذ بعاضدتي الكعبة يوم الفتح، فقال لقريش ما تروني فاعل بكم؟ قالوا: نظن خيراً، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم، وقد قدرت. فقال ﷺ: أقول ما قال أخي يوسف، لا تثريب عليكم اليوم[٢].

تُستَشَفُ لهجة الإنكسار والانخذال والخجل مما أقدموا عليه، فَيُضَمِّنوا كلامهم اعترافاً، بل وإقراراً بالذنب، ومع ذلك فإن يوسف يقابل الخطيئة بالصفح والعفو، فمنذ أن تركوه وحيداً في غيابت الجب لم يحنق عليهم، فقد انتهى الأمر من نفسه، فقط يذكرهم بما فعلوه، لم يفكر في محاسبتهم أو معاتبتهم، و لم يزد ألمهم وشعورهم المخجل، وقد عرفوا أن الله ﷻ أحسن إليه،

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٩١-٩٣.

(٢) أخرجه النسائي، والبيهقي، من رواية ثابت عن عبد الرحمن بن رباح عن أبي هريرة، بمعناه كما ذكره آخرون. الكشاف: ٥٠٣/٥.

وأنهم لم يجنوا سوى الخسران، فيأتي رده فورياً، دون تعليق على ما قـــالوا، رد النبي المحسن بجملة مستأنفة (قال لا تثريب عليكم اليوم) أي: لا مؤاخذة لكـــم ولا تأنيب ولا توبيخ، وأصل "التثريب" من الثرب وهو الشحم الذي هو غاشية الكرش، ومعناه: إزالة الثرب[1]، وقد استخدم اللفظ مجازياً على سبيل الاستعارة التبعية بمعنى: لا تأنيب ولا عتب، أو على سبيل الاستعارة المكنية مـــن تشـــبيه العتاب واللوم، بإزالة الثرب "الشحم" الذي إذا ذهب يكـــون غايـــة الهـــزال والعجف.

وفي التثريب ـــ العتاب والتأنيب ـــ إثبات للصفح والعفو، يؤكد ذلك في قوله (يغفر الله)، إذاً اليوم وبعد مرور السنين، وقد مَنَّ الله علينا، فلن تلامـــوا أو تعاقبوا، ولفظ (اليوم) اختلف في تعلقه بـــ(لا تثريب) أو بالمقدر في (عليكـــم) من معنى الاستقرار، أو بـــ(يغفر)، فقد وقف بعض القـــراء علـــى (عليكـــم) وآخرون وقفوا على (اليوم) فيكون الترتيب كما يلي:

(لا تثريب عليكم) وبعده وقف ثم استئناف (اليوم يغفر..).

أو(لا تثريب عليكم اليوم) وقف ثم استئناف (يغفر لكم..).

وعلى الوقف الثاني يكون المعنى موافقاً للسياق، ويكون قوله: (يغفر لكم) متضمناً معنى الدعاء لهم، والرجاء أن يغفر الله لهم، باعتبار محذوف، والتقديـــر: لا تثريب عليكم اليوم، وأرجو الله أن يقبل دعائي لكم بالمغفرة.. والدليل علـــى حسن هذا الوجه، أنه يقصد لا اقتصاص منكم اليوم، بعد أن اعترفتم بخطيئتكم، فتقدير الكلام: اليوم حكمت عليكم هذا الحكم.

---

(١) الكشاف: ٥٠٢/٥.

ولنتأمل التوافق بين قول يوسف عليه السلام (لا تثريب عليكم اليوم يغفر لكم) وقول أبيه فيما بعد (سوف أستغفر لكم ربي) كلاهما يطلب لهم المغفرة، وهذه صفات الأنبياء، الصفح والعفو عند المقدرة.

وتأتي الفاصلة القرآنية (وهو أرحم الراحمين) متوافقة مع المعنى مؤكدة لما سبق من دعاء يوسف لإخوته بمغفرة من الله، فإن من صفات الله التي بها يغفر أنه أرحم الرحماء، فهو رحيم بعباده إذا أخطأوا، قادر على أن يغفر لهم، ويرحمهم من عقابه، وهو (يغفر لمن يشاء بغير حساب).

ولأن يوسف يعلم الألم الذي يعاني منه أبوه بسبب الحزن الشديد، فقد بادر بأن طلب منهم على سبيل الالتماس أن يذهبوا إلى أبيهم في قوله: (اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً) وفي ذلك وجهان:

الأول: أنه من الواضح أن يوسف عليه السلام علم من إخوته أن أبوه فقد بصره، ومن المؤكد أيضاً أن يوسف عليه السلام قد علم بوحي من الله أن إلقاء قميصه على وجه أبيه، يجعل بصره يرتد إليه، لأن العقل لا يدل على مثل هذه الأمور، ولا يمكن أن يدعي يوسف النبي أنه يشفي بقميصه إلا بقدرة الله ووحيه إليه.

والثاني: قيل: إنه ربما أن يوسف عليه السلام علم أن كثرة بكاء أبيه أضعفت نظره فاقترح إلقاء القميص على وجهه، فإذا علم أن يوسف حي يرزق يفرح وينشرح صدره، فيزول عنه ضعف البصر.

والوجه الأول هو الموافق لسياق المعنى؛ لأن البصر يقابله العمى، ولو ضعف بصره لقيل: ألقوه على وجه أبي يقوى بصره..

وقوله: (بقميصي هذا) تعريف للقميص، يعني أنه قميص معين، يشار إليه معروف بأمر الله أنه سوف يشفي أباه من العمى.

وقوله: (يأت بصيراً) أي يصير بصيراً، وقيل: (يأت) بصيراً أي: يأتي إلي بصيراً، ثم قال: (وأتوني بأهلكم جميعاً)، أي أن فعل الإتيان متكرر، والتفسير على المعنى الأول هو الحسن، والذي يناسب السياق لأن قوله يأت بصيراً: يعني أنه لم يكن بصيراً، وأن القميص بقدرة الله يجعله بصيراً، ويؤكد ذلك قوله: (وابيضت عيناه) فإن ابيضاض العين من مظاهر العمى.

إن الله عز وجل أوحى إلى يوسف عليه السلام أن رائحة قميصه سوف تجلب الانشراح إلى قلب أبيه، فيرتد بصره، فذلك مما علمه ربه..

وصول البشرى وتحقق الأمل

توالت الأحداث في القصة حدثاً تلو الآخر، ومفاجأة تعقبها مفاجأة لتصل الأحداث إلى أهم جزء فيها، إنه وصول البشير بقميص يوسف وتحقق أمل الأب المحزون الذي كف بصره من الهم والغم، وبقي أن تتحقق رؤيا الصغير المجتبى من رب العالمين.

ظل قلب يعقوب عالقاً بالأمل واثقاً في قدرة الله وقدره، عازفاً عن فكرة هلاك ابنه، صابراً منتظراً لحظة البشرى، إلى أن تحقق أمله في قوله:

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتْ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[1].

وكالمعتاد في كل مراحل القصة تحذف الأحداث التي تفهم من السياق وتذكر فقط المواقف المؤثرة والفعَّالة في الحدث، ودائماً عند الفصل والاستئناف في الزمن اللاحق تذكر (لما) مع واو الاستئناف للدلالة على الزمن، والتقدير: لما طلب يوسف عليه السلام من إخوته أن يذهبوا أجابوا له طلبه وخرجوا قاصدين بلادهم..

و(فصلت[2] العير) قيل: عندما خرجت من مصر متوجهة إلى بيت المقدس، والواقع أنه لا يوجد سند يدل على المسافة التي فصلت منها العير فقد

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٩٤-٩٦.

(٢) يقال: فصل من البلد فصولاً، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه، وفصل فلان من عند فلان فصولاً إذا خرج من عنده، وفصل يكون لازماً ومتعدياً، وإذا كان لازماً فمصدره (فصولاً)، وإذا كان متعدياً فمصدره (الفصل). انظر: الكشاف: ٥٠٤/٢، والتفسير الكبير: ١٧-٢٠٧/١٨.

قيل: لما فصلت العير عند مفارق الطرق في أرض كنعان، واتجهت إلى محلة يعقوب عليه السلام، قال لمن حوله من أهله وأهل بلدته: (إني لأجد ريح يوسف) هكذا شعر الأب بوجود أثر ابنه يقترب منه، والجملة من الضرب الإنكاري فالخبر مؤكد بـ(إن واللام)، وإسناد (إن) للضمير لزيادة التأكيد على أنه هو بنفسه وجد رائحة يوسف.

قيل: إن معنى (لأجد) أي أشم، ومعنى: (ريح): أي رائحة، فلماذا آثر النص القرآني قوله: (لأجد ريح يوسف) و لم يقل: لأشم رائحة يوسف؟

وقبل التعليق والتفسير يمكن للمتذوق أن يستشعر جمال الصياغة القرآنية فإذا ما قارنا بين (أجد) و(أشم) نلحظ أن (أجد) أوقع في تحديد المعنى؛ لأن يعقوب عليه السلام ظل زمناً طويلاً يبحث عن أثر يوصله لمكان ابنه وهو واثق في رحمة ربه، و لم يفقد الأمل، فجاء قوله: (أجد) للدلالة على وجود هذا الأثر ولكونه بعيد عنه فإن لفظ (أشم) لا يقال إلا عن الرائحة القريبة من الإنسان والتي تتمكن حاسة الشم من التقاطها، والشم يكون لرائحة حقيقية منتشرة في مكان بعينه، أما (أجد) ففيه معنى الوحي من الله لأن العير كانت على مسافة بعيدة اختلف في تقديرها لذلك فإن لفظ الشم لم يكن ليناسب مثل الفعل (أجد).

أما قوله: (ريح) فهو أوقع — أيضاً — وذلك لأن الريح تهب من بعيد تحمل الروائح من مكان إلى آخر، أما الرائحة فإنها محدودة بمكان لا تتعداه إلى مسافات بعيدة.

فإن الله عز وجل عندما أراد وحانت لحظة الفرح وانقضاء المحنة أرسل إلى يعقوب عليه السلام ريح يوسف من المكان البعيد، فوجدها، والوجدان كان بحاسة الشم المعنوية التي أوحى الله بها إليه.

وإذا افترض أن العير فصلت عند مفارق الطرق في أرض كنعان واتجهت إلى محلة يعقوب عليه السلام، فإن المسافة ــ أيضاً ــ ليست قريبة كفاية ليشم يعقوب عليه السلام رائحة قميص ابنه، والتفسير الذي يجد راحة في النفس: أن خارقة من الخوارق يمكن أن تقع ليعقوب النبي عليه السلام من ناحية نبي كيوسف عليه السلام، فإن السياق يدل على أن يعقوب عليه السلام وجد ريح يوسف عليه السلام بوحي من الله، وليس بأمر طبيعي يحدث لكل الناس، إنما هو حدث خاص بنبي الله يعقوب عليه السلام مكافأة له على صبره الجميل، بدليل أن المحيطين بيعقوب لم يكن لديهم نفس الاعتقاد بوجود هذا الريح، في حين يأتي كلامه مؤكداً من الضرب الإنكاري، بـ(إن) المتصلة بالضمير (ياء) المتكلم و(اللام) المزحلقة المتصلة بخبر (إن)؛ لأن المخاطب ينكر ويشك في الخبر، لذلك نجد يعقوب عليه السلام يحترز في كلامه لأنه لم يجد حوله من يتجاوب معه، فقال: (لولا أن تفندون) سبقهم بهذه العبارة، قبل أن يسمعها منهم وهي جملة شرطية بـ(لولا) التي تفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط محذوف فيها الجواب والتقدير: لولا تفنيدكم إياي لصدقتموني، وكذلك: لولا أن تنسبوا إليّ الخرف لصدقتم ما أجده من ريح يوسف.

و(تفندون) معناها: تسفهون، تجهِّلون، تكذِّبون، تقبِّحون، وكلها وغيرها معاني متقاربة، تعني: أنه لولا أن تقولوا: شيخ خرف عقله من الهرم لصدقتم معي أن ما أجده هو ريح الغائب البعيد، ولكن كيف يتسنى للمحيطين به أن يجدوا ما وجد يعقوب، وهم ليس لهم ما له عند ربه..

لذلك أسرعوا بالرد عليه: (قالوا: تالله إنك لفي ضلالك القديم)..

والضلال القديم مجاز بالاستعارة من تشبيه الشقاء والحزن والهم بالضلال ووصفه بالقديم لقدم عهده في الحزن واستمراره فصار بمثابة الشيء القديم..

وقد تكرر أسلوب القسم في القصة على هذا النمط أربع مرات:

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ ﴾(١).

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾(٢).

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ ﴾(٣).

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾(٤)..

اختلف في القسم (تالله إنك لفي ضلالك القديم) هل هو لأبناء يعقوب، أم من كانوا يحيطون بيعقوب لحظة إيجاده ريح يوسف، ويشير المعنى إلى أن القسم من المحيطين به؛ لأن أبناء يعقوب عليه السلام لم يكونوا قد وصلوا إلى أبيهم بعد..

وبعودة سريعة لما تردد على لسان يعقوب عليه السلام للدلالة على أنه كان ينتظر تلك اللحظة وذلك حينما قال:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (٥).

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (٦).

﴿ وَلا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴾(٧).

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(٨).

---

(١) سورة يوسف، آية: ٧٣، وقد سبق تفسيرها..
(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٥، سبقت قريباً..
(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٥.
(٤) سورة يوسف، الآية: ٩١، سبقت قريباً..
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٨، سبق تفسيرها..
(٦) سورة يوسف، الآية: ٨٦، سبقت قريباً..
(٧) سورة يوسف، الآية: ٨٧، سبقت قريباً..
(٨) سورة يوسف، الآية: ٨٧، سبقت قريباً..

وقولهم: (إنك لفي ضلالك القديم) اختلف المفسرون في معنى الضلال وتذكرنا الآية بقول أبنائه: (إن أبانا لفي ضلال مبين) لأنه يؤثر يوسف عليهم.

فالمراد من الضلال في الآيتين أن يعقوب عليه السلام كان غير محق في تصرفاته وأفعاله.

والجملة خبرية من الضرب الإنكاري مؤكدة بالقسم وإن واللام، للدلالة على شدة إنكارهم لما يقوله يعقوب وما يحسه من وجود (ريح يوسف).

فتأويل الضلال جاء بمعنى: إنك في شقائك القديم، بما تعاني من الحزن على يوسف، واعتقادك بأنه حي وهو قد هلك..

أو بمعنى: إنك لفي حبك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه، وقيل المعنى: إنك لفي خطئك، وقيل: لفي ذهابك عن الصواب قدماً في إفراط محبتك ليوسف..

يرى المفسرون أنها كلمة غليظة ما كانت لتقال لنبي وهم يعلمون أنه نبي الله، وإنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات، ومع ذلك كان يعقوب مولعاً بذكره وقد جدد حزنه عليه واقعة بنيامين.. لذلك سُمِّيَ بـ(ذي الحزنين).

أنكر الجميع على يعقوب عليه السلام ما ذهب إليه عقله وما أحس به قلبه، ولكن المفاجأة أذهلت الجميع، فإن ما قاله يعقوب عليه السلام تحقق وما حكم به وتمناه أصبح حقيقة حينما جاء البشير في قوله: (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً)، و(أن) زائدة تأتي بعد (لما) الحينية، فهل لكونها زائدة لا تفيد في المعنى؟

والحقيقة أنه لا يوجد لفظ ولا حرف إلا وله فائدة، لذلك فإن كون (إن) زائدة، لا يعني عدم ضرورتها للمعنى، فإذا نظرنا إلى المعنى من دونها (لما جاء

البشير)، نجد فرق في المعنى عن (فلما أن جاء البشير)، فإن ذكرها يعطي إضافة زمنية وتوكيد لوصف الحالة عند مجيء البشير مع (أن) دلّت على مرور فترة من الزمن بعد قول يعقوب عليه السلام، كذلك كأن الزمن توقف لحظة وصول البشير، وتنبه الجميع والتفتوا نحوه وهو يلقي بقميص يوسف على وجه يعقوب (فارتد بصيراً) والفاء للترتيب والتعقيب للدلالة على سرعة الشفاء فالبصر عاد لحظة وقوع القميص على وجهه، ليجدوا المفاجأة الثانية: حين يرتد بصره بعد ما ابيضت عيناه وأصبح ميؤوس من شفائها.

وقد جرت العادة إذا أريد التبرك بشيء أن يمسح به الوجه لذلك فإن إلقاء القميص كان على الوجه كله والقصد (العينين) فذكر الكل وأريد الجزء، فالقميص عند إلقائه لا بد أن يشمل الوجه، لذلك فالظاهر أنه أريد الوجه كله.

وقد عدل عن مبصر (فعل) إلى بصير (فعيل) صيغة المبالغة للدلالة على أنه عاد بصره كما كان مع زيادة في قوة الإبصار، بعد أن أصيب بالعمى، وقوله: (ارتد) يدل على التحول والانتقال من حال إلى حال، و لم يقل رد له بصره، لأن (ارتد) يدل على إعادة الكرة، بمعنى أن بصره كان موجوداً ثم فقده ثم عاد إليه مرة أخرى، فإن ارتده بمعنى ارتجعه.

والإلقاء كان من قبل البشير وليس من يعقوب، كما أنه واحد من أبناء يعقوب عليه السلام أراد أن يبشره، بدليل قول يوسف: (اذهبوا بقميصي هذا وألقوه على وجه أبي يأت بصيراً) فالأمر واضح، كما أنه مرت فترة من الزمن في قوله: (فلما أن جاء البشير) تدل على أنه عند وصولهم تقدم أحد الإخوة بقميص يوسف وأسرع بإلقائه على وجه أبيه.

وهنا يقول يعقوب عليه السلام قولته المعروفة، التي سبق وقالها و لم يعطه أحد بالاً، إنه الآن وقد نصره الله، وأجاب طلبه، ولبى دعاءه:

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾.

نلاحظ المطابقة بالسلب بين (أعلم) و(لا يعلمون)، وهكذا يشعر عليه السلام بالانتشاء والفرحة، فينظر إلى الجميع قائلاً: (ألم أقل لكم) استفهاماً تقريرياً..

فقد ثبت أن ما يقوله الحق، وأنه كان يعلم بوحي من الله عز وجل أن يوسف عليه السلام موجود و لم يهلك، فيقول لهم بلغة المعاتب المقرر: قلت لكم لكنكم لم تصدقوني، واعتبرتموني مضللاً، وشيخاً خرف، لا عقل له، والآن وقد ثبت باليقين أن يوسف حي، وأن الله قد صدق وعده، وأعزني برؤية يوسف عليه السلام وأعزه بالنبوة والملك معاً، لتتحقق رؤياه كما أراد الله عز وجل .

وقيل: أن (ما لا تعلمون) هو انتظاره لتأويل الرؤيا، ويحتمل أيضاً أنه يشير إلى حسن ظنه بالله.

وبسرعة يعترف الأبناء بخطيئتهم ويرجون من الأب أن يستغفر لذنوبهم من الله عز وجل.

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[١].

هكذا اعترفوا مرتين بأنهم خاطئون، وسبق توضيح الفرق بين الخاطئ المتعمد الخطأ، والمخطيء الذي يبذل جهده لكنه يخطيء، و لم يقولوا (ذنبنا) لأنهم وقعوا في عدة ذنوب، كما اتضح من القصة، ونلاحظ أنهم لم يطلبوا من أخيهم المغفرة، رغم اعترافهم بالخطأ، ربما من هول المفاجأة، وربما نوع من الشعور بالكبر والعزة، فكيف يطلبون منه وهو الأصغر أن يغفر لهم وهم العصبة

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٩٧-٩٨.

من الرجال، وخاصة إذا أقسموا أن الله يؤثره عليهم ويفضله بالعلم والملك وكل ما يفضل به أنبياءه لكنهم طلبوا من أبيهم على سبيل الرجاء أن يستغفر لهم، وبرغم ما في قلب يعقوب عليه السلام من أبنائه، فقد وعدهم باستغفار الله لهم، بعد أن يصفو ويرتاح قلبه، و(سوف) تأتي للتسويف، بمعنى ليس الآن ولكن فيما بعد استغفر الله لكم، يقول سيد قطب: "وحكاية عبارته بكلمة (سوف) لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم"[1].

فقد وعدهم بالاستغفار، والعبارة أبلغ في التنفيس بالسين، ويحتمل أن يكون المعنى — أيضاً — سوف أداوم على الاستغفار لكم، المهم أن ظاهر الكلام يدل على أنه لم يستغفر لهم في الحال، بل وعدهم.

ولكي يطمئن قلوبهم، جاءت الفاصلة القرآنية مؤكدة أن الله (هو الغفور الرحيم) أي إنه دائم الغفران لكل من يطلب الاستغفار، وأنه دائم الرحمة بعبادة كلما تابوا وأصلحوا دينهم.

يريد يعقوب أن يقول لأبنائه لا تفزعوا من ذنوبكم ولا تيأسوا لأن الله يغفر الذنوب جميعاً ورحمته وسعت كل شيء.

وتمضي الأحداث في القصة القرآنية المعجزة لتصل إلى فصل الختام إلى اللحظة المرتقبة.. لحظة تحقيق الرؤيا، ذلك المشهد المؤثر لحظة لقاء يوسف عليه السلام بأبويه وإخوته وأهله أجمعين.

---

(١) تفسير القرآن: ٢٠٢٨/١٣.

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾(١).

وكما هو من سمات الصورة يسبق المشهد الأخير كلام محذوف للإيجاز مفهوم من السياق، وتقديره: لما علم يعقوب بوجود يوسف، وقد أبلغه أولاده أنه يريد منهم الحضور عنده، رحل بأهله أجمعين، وساروا حتى وصلوا مصر ودخلوا على يوسف.

استقبلهم يوسف ومعه أخوه وجنوده وأهل مصر أجمعين، و(آوى إليه أبويه)، والإيواء بمعنى اللجوء إلى مكان يكون المأوى الآمن والإيواء على سبيل الاستعارة بمعنى: ضمهما وعانقهما فشبه الضم والعناق بالإيواء، كما فعل مع أخيه من قبل على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية في الفعل .

هكذا أصبح يوسف هو الملجأ والملاذ لأبويه ولأهله، وكانت مصر البلد الذي عاشوا فيه بعد ذلك، استقبلهم الشعب، وفرحوا بهم لأنهم فرحوا بمليكهم الذي أنقذهم من القحط والجوع، وساعدهم أن يتخطوا السنوات العجاف حتى عاد الرخاء والخير إلى البلاد.

ثم قال: (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) هكذا أمنهم على أنفسهم في مصر بلد الأمن والأمان، فقد عزها وخلدها الله بذكر اسمها، ونظيره قوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (٢).

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ٩٩-١٠٠.
(٢) سورة الفتح، آية: ٢٧.

أمرهم بدخول مصر على سبيل طمأنة قلوبهم، لأنهم كانوا قد دخلوها فعلاً، فالأمر بمعنى: تمكنوا منها، واستقروا فيها، وعلق ذلك بمشيئة الله، لأنه لا استقرار لهم في أرض إلا بمشيئة الله، والآمنين يعني على أنفسكم وأموالكم وأهليكم لا تخافوا أحداً..

وقد يكون الفعل (ادخلوا) من قبيل التعبير عن الماضي بلفظ الحاضر، والتقدير: دخلتم.

قيل إنه آوى إليه أبويه، وقيل: أمه قد ماتت وأن يعقوب تزوج خالته فقامت مقام أمه، وهذا التفسير أقرب، نظراً لعدم ورود ذكرها خلال القصة، فلو كانت موجودة لحزنت على يوسف كما فعل يعقوب. والله أعلم.

(ورفع أبويه على العرش) والواو عاطفة، لكمال الاتصال إذ وردت الجمل الفعلية متتالية تدل على أفعال يوسف فعلاً تلو الآخر (آوى، وقال، ورفع)، قيل: العرش هو سرير الملك الرفيع..

كما وصف عرش بلقيس ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ (١)، ورفع أبويه على العرش مبالغة في تعظيمهما، وحفظ حقوقهما عليه.

وياله من موقف مهيب، بعد معاناة وابتلاء للأب وابنه، وبعد مرور يوسف بكل هذه المراحل من الابتلاءات، إلى أن يمكن له الله في أرض مصر، وليتم تأويل رؤياه، ولتكتمل الحبكة القصصية ويرتبط آخرها بأولها، و(يخروا له سجداً) وأجهد المفسرون أقلامهم في التساؤل: هل خرَّ يعقوب ساجداً ليوسف أم لله؟ وأوّلوا الكلام تأويلات مختلفة محاولين تجنيب يوسف عليه السلام أن يرضى بأن يسجد له أبواه، معللين ذلك بأنه رفعهما إلى العرش وأن السجود كان من الأبناء.. وهذه التفسيرات كلها مخالفة لتأويل رؤياه.

---

(١) سورة النمل، آية: ٢٣.

والتفسير المقبول هو الذي يتوافق مع رؤيا يوسف، أي أنه رفع أبويه وخروا جميعاً له ساجدين، وذلك أمر طبيعي فقد كان يوسف ملكاً ومن عادات تحية الملوك السجود، فلم يكن السجود بقصد العبادة لغير الله، فقد كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة، ويتضح ذلك من الرسوم المنحوتة على معابد المصريين وربما هي تحية الملوك في العهد القديم، من باب التعظيم والتوقير، وقيل: وخروا سجداً أمام يوسف لله شكراً، ولكن ذلك لا يتوافق مع قول يوسف عليه السلام: (رأيتهم لي ساجدين)، وقيل: لم يسجدوا وإنما انحنوا أمامه، وهذا أيضاً مردود لقوله: (وخروا سجداً) فإنه السجود المعهود والمعروف، والضمير في (له) عائد على يوسف عليه السلام لمطابقة الرؤيا، إذاً كان السجود تحية لا عبادة..

(وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل).. وفي الكلام حذف تقديره: من قبل هذه الحوادث والابتلاءات التي جرت بعد رؤياي، وحسد إخوتي، يرى يوسف عليه السلام تأويل رؤياه بين يديه، فيخاطب أباه مذكراً.. ويقول: (قد جعلها ربي حقاً) أي: صادقة، بعد أن كانت رؤيا، صارت حقيقة واقعة، وهنا لا ينسى يوسف أن يستطرد في ذكر إنعام الله ﷻ عليه، (وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن) لم يذكر نعمة إخراجه من البئر ربما لأن فيها إحراج لإخوته وهو الذي قال لهم: (لا تثريب عليكم اليوم)، فكان من الكرم أنه تناسى ذلك، ولم يذكر حادثة المراودة، لأنه طهَّر نفسه وبرءها وذكرها لا يأتي بالمنفعة.

وربما كان متزوجاً بزليخا في ذلك الوقت، فكان ذكر هذه الحادثة أمر معيب في حقها وهي التي استغفرت ربها وتابت، وليس من مصلحة يوسف عليه السلام وقد صار ملكاً أن يعيد الخوض في مثل هذه الأمور..

(وأحسن بي) الأصل أن يتعدى بـ(إلى) مثال قوله تعالى: ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [١]، و(بي) أبلغ لشمول الإحسان مع اللطف، أي: ولطف بي.

(وجاء بكم من البدو) أي: من البادية، معطوف على أخرجني، ويريد بذلك أن كل هذه النعم بأمر من الله، ولا دخل لبشر في ذلك.

وبذلك يقابل يوسف نعمة إخراجه من السجن بمجيء أهله من البدو، لأن خروجه واعتلاءه عرش مصر كان سبباً في مجيئهم من البدو والاجتماع بأبويه وإخوته، وزوال ما في قلبه منهم، واعترافهم بالذنب وطلب المغفرة وزوال حزن أبيه، كل ذلك مما أنعم الله به عليه وعليهم.

فقوله: (من بعد أن نزغ[٢] الشيطان بيني وبين إخوتي) أي: من بعد أن أفسد بيننا وأغرى فأسند النزغ إلى الشيطان لأنه الموسوس وهو تأكيد من يوسف أنه لم يعد الشيطان متمكناً من إخوته بعد أن أطاعوه وغررهم وجعلهم يرتكبون الذنوب في حق أبيهم وأخيهم لأنه هو السبب في حملهم عليه، كما سبق وأوضح له أبوه حين نهاه أن يقصص رؤياه على إخوته فيكيدوا له؛ لأن (الشيطان للإنسان عدو مبين) والآن وقد افتضح أمر الشيطان، فإن النعمة الحاصلة إثر شدة وبلاء يكون وقعها أحسن.

ثم قال: (إن ربي لطيف لما يشاء) أي: لطيف التدبير لما يشاء من الأمور فإن اللطف من صفات الله وكما هو واضح جاء مناسباً للحال متفقاً مع مجريات الكلام والجملة من الخبر الطلبي، يؤكد أن الله ﷻ إذا أراد حصول شيء

---

(١) سورة القصص، آية: ٧٧.

(٢) وأصل النزغ: من نخس الرائض الدابة، وحمله على الجري، يقال: نزغه ونسغه إذا نخسه. الكشاف: ٢/٥٠٦.

سهل له أسبابه، فكان لطيفاً بهم إذ جمعهم بعد تفرق وبعد مكابدة الألم والهم والغم.. أراد الله ﷻ لهم الفرح والسعادة..

وتأتي الفاصلة القرآنية (إنه هو العليم الحكيم) وفيها قصر بضمير الفصل (هو) لتأكيد أنه لا عليم ولا حكيم إلا الله قصراً حقيقياً تحقيقياً، والجملة خبرية إنكارية، تكرر فيها الضمير لزيادة التأكيد.

والفاصلة مستأنفة، والمعنى مترتب على المعنى في الجملة السابقة (إن ربي لطيف لما يشاء) فهو لطيف في أفعاله؛ لأنه عليم بكل شيء مطلع على عباده، وحكيم في أفعاله — أيضاً — مبرأ عن العبث يدير الأمور بحكمة، فكان ابتلاء يعقوب ويوسف ومرورهما بكل هذه الظروف لحكمة يعلمها، وقد تجسدت النهاية بما يدل على (أن الله عليم حكيم)، وهو ذات الكلام الذي قاله يعقوب ليوسف وهو يقص عليه رؤياه (إن ربك عليم حكيم) ليتوافق السياق وتتحد العبارات في مضامين القصد من بدايتها إلى نهايتها.

وفي الختام لا يفوت يوسف عليه السلام وسط مشاعر الفرح والنشوة أن يتوجه إلى الله ﷻ يبتهل ويسبح شاكراً ذاكراً فضل الله عليه وقد أصبح في كامل الأبهة والملك والعز، وتحققت رؤياه، يقول الله ﷻ من دعاء يوسف لربه:

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[1].

في الآية التفات جميل حيث يعطي يوسف عليه السلام نفسه فرصة للاختلاء والتوجه إلى الله ﷻ والجملة مستأنفة، تدل على توجه يوسف عليه السلام بكامل عقله

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠١.

وقلبه إلى الله و(من) التبعيضية، أي أنه لم يوت إلا بعض ملك الدنيا، وبعض التأويل..

تأمل التناظر بين (آتيتني من الملك) وهو إشارة إلى تعلق النفس بعالم الأجساد العالم الفاني وقوله: (وعلمتني من تأويل الأحاديث) إشارة إلى تعلق النفس بحضرة جلال الله؛ لأن التأويل بوحي من الله، ولما كانت عطايا الله في هذا الباب لا نهاية لها ولا تعد ولا تحصى للبشر فقد منح يوسف بعضاً منها، أي بعضاً من الملك الذي ملكه للبشر، وبعضاً من التأويل الذي أوحى به لمن أراد..

وقوله: (فاطر السماوات والأرض)، فالفطر[1]: الشق، وقد صار بمعنى الإيجاد، أي: أن الله موجد السماوات والأرض، ومثله قوله تعالى: ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [2].

وذكر (فاطر) على سبيل الاستعارة التبعية بمعنى: موجد، وقد فُسِّر (فاطر) على معناه الحقيقي: الشق، حيث أنه يقال: إن الأرض جزء من المجموعة الشمسية التي كانت كتلة واحدة فانشقت وتناثرت أجزاؤها مكونة المجموعة الشمسية ولكن هذا التفسير لا يدل على المعنى الدقيق لفاطر السماوات والأرض.

والاعتراف بنعم الله، وشكر الله عليها، لا يصدر إلا عن إيمان بالله وتقدير لفضله فهو فاطر السماوات والأرض، وهو الحقيق بأن يشكر ويذكر؛ لأنه هو خالقها ومدبر أمرها، وله القدرة عليها وعلى أهلها.

---

(١) وأصل الفطر في اللغة: الشق، يقال فطر ناب البعير إذا بدا.. وفطرت الشيء فانفطر شققته فانشق.. انظر: التفسير الكبير: ١٧-١٨/٢١٧.

(٢) سورة الروم، آية: ٣٠.

وقوله: (أنت وليي) أي: أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، من قصر الولاية على الله فهو وليه وولي جميع خلقه، فالله هو الناصر والمعين في الدنيا والآخرة.

وقوله: (وتوفني مسلماً) الأمر للدعاء، يدعو الله إذا توفاه أن تكون وفاته على الإسلام، وقد اعتبر كثير من المفسرين أن يوسف الوحيد من الأنبياء الذي تمنى الموت، والواقع يدل على أن المعنى لا يفيد تمني الموت، وإنما يريد: إذا أمتني فأمتني على الإسلام.

وقوله: (وألحقني) والأمر للدعاء ــ أيضاً ــ معطوف على (توفني) لكمال الاتصال بينهما، أي: وألحقني بالصالحين من آبائي، أو عموم الصالحين، في ثوابهم ودرجاتهم..

وهكذا تغلق القصة بابتهال النبي يوسف عليه السلام إلى الله عز وجل أن يحفظ إسلامه ويمته على دينه..

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

(ذلك) إشارة لما سبق من قصة يوسف عليه السلام، فإنها نبأ من أنباء الغيب التي حدث بها الله عز وجل، والآية فيها التفات تام وخروج عن القصة والتحول لمخاطبة الرسول ﷺ، وإخباره أن ما جاء في القصة وما أبلغ به أمته هو من وحي الله له، وليس من عنده، ذلك أن هذه القصة لم تكن معروفة بكل تفاصيلها للناس، وإنما هي من أنباء الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وأخبر به نبيه، وقد نزلت مشروحة شرحاً وافياً.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ١٠٢-١٠٣.

وجملة (نوحيه إليك) مفصولة لأنها بيان للجملة الأولى، بمعنى: هذا الغيب الذي نوحيه إليك، والفعل (نوحيه) من ذكر المضارع وإرادة الماضي أي: (أوحيناه)، والمضارع للدلالة على الاستمرارية في الماضي والحاضر.

أما قوله: (وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون).

وهذا الكلام مما يسمى: بالاحتجاج النظري، أو المذهب الكلامي[1]، أي: ما كنت عند أبناء يعقوب عندما أجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب وهم يمكرون به للتخلص منه بدعوى حب أبيه وتفضيله عليهم، و لم تكن عندهم عندما توالت النكبات والابتلاءات على يعقوب وولده.

الواو استئنافية وقوله: (ما كنت لديهم) أي ما كنت عندهم على سبيل التهكم بمن سأله من اليهود لأنه معلوم أن محمداً ﷺ لم يكن موجوداً عند بني يعقوب عليه السلام، و(إذا) ظرفية بمعنى (حين)، وجملة (وهم يمكرون) حالية مربوطة بالواو والضمير بمعنى: وحالهم أنهم يمكرون، وفائدة الجملة الحالية المربوطة بما قبلها، تأكيد وتوضيح الحال التي كانوا عليها، وأنهم لم يتمكنوا من التخلص من يوسف إلا بالمكر والمخادعة.

وقد اتفق الاحتجاج بأن محمداً ﷺ لم يكن موجوداً في قرون غبرت مع قوله ﷻ في أول السورة: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [2].

---

(١) والمذهب الكلامي: أن يلزم الخصم ما هو لازم للاحتجاج، أو "أن يورد المتكلم على صحة دعواه حجة قاطعة مسلمة عند المخاطب، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب. انظر: جواهر البلاغة، للهاشمي. م العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٣، وقد سبق تفسيرها..

والمراد إذاً أن "ذلك القصص الذي مضى في السياق من الغيب الذي لا تعلمه ولكننا نوحيه إليك وآية وحيه أنه كان غيباً بالقياس إليك، وما كنت معهم إذ جمعوا واتفق رأيهم، وهم يمكرون ذلك المكر الذي تحدثت عنه القصة في مواضعه، وهم يمكرون بيوسف عليه السلام، وهم يمكرون بأبيهم وهم يدبرون أمرهم بعد أخذ أخيه، وقد خلصوا نجياً وهو من المكر بمعنى التدبير، وكذلك ما كان هناك من مكر بيوسف عليه السلام من ناحية النسوة ومن ناحية رجال الحاشية وهم يودعونه السجن، كل أولئك مكر ما كنت ﷺ يا محمد حاضره لتحكي عنه، إنما هو الوحي الذي سبقت السورة لتثبته من بين ما تثبت من قضايا هذه العقيدة وهذا الدين، وهي متناثرة في مشاهد القصة الكبيرة"[1].

وقوله: (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين).

فالظاهر أن المراد: عموم الناس، وقيل: المراد أهل مكة، وقيل: اليهود الذين طلبوا من محمد ﷺ القصة، أي: ولو سعيت يا محمد واجتهدت في طلب إيمانهم لا يؤمنون، لفرط عنادهم وتصميمهم على الكفر، إذ انتفى الإيمان عن كثير من الناس، ونفيه عن الكثير يثبت الإيمان للقليل، وجواب (لو) محذوف والتقدير: لو حرصت لم يؤمنوا، ومخاطبة الرسول بهذه الآية المراد منه التنبيه إلى أن هؤلاء الناس من اليهود والذين ظنوا أنهم يعنتون الرسول ويعجزونه، بطلب القصة، بعد علمهم وسماعها، ظلوا على عنادهم ولم يؤمنوا، فإن مقتضى الحال يقول أنهم بعد سماعهم للقصة من المفترض أن يؤمنوا لعلمهم أنها من أنباء الغيب، فلا تكترث يا محمد، لأن الله لو أراد أن يهديهم لاهتدوا، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾[2]، لذا دعهم وما هم فيه من كفر.

---

(١) تفسير سيد قطب: ٢٠٣١/١٣.

(٢) سورة القصص، آية: ٥٦.

﴿ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[1].

والضمير في (عليه) للدين مقدم لأهميته، واستحضاره في نفس السامع أولاً، والخطاب مستمر من الله ﷻ لمحمد ﷺ، والمعنى: أن حرص الرسول ﷺ على إيمان قومه، وعمله الدائم في التبليغ لتوصيل كلمة الحق إلى الناس، لا يبتغي من وراء ذلك أجراً إنك غني عن إيمانهم، وفي ذلك توبيخ لمن يكفرون بدين الله رغم التبليغ، وإقامة الحجة عليهم، بأن تم تبليغهم من رسول مكلف لا ينتظر من وراء تذكيرهم منفعة، إنهم يمرون على الآيات ولا تؤثر في قلوبهم التي صمت عن ذكر الله، إنك يا محمد النبي المبعوث للخلق أجمعين، حملت الرسالة وصدعت بما أُمرت، ولا ترجو من وراء ذلك إلا إرضاء رب العالمين.

(إن هو إلا ذكر للعالمين)، (إن) بمعنى (ما) منْ قصر الدين أو القرآن على كونه ذكر للعالمين قصراً حقيقياً، يؤكد أن القرآن لم يترل لفئة من الناس دون غيرها، فقد أنزل الله ﷻ القرآن للعالمين، إنه معروض على مائدة الرحمن لكل من انتشى قلبه بحب الله.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾..

(وكأي): اسم فاعل من كان فهو كائن، ومعناها كمعنى (كم) في التكثير.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ١٠٤-١٠٧.

(يمرون عليها): أي: على آياتها، فيشاهدون ما فيها من دلالات على قدرة الخالق وعظمته، وكذلك الضمير في (عنها) للآيات، أي يمرون كثيراً ولا يعتبرون..

وجملة (وهم عنها معرضون) جملة حال مربوطة بالواو والضمير للتأكيد على أن حالهم — رغم مشاهدتهم لآيات الله ليل نهار — حال إعراض وعدم إيمان، والإعراض يعني التصميم على الرفض رغم ظهور الدلائل، وتقديم (عنها) للتأكيد على أن الإعراض يكون عن تلك الآيات رغم وجودها فيما حولهم..

(وفي أنفسهم أفلا يبصرون) توبيخ آخر بهم، لأن هؤلاء الكفار، صموا آذانهم وأغلقوا عيونهم وقلوبهم، فلم ينظروا إلى آيات الله في الكون، و لم يتأملوا كل هذا الإعجاز في خلقه وإنما يمرون عليها فلا تهتز قلوبهم لعظمة الخالق وإنما هم معرضون عنها، فلا عجب أن لا يؤمنوا عندما قصصت عليهم قصة يوسف عليه السلام وما فيها من خفايا لم تكن معلومة، إنهم يرون آيات الله في الكون من حولهم ليل نهار، ولا تهتز أفئدتهم، ولا تثار عقولهم، إنهم اختاروا الإعراض عن ذكر الله، والبقاء على الكفر ومعصية الرسول ﷺ.

لكن هناك من يؤمن بالله ثم يشرك في أفعاله، (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) علمنا أن الذين يؤمنون الإيمان الحق قليلون والكثرة كافرون، ثم هناك المؤمنون المشركون، الذين يقومون بأعمال تدخلهم في دائرة الشرك الخفي، تحدث عنهم القرآن، والظاهر أن هؤلاء لا يدرون أنهم مشركون، ففي الآية قصر إيمان أكثر هؤلاء المؤمنين على كونهم مشركون، فإيمانهم مزيف، وجملة (وهم مشركون) جملة حال مربوطة بالواو والضمير للتأكيد على أنهم رغم ما ينطقون بألسنتهم فهم مشركون.

قيل: إن هؤلاء المشركين هم: من أطاعوا الخلق في معصية الخالق، وقيل: إنهم الذين يشبهون الله بخلقه، أو هم الذين يؤمنون بالله الواحد ثم يشركون معه عبادة الأوثان بدليل قوله: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾[1]، وقيل: إنهم أهل الكتاب "معهم شرك وإيمان"، وقيل: الشرك الدينونة لغير الله فيما يخالف أمر الله، وغير ذلك كثير من تعريف المؤمنين المشركين، الذين آمنوا مجملاً، وكفروا مفصلاً..

إذاً ماذا ينتظر هؤلاء المشركين، ألا يخافون عذاب الله؟ يقول لهم الله ﷻ: ﴿ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [2].

والاستفهام في (أفأمنوا) إنكاري توبيخي كما يستشف منه لغة التهديد والوعيد، والغاشية: النقمة تغشاهم، أي تغطيهم وتشملهم، ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [3].

والمعنى: هل أمن هؤلاء الكافرين، من وقوع نقمة وغضب من الله يشملهم في الدنيا، وأن تباغتهم ساعة يوم القيامة وهم لا يشعرون.

فإن الرابط (أو) يعني أنهم معرضون لعقاب الله في الدنيا والآخرة فلا يأمنوا على حالهم وهم ما زالوا على كفرهم، فإن فرصتهم للإيمان الحق متوفرة الآن، فليحسن المؤمن إيمانه وليحافظ على طاعة خالقه، وإلا لا يلومن إلا نفسه، هكذا تأتي الآية بأسلوب يوقظ النفوس والضمائر، قبل فوات الأوان.

---

(١) سورة لقمان، آية: ٢٥.
(٢) سورة يوسف، آية: ١٠٧.
(٣) سورة العنكبوت، آية: ٥٥.

وجملة (وهم لا يشعرون) جملة حال منفية، مربوطة بالواو والضمير تؤكد أن حال هؤلاء هو الغفلة، لا يشعرون بالذنب الذي يدخلهم في الشرك، لاحظ المناظرة بين: تأتيهم غاشية في الدنيا، وبين تأتيهم الساعة بغتة في الآخرة، فجأة يجد الكافرون أنفسهم في مأزق حقيقي سواء في الدنيا أو في الآخرة وهم لا يشعرون بما يأتيهم فجأة، وهم لم يستعدوا له.

فالعذاب من الله متوقع في الدنيا كما هو حاصل في الآخرة لمن آمن بالله الواحد ثم أشرك، بالأفعال والأقوال..

ولنتأمل كيف مضى السياق في الآيات السابقة بعد الانتهاء من قصة يوسف عليه السلام، وكيف وردت التعقيبات، عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومخاطبة الرسول ﷺ وتبليغه الرسالة، وإيمان البعض وكفر الآخرين، وقد توالت الجمل الحالية المربوطة بالواو والضمير، لوصف الحال وتأكيدها، كما وردت أساليب القصر المؤكدة أيضاً وأساليب النفي، والاستفهام التقريري والإنكاري، وما حمله الكلام من توبيخ وتهكم، وتهديد ووعيد، فقد أعانت هذه الأساليب على بيان، الأمور التي تتجاوز الإثم والذنب إلى حد الشرك، واستعمال الأساليب القوية، لتلمس المشاعر بقوة، وتدق ناقوس الخطر لمن هم في غفلة من أمرهم وهم لا يدرون أنهم يشركون بالله، لكنه شرك خفي، ربما عليهم من أنفسهم ظناً منهم أنهم غير مذنبين، فعلى الإنسان المؤمن أن يحاسب نفسه في جميع أعماله وأقواله، وليحذر عاقبة غفلته، فإن عذاب الله واقع في الدنيا أو في الآخرة، وهذا إنذار لكل غافل أو متغافل فكيف تأمنون أيها الغافلون؟

وننتقل إلى دفعة إيمانية جديدة تبدأ بالتفات، إلى محمد ﷺ ومخاطبته، بصيغة الأمر، ليلبي الرسول طلب ربه وينفذ ما أمره به في قوله:

﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[١].

خاطب الله ﷻ رسوله ﷺ مؤكداً أن الهداية من الله وأن الإيمان لا بد أن يكون خالصاً له ﷻ، وأن الكافر يرى ليل نهار آيات الله ومع ذلك يظل على عناده وكفره، وقد شملت الآيات خطاب أو توجيه مضمر للرسول ﷺ أن يظل سائراً في طريقه، يبلغ ويصدع بما يؤمر، وهذا هو ما بُعث لأجله، فإن عليه البلاغ وعلى الله الحساب.

لذلك يطلب الله ﷻ من نبيه ﷺ أن يقول: (هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وفعل الأمر (قل) حقيقي، متضمناً معنى المؤانسة ونشر الطمأنينة في نفس محمد ﷺ، أي: إن ما تقوم به من تبليغ الرسالة هو الأمر الصحيح، وإنك بقيامك بهذه المهمة ترشد الناس إلى سبيل الله، على بصيرة ووعي وإدراك أنه الحق..

و(سبيلي) يمكن أن يكون مجازاً بالاستعارة التصريحية الأصلية، من تشبيه الدين بالسبيل، أي: الطريق، الذي يؤدي إلى الفلاح ويثاب عليه المؤمن.

---

(١) سورة يوسف، الآيات: ١٠٨-١١٠.

والتقدير: قل يا محمد للناس أنك تدعوهم على بصيرة وحجة وبرهان، وقوله: (أنا) تأكيد للضمير المستتر في (أدعو) و(من تبعني) معطوف عليه، أي ومن تبعني في الإيمان والتوحيد، و(أدعو إلى الله) أي: أدعو إلى الله لا إلى غيره، والمفعول محذوف وتقديره: أدعو الناس إلى الله.. وهو مفهوم من السياق، وترك المفعول للتعميم، و(على بصيرة) أي حجة واضحة، (وسبحان الله) داخل تحت قوله: (قل).

والتقدير: وقل سبحان الله، أي: قل تبرئة الله من الشركاء وكذلك قل: (وما أنا من المشركين)، وحذف الفعل من الإيجاز لأن تكراره لا فائدة ترجى منه، فقد يتكرر الفعل إذا وجدت فائدة بلاغية من تكراره، وتقدم الضمير (أنا) بعد النفي، ليخص الضمير بالنفي، أي إنه في خاصة نفسه منتف عن الشرك، ومن إعجاز النص القرآني أن الحذف والتقصير للإيجاز يأتي في المواضع التي يكون فيها المعنى واضحاً من السياق، ويكون الحذف أولى لعدم الإطالة وإدخال السأم على المتلقي، وأحياناً يكون الحذف لإشغال العقل بالمحذوف والتفكير فيه مما يزيد من رسوخ معناه في الذهن.

نلاحظ أن الله ﷻ لما أمر نبيه بإخبار الناس أنه يدعو هو ومن اتبعه إلى الله، وأنه ينزه الله عن الشركاء، أمره أن ينفي عن نفسه الشرك، وأن يقول: أنا لست من المشركين ففي (من المشركين) تعميم أي عموم المشركين في كل زمان ومكان، والشرك له أشكال وألوان، فكل من يدعو لغير الله أو يشرك مع الله ﷻ أو يرتكب من الآثام ما يخرجه عن دينه، كل أولئك مشركون والرسول ﷺ ليس منهم.

وتستمر مخاطبة الرسول ﷺ للتأكيد على أمرين:

- أن الرسل من البشر..

- وأنه يجب أخذ العظة من الأمم السابقة التي عوقبت على شركها..

فيقول: (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً) قصرُ الإرسال على رجال والمراد: الأنبياء والرسل، أي: إنهم هم دعاة الله، وقوله: (رجالاً) لمن اعتقد أن منهم ملائكة، ففي الكلام نفي ضمني عن الرسل أنهم ملائكة، وإثبات أنهم بشر (رجال) اختارهم الله للتبليغ كما جاء في قوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ (١).

وفي قوله: (نوحي إليهم من أهل القرى) قيل: إن الله ﷻ أوحى إلى من اختارهم من أهل القرى "لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة"(٢).

ثم جاء الاستفهام: (أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) والضمير في الفعل يعود على المشركين (وما أنا من المشركين) والاستفهام بمعنى: التوبيخ والتقريع، لأنهم ينكرون أن يكون الرسل من البشر، وأنهم مرسلون بوحي من الله، و(يسيروا) لفظ مجازي على سبيل الاستعارة التبعية، بمعنى: أفلم يطلعوا على أخبار من قبلهم، وعاقبة أفعالهم، ويرون مصارع الأمم المكذبة، ويرون كيف أن الله ﷻ أرسل إليهم الرسل فكذبوهم فحق عليهم العذاب، والفاء في (فينظروا) عاطفة، والفعل معطوف على (يسيروا) مجزوم بحذف النون مثله..

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٩.

(٢) الكشاف: ٥/٥٠٩.

والمعنى: أفلم يتأملوا ويعلموا، على سبيل المجاز بالاستعارة التبعية في الفعل، والاستعارة في الفعلين (يسيروا)، (ينظروا)، أوقع في النفس وأبلغ من (يطلعوا)، و(يتأملوا أو يعلموا)، لأن السير والنظر حركة ومشاهدة بالعين تكون أكثر إقناعاً حيث ترى صنوف البشر وما طرأ عليهم من عقاب ربهم بسبب عنادهم..

وقوله: (في الأرض)، يعني في الأماكن التي عاشت بها الأمم البائدة، والتي جاءها المرسلون فأنكروا وكفروا، فإن أخبارهم يحكيها الناس جيلاً بعد جيل والسير في الأرض يعطي الفرصة للمشاهدة المتنوعة، والشيء الذي تقع عليه العين وتراه يكون تأثيره أقوى وآكد في النفس، لذلك جاءت الاستعارة في الفعلين أبلغ من الحقيقة رغم أن السير والنظر مجازي، ومع ذلك فهو يؤثر فيمن يعقل.

وهذه الآية يُخاطب بها هؤلاء المشركين الذين عموا عن طريق الحق والاستفهام يتضمن كثيراً من التساؤلات:

كيف يكون موقف من نظر وتأمل واطلع على ما حدث، ويحدث في هذه الدنيا، من عقاب رباني لمن أشركوا وخالفوا الرسل؛ في دعوتهم إلى سبيل الله بالحجة والموعظة الحسنة؟

كيف يكون موقفه بعد ذلك وقد ظل على كفره وعناده؟

إنه يلقي بنفسه في دائرة العقاب، حيث ينال كل معاند جزاءه، بقدر تمرده وعصيانه، لأن الطريق واضح والسبيل إلى الجنة واحد لا خلاف فيه.

وماذا نسمي هذا المشرك الذي عاند وجحد رغم اطلاعه وعلمه؟

هل يُسمى هذا غرورٌ وشرودٌ عن الحق؟

ألا يكون ذلك دافعاً لهم لأن يعتبروا ويتعظوا فينقذوا أنفسهم من عـذاب النار فإن (الدار الآخرة خير)، واللام توكيدية والعبارة فيها حض على العمـل للدار الآخرة والاستعداد لها، فإن كل إنسان بلغه أخبار الرسـل ودعوهم في سبيل الله، عليه أن يتقي المهلكات، بأن ينخرط في سلك الموحدين العاملين بمـا أمر الله، فمن اتقى فإن الدار الآخرة خير له.

وتجيء الفاصلة القرآنية (أفلا تعقلون) استفهام توبيخي تقريعـي لهـؤلاء الذين يشركون رغم علمهم، وفيه اتهام ضمني بأنهم ليسوا ذوي عقول لأنهم لـو فكروا برجاحة عقل لعلموا أن مصيرهم سيكون مثل مصير هؤلاء الذين عاقبـهم الله في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مقيم.

والفاصلة (أفلا يعقلون) جاءت مناسبة لقوله (أفلم يسيروا) بمعنى: أفـلا يدركون مصيرهم رغم علمهم واطلاعهم على عاقبة مـن كذبـوا الرسـل، وكذلك قد يكون المعنى (أفلا يعقلون) أن الدار الآخرة خير، فيتوسلون إليـها بالإيمان، أم أن هؤلاء المعاندين، من المؤكد أنهم لم يتعظوا و لم يدركوا المصـير الذي يسعون إليه، فإن عذابهم أشد لأنهم قـد جـاءهم الرسـل وأنكـروا، وكذبوهم، فصبر الرسل على تكذيبهم لهم ودعوا لهم وطال دعاؤهم بـالتصديق والإيمان بوحدانية الله..

(حتى إذا استيأس الرسل) أي: حتى إذا استيأس الرسل من إيمان قومـهم، و(حتى) وقعت حرف ابتداء والجملة بعدها استئنافية وتحمل معنى الغاية لما قبلها، فهي متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام السابق، و(إذا) شرطية، و(استيأس) فعـل الشرط ماضٍ في محل جزم..

إن الرسل إذا استيأسوا فمعناه أنهم حاولوا مراراً، مواجهة الكفر والعمـي والعناد، بالدعوة إلى الإيمان، فلا يجدون آذاناً صاغيـة ولا قلوبـاً متقبلـة، لا

يستجيب لهم إلا القليل، ويبقى الكثير على كفره وعناده، فيستشعر الرسل الحرج، ويداخلهم اليأس اعتقاداً منهم أنهم كذبوا، ويطول الأمد عليهم، وهم في انتظار نصر الله، وإعلاء كلمته، وتتباعد الأزمنة، وتطول المدة ويتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فيجيء نصر الله كاملاً من غير احتساب.

وقوله: (وظنوا أنهم قد كُذبوا) وكثرت التفسيرات لمعنى (الظن) في الآية، وهل الضمير عائد على الرسل أم المرسل إليهم؟ وتشعبت الآراء، حول معنى (الظن) هل جاء بمعناه الحقيقي.. أي: الترجيح.. أم بمعنى اليقين، فيكون مستعملاً على سبيل الاستعارة التبعية؟ وعده البعض على سبيل التوهم..

توضيح[1] ذلك كما يلي:

١ - الظن بمعنى الترجيح: بمعنى وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً فتراخى نصرهم حتى استيأسوا عن النصر، وظنوا أنهم قد كُذِّبوا من المؤمنين وارتابوا بقولهم..

٢ - الظن بمعنى التوهم: أي: وتوهم الرسل أن لا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا فجأة، من غير احتساب، فأريد بالظن ما يخطر بالبال، ويهجس بالقلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية..

٣ - الظن بمعنى اليقين: أي: أيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيباً لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك، فحينئذٍ دعوهم فكذبوهم وصبروا وطال دعاؤهم وتكذيب قومهم..

---

(١) راجع آراء العلماء حول معنى "ظن" وضميرها في البحر المحيط ٥/٣٤٦-٣٤٧.

٤ - الظن بمعنى الحسبان: أي: حتى استيأس الرسل من إيمان قومهم، أي: فحسب الرسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم.. يقول الرازي: "وهذا التأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها وهو أحسن الوجوه المذكورة"[1].

وجواب الشرط (جاءهم نصرنا) فيه معنى المجيء فجأة من غير حسبان، أي: لما بلغ الحال إلى الحد من اليأس الشديد بسبب ظنهم وحسبانهم أنهم كُذِّبوا (جاءهم نصرنا فنجي من نشاء)، و(فنجي) على لفظ الماضي قيل: التقدير (فَنُنَجِّي) بإدغام إحدى النونين في الأخرى، ولكن قرأت بنون واحدة في المصحف، أي: جاء مبني للمفعول بنصب (نجي) بإضمار (إن) بعد (الفاء)، والفعل من حكاية حال، من ذكر الفعل في الماضي والمراد به في المستقبل، وذلك ليتناسب مع حكاية القصة في الماضي.

وقوله: (من نشاء) من المؤمنين، لأنهم أحق بالنجاة، ويستحقون الجنة بما نصروا الله ورسوله. والإخبار عن ذلك جرى مجرى الإخبار عن الغيب، فيكون ذلك دلالة على صدق محمد ﷺ.

وقوله: (ولا يُرد بأسنا عن القوم المجرمين) والبأس: الهلاك والعقاب على سبيل الاستعارة الأصلية التصريحية، و(نا) الفاعلين في الاسم ضمير يعود على (الله) جل جلاله، وفي الفاصلة القرآنية وعيد وتهديد لمن كفروا وكذبوا الرسول ﷺ، ووصفهم بالقوم (المجرمين) إثبات للجرم الذي ارتكبوه في حق الله والرسول، فقد تساووا بمن ارتكبوا الجرم في حق الناس وحق أنفسهم..

ويأتي الختام لهذه السورة المعجزة، التي أعجز الله بها المشركين واليهود فأخذهم الدهشة والصمت الرهيب، لما أطلعهم عليه القرآن من أحداث وردت

---

(١) التفسير الكبير: ١٧-١٨/ ٢٢٧.

في القصة، لم يكن لهم علم بها، كما جاءت أحداثها موافقة لما ورد في التوراة والإنجيل، وربما صححت بعض المعلومات المغلوطة التي توارثوها عن القصة، ولكن ذلك لم يجعلهم يعترفون بكفرهم، وشركهم، وإنما زادهم عناداً وصلفاً..

جاء ختام السورة متوافقاً مع أولها حين قال الله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (١).

ليختم بقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

يقول سيد قطب ـ رحمه الله ـ: "هكذا يتوافق المطلع والختام في السورة، كما توافق المطلع والختام في القصة، وتجيء التعقيبات في أول القصة وآخرها، وبين ثناياها متناسقة مع موضوع القصة، وطريقة أدائها، وعبارالها ـ كذلك ـ فتحقق الهدف الديني كاملاً، وتحققت السمات الفنية كاملة، مع صدق الرواية، ومطابقة الواقع في الموضوع"(٣).

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) الضمير في (قصصهم) يعود على الرسل الذين ورد ذكرهم في القرآن، وقيل: يعود على يوسف وأبويه وإخوته، و(العبرة) من الاعتبار وهو العبور من الطرف المعلوم إلى الطرف المجهول، فالعبرة: الدلالة التي يعبر بها عن العلم، والمراد: التأمل والتفكير، فالاعتبار بقصص الرسل والأنبياء يدعو إلى التفكير والتأمل وأخذ العظة.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٣، وتقدم تفسيرها..
(٢) سورة يوسف، الآية: ١١١.
(٣) تفسير القرآن: ٢٠٣٧/١٣.

ففي قصة سيدنا يوسف عليه السلام كان للاعتبار وجوه:

١ - تمكين يوسف عليه السلام وإعزازه بعد إلقائه في الجب، بتأمين حياة كريمة له.

٢ - إعلاؤه ونصره على من ادعى عليه بعد حبسه في السجن.

٣ - إعلاؤه وإعزازه أخيراً بتوليه عرش مصر.

٤ - إرضاؤه وإعلاء شأنه بعد اجتماعه بوالديه، وإخوته، والسجود له تحقيقاً لرؤياه.

٥ - والإخبار عن هذه القصص إخباراً عن الغيب، أعلى به الله من شأن رسوله محمد ﷺ.

والعبرة خصها الله ﷻ (لأولي الألباب) أصحاب العقول الراجحة مدحهم بهذه الصفة لأنهم هم الذي ينتفعون بالعبر، وفي ذلك تعريض بمن لم يعتبروا واتهامهم بنقصان عقولهم رغم أنهم أولي ألباب لكن لم ينتفعوا بمعرفة القصص فإن أولي الألباب هم المتيقنين من قدرة الله وعلمه، وأنه القادر على التصرف في الأشياء بما لا يخطر على بال، فإنهم يجيدون النظر والتأمل في القصص ليروا ما فيه من امتحان ولطف وإحسان علموا أنه بأمر من الله تعالى.

وقوله: (ما كان) عائد على القصص، أي: ما كان القصص حديثاً مختلقاً.. والافتراء: الاختلاق، لكن الافتراء أبلغ لأن فيه معنى الاختلاق مع الظلم والخديعة والكذب.. إذاً هو حديث صادق صادر من الحق تبارك وتعالى، كان على لسان محمد ﷺ النبي الأمي الذي لم يطالع الأسفار ولم يعلم مفردات هذه القصة بهذه الدقة التي وردت بها ولا خالط أحد من العلماء أو الأحبار أو الكهان، بحيث تطابق ما ورد في التوراة من غير تفاوت، بل ذكر القرآن أموراً إضافية لم تكن معلومة..

وقيل: إن (ما كان) عائداً على القرآن، أي: أن ما ورد فيه من قصص لم يكن مختلقاً (ولكن تصديق الذي بين يديه) أي: ولكن كان تصديقاً للكتب الإلهية، إشارة إلى أن هذه القصة وردت موافقة لما جاء في التوراة والإنجيل وكل الكتب الإلهية، وفي الكلام إيجاز بالحذف تقديره: (ولكن هو تصديق) بحذف المسند إليه للتعميم والشمول والآية فيها قصر بالنفي والاستثناء (ما كان.... ولكن) بطريق العطف بـ(لكن)، من قصر القصص على كونه تصديقاً للذي بين يدي الرسول ونفي الاختلاق عنه.

وقوله: (وتفصيل كل شيء) والجملة معطوفة على (تصديق) أي: تفصيل كل شيء من قصة يوسف عليه السلام، أو تفصيل كل ما جاء في القصص القرآني. وجعله وصفاً لكل القرآن أليق وأوقع من جعله وصفاً لقصة يوسف عليه السلام فقط، وقد يكون المعنى تصديقاً لما ورد في القرآن كله، وما يتضمن الحلال والحرام وسائر ما يتصل بالدين، فيكون من ذكر العام المراد به الخاص.

وقوله: (وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) معطوفة على (تصديق)، لتختتم السورة بهذه الجملة المبينة، والموضحة، والمكملة للمعنى السابق، ويكون القرآن: هدى ورحمة وليس لجميع الأقوام ولكن لقوم مخصوصين، موصوفين بالإيمان، أي: القرآن سبب (هداية) الناس في الدنيا و(رحمة) لهم: أي سبب لحصول الرحمة في الآخرة، وخص المؤمنون لأنهم هم المنتفعون بالقرآن، فجعل (الهدى والرحمة) مكافأة لهم على إيمانهم، وفي ذلك تعريض بالكفار فإن الله عز وجل لن تأخذه بهم رحمة ولا شفقة ومصيرهم جهنم يصلون فيها، فإنه لتماديهم في الكفر والعناد قال في موضع آخر: إنه (ختم على قلوبهم) فلن يهتدوا أبداً..

هكذا جاء ختام السورة بتوجيه الخطاب للرسول ﷺ لتتأتى الفائدة المرجوة من ذكر قصة سيدنا يوسف عليه السلام، التي تميزت — كما اتضح — بتوفر

الحبكة القصصية بين بدايتها ونهايتها، فمن الجلي أن الله ﷻ، أنزلها على نبيه في تلك الأوقات العصيبة، التي كان يعاني فيها هو ومن أسلم معه من أهل مكة، ليطلعه على قصة أخ له في الإسلام ونبي عانى ما عاناه في حياته التي حفلت بالابتلاءات، وأولها إخراجه من كنف أبيه وكان صبياً أُخرج مكرهاً ووضع في الجب يعاني الخوف والرهبة فيلتقطه بعض السيارة ليباع لأسرة العزيز التي أكرمته، حتى صار شاباً وعلمه ربه وأدبه وليبتلى بغواية امرأة العزيز فيسجن، ويأتيه الفرج ويصبح متصرفاً في أرزاق أهل مصر وأقواتهم، وينصب ملكاً عليهم، وبعد كل هذا النصر والمؤازرة من ربه، تحققت الرؤيا، وتم لم شمله على أبويه وإخوته..

لا بد أن قصة سيدنا يوسف عليه السلام قد تركت أثراً رائعاً في نفس سيدنا محمد ﷺ والعصبة المسلمة معه، لا بد أنهم علموا أن إخراجهم مكرهين من مكة يشبه إخراج يوسف عليه السلام من حضن أبيه ومن بلده، وأن الفرج قريب، وأن الله ﷻ لن ينسى عباده الصالحين، علموا أنهم سوف ينصرون ويجبرون، وأن بعد الابتلاء الفرج والفرح، كما حدث ليوسف، فكما مكن الله له في الأرض، سوف يمكن لهم فيها، وسوف يأتيهم الفتح القريب، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً.

إن قصة يوسف عليه السلام تسرية وعظة لكل مستيئس على مر العصور والأزمان، يريد الله كيف يجعل لمن استيأس مخرجاً من الكرب ولكل من ابتلي مسرة وفرحة.

بدأت سورة يوسف بمخاطبة الرسول ﷺ ﴿نحن نقص عليك﴾ وانتهت بمخطابته ﷺ ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم﴾. كما بدأت القصة برؤيا وانتهت بتأويلها.

والقصة نموذج متكامل للقصص القرآني، توفرت فيها كل عناصر الأداء الفني، من أسلوب واضح مرتب ترتيباً منطقياً حسب ورود الأحداث وتواليها، ومن حوارات قوية أضفت على القصة عنصر التشويق والتواصل مع الأحداث.

تبقى كلمة أخيرة، بعد هذه الدراسة الممتعة للقصة، التي تم من خلالها مراجعة بلاغية لحروفها وألفاظها وجملها، احتاجت الكثير من التأمل، والبحث والتفحيص والتمحيص للوصول إلى الفائدة البلاغية وراء كل حرف أو لفظ أو جملة، وكذلك ارتباط الجمل بعضها ببعض، في نسق متوازن متنامي، ويبقى التعليق على القصة لإبراز أهم السمات الأسلوبية والفنية التي ميزتها.

الخاتمة

السمات الأسلوبية للقصة

ويمكن تلخيص السمات الأسلوبية للقصة فيما يلي:

١- لقصة يوسف عليه السلام لغة معجزة, وأسلوب تميز بالإيجاز الشديد رغم الاعتقاد أن فيه إطناب "بمفهوم السرد القصصي الوصفي المتمادي في بسط الكلام" فلا يوجد سوى الإطناب بمفهومه البلاغي من ذكر لفظه أو جملة للتوضيح والتفسير، فيما عدا ذلك، فلا يوجد ذلك الاستغراق في التعبير والسباحة مع الخيال.

٢- اعتمدت القصة الأسلوب الواقعي، ولغة الحقيقة في سرد الأحداث، مما أبعدها عن لغة المجاز، فلم تستعمل اللغة مجازياً لتكوين الصورة الكلية أو الجزئية، إلا قليلاً، فالقصة لم تسبح بقارئها في خيالات الصور المركبة التي يلجأ إليها كتاب القصة لإضفاء اللمسات الفنية التصويرية على قصصهم، والتأثير على المتلقي، بصنوف الألاعيب المجازية التي تعطي المتلقي لحظات التحليق في سماوات الخيال الوصفي، للتأثير عليه. فإن قصة يوسف عليه السلام لكونها قصة حقيقية ولكونها قصة مؤثرة في مضمونها ولكونها قصة تحتوي على تركيبات نفسية مختلفة، وسلوكيات أخلاقية متباينة ولكونها قصة نبي من أنبياء الله، اعتمدت لغة السرد الحقيقي الذي ترد من خلاله من آن لآخر بعض الألفاظ والحروف المستعملة مجازياً وبعض التشبيهات أو الكنايات وذلك إذا أريد المبالغة في الوصف أو توضيح المعنى أو التوكيد أو التأثير المعنوي في مواضع الترهيب والترغيب أو التهويل والإكبار، أو التقليل والتحقير. لذلك

لا نجد في القصة تلك التشبيهات والاستعارات التي تزخر بها آيات القرآن الكريم، إلا فيما ندر.

٣- كان التركيز في القصة على الأساليب البلاغية التي يحتاجها الموقف القصصي، كالقسم، والشرط، والقصر، والتقديم، والإيجاز بالحذف — كثيراً — والإيجاز بالقصر — أحياناً، كما تكثر أساليب الاستفهام لغرض بلاغي، وأساليب الأمر والنهي — أحياناً — وفي الغالب تكون واجبة التنفيذ، وإن خرج بعضها لمعنى بلاغي.

٤- أما الوصل والفصل فيكاد السرد القصصي يكون معتمداً على الوصل والفصل والاستئناف، وقد تم ذلك بتقنية معجزة ربانية، جعلت القارئ للقصة لا يتوقف، ولا يتفاجأ بمنطقة فتور في حكاية القصة، أو بتحول مفاجئ، يؤثر على قوة التركيز، أو بجمل تثير ارتباكه، فالقصة من أولها إلى آخرها تتمتع بذلك الأسلوب الإلهي المحكم المعجز وتلك الحبكة القصصية الفنية مما يتيح للقارئ فرصة استجلاء الأحداث، مرتبة متتالية في منظومة لغوية تثير مزيداً من الإعجاب والدهشة والإثارة المستمدة من أحداثها المفعمة بالحركة والانتقالات الزمنية أو المكانية.

٥- كذلك اعتمدت في الأسلوب على الجمل الحالية المربوطة بالواو والضمير والتي كانت وسيلة لتوضيح أحوال الشخصيات وطبائعها كذلك الحال المفردة والجملة بدون رابط..

٦- كما جاء الاستفهام كوسيلة هامة لإبراز العديد من المواقف التي تستدعي التساؤل ليس على الحقيقة وإنما بغرض التقدير أو الإنكار أو التعجب.

٧- يلاحظ القارئ للقصة أن لكل شخصية أسلوبها الذي ظلت له خصوصياته اللغوية من أول القصة إلى آخرها.

٨- تتحول القصة صعوداً وهبوطاً حسب الأحداث، فتكثر الجمل الخبرية الإنكارية على لسان إخوة يوسف، وحين يخاطبهم أبوهم أو يوسف، وقد تكثر أساليب القصر في المواقف التي تحتاج توكيداً ومبالغة، وقد تأتي أساليب الشرط بغرض امتناع الجواب لامتناع الشرط، أو بغرض تحقق الجواب بتحقق الشرط.

٩- جاءت أدوات الربط بخلاف الواو، مثل: قد، حتى، الفاء، أو، لما، الباء.. وغيرها.. بمختلف استعمالاتها، ووضعت في مواضعها بدقة شديدة، وجاء بعضها على سبيل المجاز، بدلاً عن حرف آخر لفائدة بلاغية.

١٠- اعتمدت القصة أسلوب الحوار، فجاءت أقوال الشخصيات المختلفة معبرة عن الدلالات النفسية لكل شخصية، بحيث أمكن وضع خطوط عريضة لكل منها، وتحديد السمات الخاصة بها، فلا يجد القارئ تضارباً في الأقوال، أو عدم انسجام بين القول والشخصية، أو رد فعل غير منطقي، وكثير من ردود أفعال يعقوب عليه السلام ويوسف عليه السلام بدا أنها بوحي من الله.

١١- السمات المشتركة بين يوسف عليه السلام وآبائه وأجداده من الأنبياء متوافقة في القرآن كله، فقد ذكرهم القرآن بصفات لم تتغير و لم تتناقض، وذلك من معجزات القرآن الكريم.

١٢- كثير من الآيات القرآنية احتاجت إلى تأويل — وتنوعت التأويلات عند المفسرين مثلها مثل العديد من آيات القرآن، واهتمت الدراسة بالتأويل الأقرب إلى السياق، والذي يتمشى مع المعنى، ولا يتناقض مع الشخصية.

١٣- وأخيراً جاءت القصة بأسلوب انسجم أولها مع آخرها حيث قال ﷻ: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾(١)، وختم بقوله ﷻ: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾(٢).

وأخيراً نتذكر سوياً قول رسول الله ﷺ عن قصة يوسف عليه السلام: (علموا أرقاءكم سورة يوسف، فإن أيما مسلم تلاها وعلمها أهله وما ملكت يمينه هون الله عليه سكرات الموت، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣، تقدم تفسيرها..

(٢) سورة يوسف، الآية: ١١١.

فهرس المراجع والمصادر

١ – إعراب الشواهد القرآنية في شرح ابن عقيل ، إعداد محمد يوسف أيوب ، الفيصلية ط مكة المكرمة ١٩٩٥ .

٢ – أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، دار المعرفة .

٣ – أساليب بلاغية ، د. أحمد مطلوب ، وكالة المطبوعات .

٤ – إعجاز القرآن للرافعي ، دار الكتاب العربي بيروت .

٥ – إعجاز القرآن للباقلاني ، دار الكتاب العربي بيروت .

٦ – الأسلوبية والبيان العربي ، د. محمد عبد المنعم خفاجي وآخرين ، الدار المصرية اللبنانية .

٧ – الإعجاز البلاغي ، محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة ط٢ ، ١٩٩٧م .

٨ – الإتقام في علوم القرآن للسيوطي جـ٢ ، ط مصر ١٣٥٤هـ .

٩ – الإيضاح للخطيب* القزويني ، مؤسسة المختار .

١٠ – بديع القرآن .

١١ – البحر المحيط لأبي حيان جـ٥ تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الجواد وآخر، دار الكتب العلمية ، ط١ بيروت ١٩٩٣ م .

١٢ – البلاغة والأسلوبية ، يوسف أبو العدوس ، الأهلية للنشر والتوزيع .

١٣ – البيان في ضوء أساليب القرآن ، د. عبد الفتاح لاشين ، دارالفكر العربي ١٩٩٨م .

١٤ – التفكير فريضة إسلامية ، العقاد ، بيروت لبنان ١٩٧٠ م .

١٥ – التفسير الكبير للرازى ، دار إحياء التراث العربي .

١٦ – التفسير البياني للقرآن .

١٧ – ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، دار الكتاب العربي .

١٨ – جواهر البلاغة، الهاشمي ، م العصرية بيروت ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
١٩ – دلائل الإعجاز ، الجرجاني ، دار المعرفة .
٢٠ – دلالات التراكيب ، د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة .
٢١ – سيرة ابن هشام جـ١ ، ط مصر ١٣٣٢ هـ .
٢٢ – علوم البلاغة للمراغي ، دار إحياء التراث ، ط١ مكة المكرمة ١٩٩٢ م.
٢٣ – العمدة لابن رشيق ، دار الفكر العربي .
٢٤ – في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الفكر العربي .
٢٥ – القصة والرواية ، د. عزيزة مريدن ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨٠ م .
٢٦ – الكشاف للزمخشري ، دار الكتاب العربي بيروت .
٢٧ – لسان العرب ، دار الفكر العربي .
٢٨ – مباحث في علوم القرآن ، د. صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، ط١ بيروت ١٩٧٧ م .
٢٩ – مختار الصحاح ، الرازي ، دار الفكر العربي ، بيروت .
٣٠ – المعجم الوسيط في الإعراب ، د. نايف معروف وآخر ، دار النفائس ١٩٨٨ م .
٣١ – من الوجهة النفسية في دارسة الأدب ونقده ، محمد خلف الله ، دار العلوم للطباعة والنشر ط١ ، ١٩٨٤ م .
٣٢ – من قضايا اللغة والنقد والبلاغة ، د. عبد الرؤوف مخلوف ، مكتبة الفلاح .
٣٣ – نظرية التصوير الفني عند سيد قطب لصلاح عبد الفتاح ، دار الفرقان .

فهـــرس